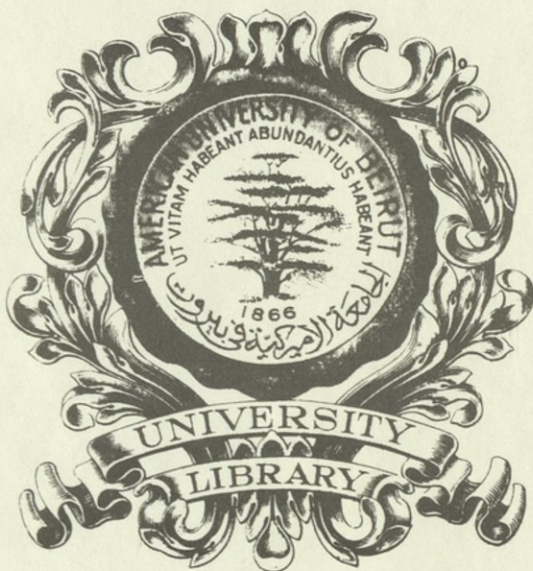
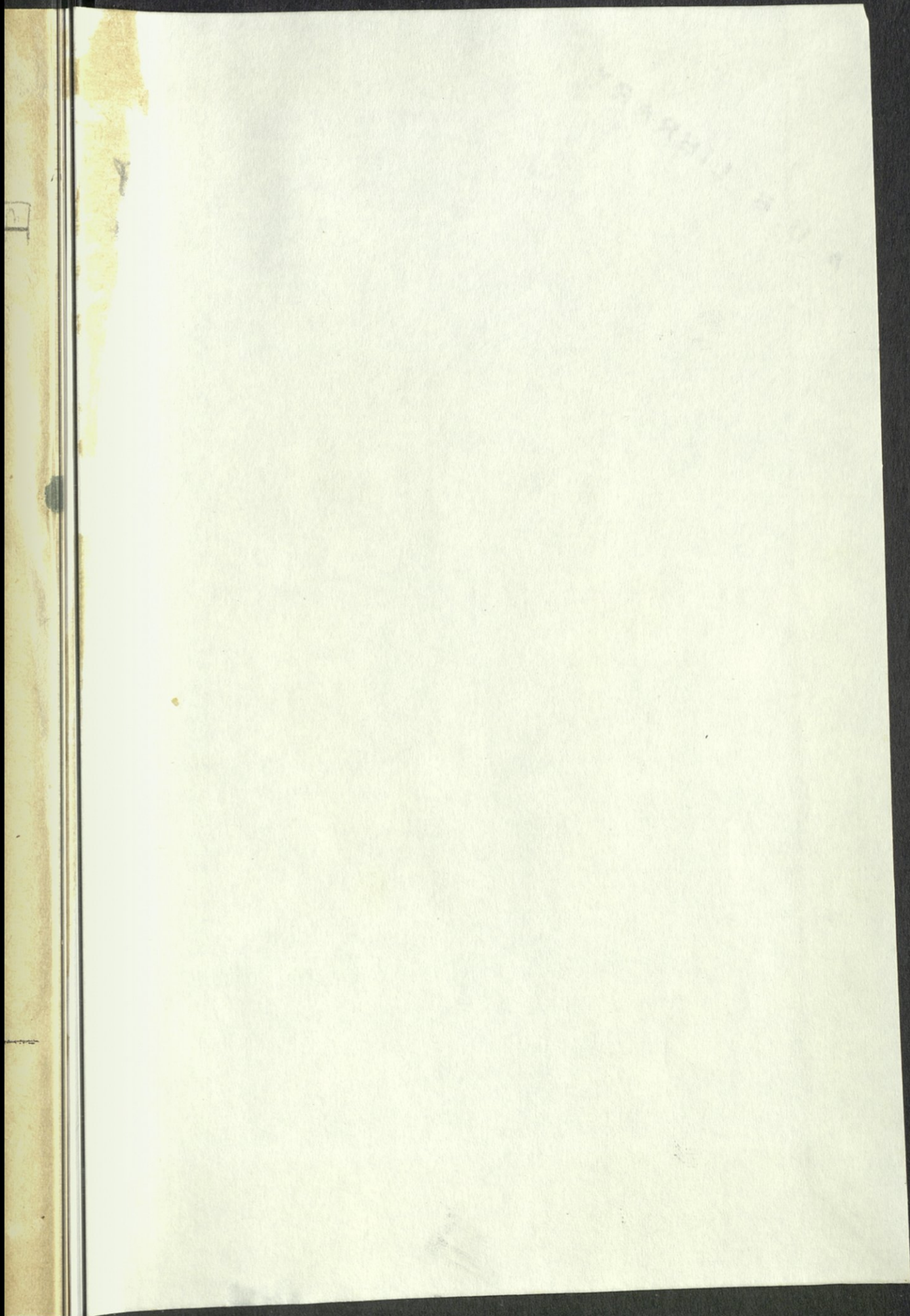


A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY



025

دراسيات

297.09

D962dH

C.4

في العصور العباسية المتأخرة

تأليف

المؤلف

عبد العزيز الدوري

استاذ التاريخ الاسلامي في دار المعلمين العالية

تمت طبعة ونشره

مركز الرباط للطبع والنشر المحرودة

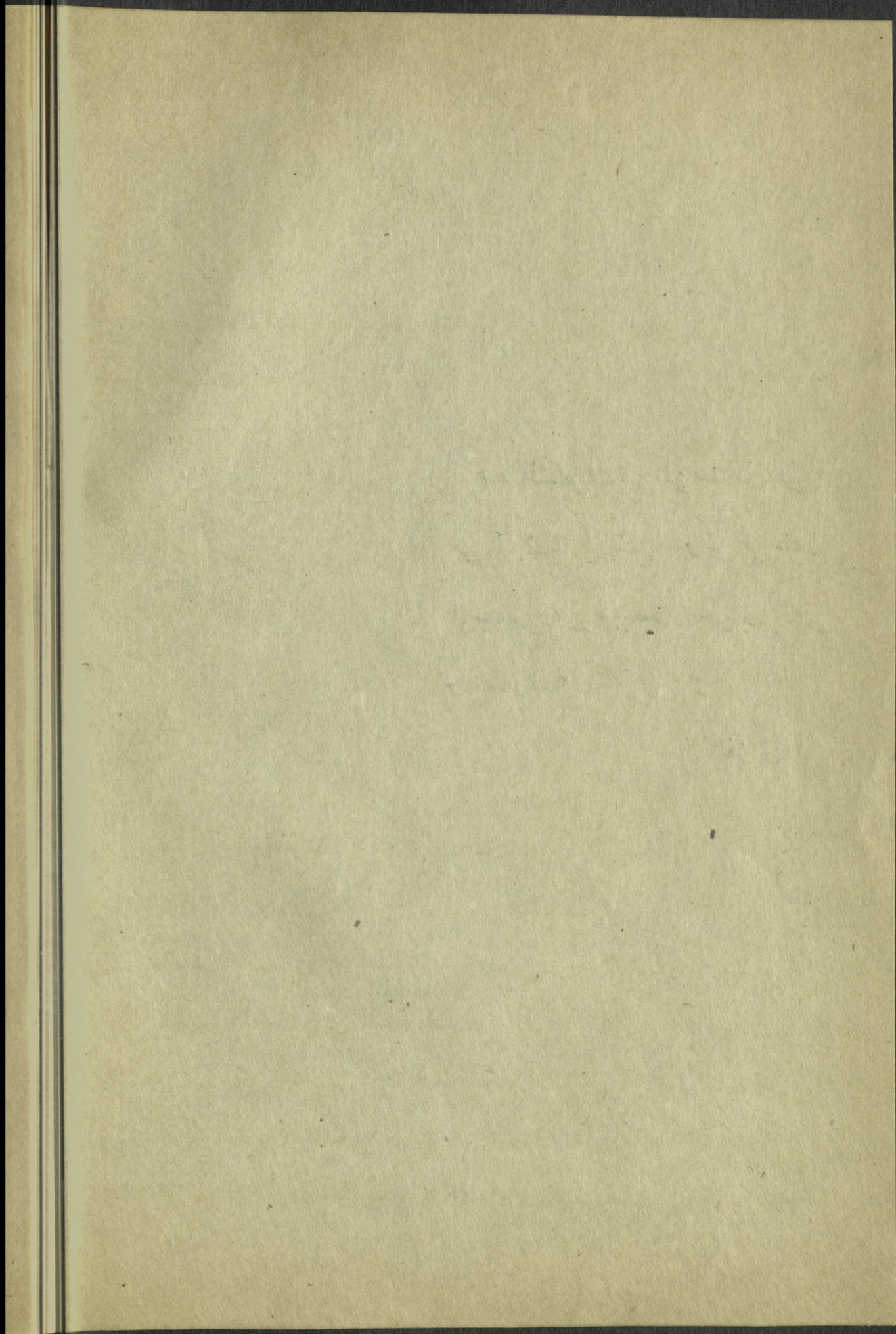
١٩٤٥

مطبعة السريان — بغداد

152 1099

«اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق .
فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر
لم يبصر ومن لم يبصر ، بقى في العمى
والضلال»

الفزالي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لعل أهم مزايا دراسة التاريخ تنمية ملكة النقد وتوسيع افق التفكير من جهة، وملاحظة عوامل التقدم والتدهور في المجتمعات ومواطن القوة والضعف فيها ومعرفة نفسية الأمة وأثرها على تطورها من جهة أخرى. وليس التاريخ توقيت الحوادث أو دراسة الشخصيات، بل هو موضوع حي يصور لنا حياة الأمة وتدرجها، والحياة متعددة النواحي متشعبة ولذا فعلى المؤرخ دراسة المجتمع من مختلف نواحيه - الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية - وتحليل تركيبه الاثنولوجي، وبيئته الطبيعية وحتى اساطيره وخرافاته، وان يدرس هذه النواحي بعضها بضوء بعض، مشتبكة، مؤثرة متأثرة.

ولا تكفي دراسة جزء من المجتمع دون جزء، لان اجزائه قد تكون متلائمة متكاتفة تسير في اتجاه واحد، او متنافرة متضاربة وبذلك تعتمد فيه التيارات وتتصادم القوى فيتبع ذلك تطورات بعيدة المدى. ولا يمكن فهم المجتمع في كلا الحالين ما لم يدرس وحدة كاملة. فمن يستطيع معرفة المجتمع البغدادي في العصر البويهي مثلا اذا اهتم دراسة العيارين والشطار او اغفل الحديث عن الحياة في محلة الكرخ او باب البصرة! وفهم الحركة العلمية في العصر العباسي الاول مثلا يكون ناقصاً اذا قصرنا بحثنا على حركة الترجمة التي شجعها الخلفاء، ولم نبحث في الشعوبية

واثرها في الترجمة عن الفارسية (لآحياء مجد الفرس) وتنقيها في انساب
العرب وتاريخهم والذس عليهم للتشهير بهم ، وكذلك النضال الثقافي
بين الاسلام وبقية الاديان ، ذلك النضال الذي ادى الى تطور علم الكلام
وحث المسلمين على دراسة الاديان الاخرى ، والى انتشار كتب المانوية
والزنادقة ودعاياتهم . ولن نفهم الفلسفة الاسلامية ما لم نفهم التصادم بين
الدين والفلسفة . وموسوعة (رسائل) اخوان الصفا لا تفهم ما لم تدرس
على ضوء النضال الاجتماعي بين الطبقات وسعي بعض المفكرين لقلب
اللتظام الاجتماعي القائم بتعميم الفلسفة والمعرفة .

ولا نفهم تاريخ الامة بدراسة الحوادث وحدها ، فما هي الا مظاهر
لعوامل وتيارات واوضاع بعضها خفي مستور وبعضها بين ظاهر فسكن
من حركة جاءت باسم الدين ، وما الدين الا ستار اخفت وراءه اغراضها
الحقيقية ، سياسية او اقتصادية او اجتماعية . فحركة الاسماعيلية والقرامطة
مثلا لا تفهم اذا اعتبرت دينية ، اذ ان اصولها نمت من الوضع الاجتماعي
السياسي السائد ، واهدافها اقتصادية اجتماعية بالدرجة الاولى . وكم من
زعيم ظهر وقام باعمال جليلة وما ذلك الا لفهمه ظروف مجتمعه والاستفادة
منها استفادة حسنة ، وخير مثل لذلك حمدان قرهط الذي اخذ القرامطة
اعينهم منه . ومن يدرس الحركات الناجحة يجد براجمها صدى للشكوى
والندم السائدين ، ووعداً باجابتها كما يتضح من دراسة حركة الخرمية
وثورة الزنج .

ومن توأحي الضعف الختمية في بحث التاريخ ، تقسيمه الى فترات

ودراسة كل فترة على حدة كأنها شيء قائم بذاته ، والتاريخ برآء من هذا التقسيم . نعم قد تحدث تبدلات سياسية سريعة كحدث غزو اجنبي او سقوط عائلة حاكمة وقيام اخرى محلها ، ولكن ذلك لا يعني مجيء عصر جديد . فع أهمية التبدل السياسي ، علينا ان نتذكر عوامل اخرى مهمة ايضاً من شأنها ان تسبب استمرار الحياة و بقاء التبدل كالعوامل الجغرافية (اقتصادية وطبيعية) ، والتركييب الاتنولوجي للسكان ، ورسوخ المؤسسات الثقافية والتقاليد و بقاء التبدل الاجتماعي ، ونفسية الامة التي تكونت بمرور الاجيال . فالناظر الى الهلال الخصيب بعد الفتح الاسلامي يلاحظ مجيء عنصر جديد ، و بواذر اتجاهات جديدة ، ولكنه يرى ان اسس الادارة المحلية ، ومعيشة السكان بقيت مدة طويلة والى حد كبير على ما كانت عليه . ومجيء العباسيين لم يحدث تبديلاً فجائياً في الوضع الذي خلفه الامويون .

واذن ، فالمجتمع يسير في تياراته ، وهو دائماً في طور انتقال وتبدل ، يختلف قوة وضعفاً باختلاف الاوقات والظروف . فالتبدلات التي حصلت في الهلال الخصيب في العصر الثاني مثلاً لا تقارن من حيث اتساعها وسرعتها بالتبدلات التي تلت الفتح الاسلامي او الحرب العالمية الماضية . ولكننا نقول انه لا تبدل فجائي ، ولا انقطاع في سلسلة التطور .

والآن اشير الى اتجاه شائع ، وهو ان الباحثين يحاولون تلمس اسباب سقوط الدولة بدراسة دور ضعفها ، وفي ذلك ضعف كبير . فنقاط الضعف الاساسية كانت في الدولة منذ تأسيسها ، الا ان نواحي القوة

توقف تأثيرها ، وما ان تضعف هذه النواحي حتى تستفحل تلك وتلعب
دورها المنتظر . ولناخذ الدولة الاموية مثلا لتوضيح رأينا .
فالامويون - على رأي جانب كبير من الامة - معتصبون للحكم وكان
انتصارهم (على رأي بعض العرب) انتصاراً لقريش على بقية العرب ،
وانتصاراً لدمشق على الكوفة . فتأوتتها الاحزاب السياسية من شيعة
وخوارج ، فكان العراق مركز الشيعة ، والجزيرة (شمال العراق حيث
الوضع يساعد على تجول القبائل) مركزاً قوياً للخوارج ، وانتصار الامويين
فيه انتصار للفرقات والتقاليد العربية من بينها العصبية القبلية وما يتبع
ذلك من خصومات قبلية وتنافس على النفوذ وعدم ادراك لاهمية الحكم
المركزي او الخضوع له . ويتبع ذلك شيء مهم وهو ان التقاليد القبلية
لا تعترف بنظام الوراثة المطلقة في الحكم ، وكل ما تذهب اليه هو اعطاء
السلطة لاصح افراد العائلة المالكة . فنتج عن ذلك مشكلة العهد ،
وكان تاريخ الامويين فترة نزاع صامت بين مبدأ الوراثة المطلقة ، وبين
المبدأ القبلي الذي انتصر في مجيء مروان بن الحكم ومروان الثاني الى
الحكم مثلاً . ومن أهم تلك التقاليد ، احتقار غير العرب في الحياة الاجتماعية
واستغلالهم مالياً فادى ذلك الى نمو عداوة كامن بين الحاكم والمحكوم والى
محاولة الشعوب المحكومة استرداد حريتها فكان لذلك ابلغ الاثر في سقوط
الامويين . ثم ان ثقل مراکز العرب من الجزيرة الى خارجها جعل هؤلاء
اقلية بالنسبة للشعوب المحيطة بهم فكان ذلك يتطلب ان يبقوا أمة
عسكرية في مدن محصنة . ولكن ذلك يغير سنة التطور (بعد ان تكمدت

الأموال بيد العرب و بعد ان اختلطوا بمن حولهم من الاعاجم) التي لعبت دوراً مهماً في زيادة نفوذ الاعاجم اجتماعياً وثقافياً وبالاخير سياسياً .
وكم نظلم العباسيين في قولنا انهم سلبوا الاعاجم ، ناسين ان ذلك التسلب بدأ في ايام الامويين الذين حاولوا ايقافه دون جدوى .

كل هذه البذور الهدامة كانت كامنة في كيان الدولة الاموية ، واكتسبت قوة على مرور الايام ومساعدتها في ذلك ضعف بعض الخلفاء المتأخرين وقصر نظرهم ، فاودت بالاسرة الاموية الى الدمار .

هذه اشتات من الملاحظات ، شعرنا بضرورة تسجيلها . ولنختم ملاحظتنا قائلين ان التاريخ الاسلامي يكون سلسلة متصلة ، فيهاعلامات تساعد الباحث وتلك هي التبدلات السياسية .

٢ - ولنأت الآن الى العباسيين .

فقد تناولنا في هذا الكتاب صفحات من تاريخهم - في ادوار ضعفهم السياسي - بشكل موجز دفعنا الى نشره ضالة ما كتب في العربية عنها ، فضلا عن ارتبنا كه . وقد جزأنا البحث الى مواضيع منفردة ولكننا نشعر بضرورة اعطاء نظرة شاملة لتوضيح مجرى التطور في هذه الفترة الطويلة (٢٢٧هـ - ٤٤٧هـ) لنبين ان وراء حوادثها المشتتة سلسلة مترابطة من الاتجاهات والتيارات . وللنظرات الشاملة أهمية خاصة في الدراسات الحديثة في التاريخ .

فلنرجع اذن الى العهد العباسي الاول (وقد بحثناه في كتابنا

« العصر العباسي الاول » - بغداد (١٩٤٥) لاستعراض بعض النقاط الحيوية وربط التطور بفترتنا .

قامت الدولة العباسية على اثر دعاية سرية اتخذت من حق بني هاشم الشرعي في الخلافة صيحتها السياسية ، ومن الوعد بتحسين اوضاع الموالي اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ومساواتهم بالعرب برنامجهما الاجتماعي ، ووعدت باتخاذ الكتاب والسنة والعدل قانوناً بين المسلمين .

واثارت الدعوة العباسية قوى كانت كامنة مكبوتة : استغلت تدمير الايرانيين ، وقوت فيهم الميل للوصول الى الحكم ولاحياء مجدهم التالد ، وفسحت المجال لظهور بعض التيارات الاجتماعية الكامنة وخاصة مبادئ الغلو ومذهب الخرمية الذي تسلسل من حركة مزدك ، تلك الحركة التي كانت تمثل صرخة جماهير الايرانيين ضد النظام الطبقي القائم السائد منذ العصر الساساني ، والذي لم يغيره الاسلام ، وكانت الدعوة تأمل من ذلك جلب ود الايرانيين وتأيدهم لها .

واستهدف العباسيون (متعظين بما اصاب الامويين من دمار) خلق جو من التفاهم والتعاون بين العرب وبين الموالي - ولاسيما الفرس - معتقدين بان الاستقرار لن يتم الا بتعاون مختلف عناصر الدولة .

فهل حقق العباسيون وعودهم وآمالهم ؟

ان دراسة العصر العباسي الاول تنفي ذلك . ولعل فشل العباسيين نتج عن خطأ في تقديرهم لحقيقة الاوضاع ، وعدم استقامة سياستهم ،

والتيارات التي اثاروها ، وعن طموح الايرانيين انفسهم .
فهم وعدوا بالسير على الكتاب والسنة ولاكنهم لم يفوا بوعدهم
وانما استفادوا من الدين لتقوية حكمهم المطلق وتبريره . ولتخدير او محو
الرأي العام ، فخاب أمل الآملين فيهم في هذا الحقل .
وادعوا بحق الهاشميين الشرعي في الحكم ولاكنهم استأثروا به
وذاكلوا بابناء عمهم العلويين وضيقوا الخناق عليهم فأدى ذلك الى ثورات
مستمرة قام بها هؤلاء ، ثم أدى الى دعوة سرية خطيرة في الحركة الاسماعيلية .
واشرك العباسيون ارستقراطية الفرس في الحكم ، ولاكن طموح
هؤلاء ورغبة بعضهم في ارجاع سلطان ايران ومجدها ، ثم حرص العباسيين
على سلطانهم - كل ذلك جر الى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم وأدى
الى سوء العلاقة بين العباسيين وبين الارستقراطية الايرانية .
وتضمن تقرب هذه الارستقراطية ، ابقاء الوضع الطبقي في ايران
على ما كان عليه ، فلم يعمل العباسيون ما يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي
والاجتماعي على جماهير الايرانيين ، فلم يرضخ هؤلاء لوضعهم ، ووضعوا
المسؤولية على العباسيين ، فاخذت المبادئ الخرمية تنتشر بينهم حتى
صارت رمز وعي الامة الايرانية في كفاحها للتخلص من حكم العباسيين .
ولما فشلت الارستقراطية الفارسية في التعاون مع العباسيين حاولت
- لدوافع سياسية - ان تتعاون مع الجماهير ضد الحكم العباسي ، فنشأت
الامارات الايرانية الاولى .

ولم ينجح العباسيون في تكوين جو من التفاهم والتعاون بين العرب
والفرس. فالعرب صعب عليهم تقريب الفرس، والفرس صاروا يطمحون لآحياء
مجدهم. فكان كل من الفريقين يحمده على الآخر ويسعى لضعافه، وظهر
ذلك في حركة الشعوبية التي استهدفت تصغير شأن العرب ووصمهم بكل
رذيلة. وظهر في حركة الزندقة التي ارادت نقض سلطان العرب وكيانهم بضرب
سر مجدهم وهو دينهم. وظهر في البلاط والسياسة حيث حصل تنكث من
الجانبيين (العرب والفرس) للاستئثار بالسلطان: بدأ ذلك في زمن
البرامكة وفي البيعة للأمين والمأمون واستفحل في النزاع بين الاخوين.
فهل نستغرب، بعد ان عرفنا استمرار ثورات الجماهير الايرانية
وطموحهم القومي ودسائس ارسنقراطيتهم، إخفاق العباسيين في تعاونهم
مع الفرس؟

وجاء المعتصم فوجد نفسه في وضع حرج، فقد خيب المأمون
امل الخراسانيين من جديد، بنكبتة بني سهل وبتركة لمرو ورجوعه الى
بغداد وهدم آخر حجر في صرح التعاون العباسي الايراني. والعرب في
وضع مضعضع لمقتل الأمين. وزاد الطين بلة التفاف قسم كبير من جندهم
حول العباس بن المأمون ضد المعتصم، فنكل بزعمائهم وأساء الظن بهم.
وكانت الدولة مهددة بثورة بابك المستفحلة وبخطر البيزنطيين على الحدود
وبتدصر اهل الشام ومصر. فكان بحاجة الى عنصر عسكري جديد
يسند سلطانه، فالتجأ الى عنصر بدأ يتوارد كرقيق الى البلاد الاسلامية

قبله، كما اخذ الاسلام ينتشر في بلاده بصورة بطيئة وذلك هو عنصر الترك.
وكانت خطوة المعتصم هذه بعيدة المدى بنتائجها . فالترك آتت
شعب بدوي ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية ، فهو لا يفهم الاسس المعنوية
للدولة العباسية ، ولا خبرة له بالادارة ، ومجرد من كل ثقافة .

فلا غرابة ان كان تقديم الترك عاملا مهما في زعزعة قواعد الخلافة
العباسية، اذ سرعان ما استفحل نفوذهم بعد نقل مركز الخلافة من معقله
الحصين وموطن انصاره (بغداد) الى سامراء التي بنيت معسكراً للترك
وساعدتهم الظروف على التلاعب بمقدرات الخلافة .

فالواثق (ذلك النكرة في السياسة والادارة) لم يقيم بفعاليات
عسكرية تذكر . فكان حكمه فترة ركود جعل الترك يشعرون باهميتهم
ويتدخلون في السياسة . وبدل ان يقف الخليفة ضد هذا الاتجاه ويقصر
فعالياتهم على النواحي العسكرية (كما كان الوضع زمن المعتصم) نراه يسهل
الطريق له بتعيينهم في الادارة . فانسع مدى نفوذهم . ولعل ضعفه وقلة
ادراكه مسؤولان عن خطأ خطيرة وهي عدم تعيينه ولي عهد بعده ،
ففتح للترك باب التدخل في آخر مراحل السلطة وهي اختيار الخليفة . فلم
يترددوا في استغلال الفرصة بل كانت لهم اليد الطولى في انتخاب المتوكل
فكانت هذه سابقة جرت الويلات على العباسيين

والآن بدأت فترة نزاع بين الخلفاء والترك - خفي عيناً وعلني
احياناً - استمرت الا فترة قصيرة، حتى الفتح البديهي ، كان فيها نفوذ

الترك من أهم مشا كل الخلافة .

فقد وجد المتوكل الترك مسيطرين على الادارة والسياسة ، فحاول
صد تيارهم بمختلف الاساليب كالتقرب من العامة وتقريب العرب والسعي
لتفريق صفوف الأتراك ، ومحاوله نقل العاصمة الى دمشق او الى الماحوزه
(شمال سامراء) ، ولكنه اخفق في مسعا لانهم رغم انقسامهم على
انفسهم كانوا يشعرون بالمصلحة المشتركة ، وساعدهم تخليط الخليفة في امر
العهد وانقسام العائلة المالكة على نفسها فاستغلوا ذلك لقتل خصمهم
والتخلص منه . وتلى ذلك فترة فوضى مريعة ، ولكنها نتيجة حتمية
لهيمنة الترك بعد انتصارهم على الخليفة نفسه . وقد دامت تلك الفترة
تسع سنوات حكم فيها اربعة خلفاء ، وهي جديرة بالتحليل لتوضيح
التطورات التي تلتها .

والحق ان « فترة التسع سنوات » (٥٢٤٧ — ٥٢٥٦) كانت
فترة محنة للدولة العباسية اختبرت فيها قوتها الكامنة ودرجة رسوخها
ومدى مرونتها فخرجت منها بنصر موقت بعد جراح وتقطيع اوصال .
ويرجع ذلك الى عوامل قوية اهمها تأصل حكم العباسيين وقديسية الخلافة
بنظر الجمهور الذي كثيراً ما وقف مناضلاً بجانب الخلفاء ضد الترك . وهذه
الحرمة هي سر بقاء البيت العباسي في الحكم وعدم تفكير الأتراك بنقله
الى بيت آخر .

وهناك اوضاع وتيارات ودعايات ظهرت في هذه الفترة . اوضحها

استبداد الترك بالسلطة وتعيينهم للخلفاء مسوقين بدوافع اطماعهم الخاصة
وحبهم للسيطرة لا بضوء مبدأ او مثل ، ولذلك اختاروا من توسموا فيهم
الخضوع والالتقياد لرغباتهم . ومتى لاحظوا من الخليفة تصلباً هاجموا من
موطن ضعفه وهو افلاس الخزينة فيطالبون بالارزاق ويتخذون ذلك ذريعة
للمتك به . وكانوا احياناً يحدثون الشقاق والتنافس بين افراد الاسرة
المالكة ليسحقوا الخليفة ويمولوا من يريدون .

وتجاه تيار الترك وقفت جأة الخلفاء ونضالهم لاسترجاع سلطانهم
المفقود . فمن الخطأ ان ننسى اهمية هذه النقطة او ان نتصور ان انتعاش
الخلافة بعد هذه الفترة كان فجائياً او بنتيجة جهود الموفق والمعتضد وحدهما ،
اذ كان للمعتز والمهتدي من خلفاء هذه الفترة اثر مشكور في ارجاع قوة
الخلافة . وقد سار الخلفاء في كفاحهم على مبادئ واحدة . فقد لاحظوا
(ولاسيما المعتز والمهتدي) جشع الترك وانانيتهم وما يتبع ذلك من
تنافس فحاولوا تقسيم الجيش على نفسه بتحريك المغاربة والفراعنة ضد
الترك المستبدين او بتحريض الجيل الجديد من الترك (ابناء الاتراك)
ضد الجيل المنتفد وبإثارة الزعماء ضد بعضهم . وكانوا احياناً ياجأون الى
الاستعانة بالعوام ضد الجيش كما فعل المهتدي . ولاشك ان التنافس بين
فرق الجيش وانانية افراده كان سبباً في انهاكه وعاملاً ساعد على تقوية
نفوذ الخليفة في نهاية هذه الفترة .

وتتج عن استبداد الترك واستئثارهم باموال الجباية، فراغ الخزينة

حتى صارت تشكو الافلاس المزمين، وقد حاول بعض الخلفاء كالمهتدي سدهذا العجز والاقتصاد في النفقة، ولكنهم فشلوا امام فوضى الترك وطمعهم بالمال. كما اننا نحس بخط آخر وهو تعاظم نفوذ الحرم في البلاط وتدخله في السياسة. فهذه ام المستعين تجمع الاموال الطائلة وتنسج لها بساطاً واحداً كلفها (كما يقال) مائة وثلاثين مليون درهم. وتلك ام المعتز تشارك زعماء الترك في نهب موارد الخزينة والتمتع بها في حين كانت ابنها يشكو الافلاس، وينهب بها جهلها الى ان تنكر الاموال عليه في ساعته الحرجة فيذهب ضحية طمع الترك. وهكذا اجمع الترك والحرم على تدمير الخزينة. واثمرت الفوضى في المركز ثماراً مرة للدولة العباسية فانها سهلت الطريق للمتدمرين والطامحين للقيام ضد بني العباس. فانفصلت الولايات البعيدة اما بنتيجة حركات شعبية - كقيام الصفارين في سجستان - او طموح بعض الولاة كالطاهريين والسامانيين في خراسان وما وراء النهر. ومما ساعد على الانفصال ان زعماء الترك كانوا عند توليتهم على المقاطعات لا يريدون ترك العاصمة، فيرسلون نواباً عنهم، وهذا الاهمال شجع احد الطموحين من النواب، وهو احمد بن طولون على الانفصال بمصر. وانهز العلويون فرصة ضعف المركز لتأكيد حقوقهم. فهم رغم الضربات العسكرية التي اصابتهم في العصر العباسي الاول، بقيت مبادئهم حية وازداد انتشارها على مر الايام اذ كانت قدسياتهم في نظر الجمهور تزداد بازدياد اضطهادهم. ولم يكن انقسامهم الى ثلاث فرق كبرى (امامية

وزيدية واسماعيلية) الا عاملا على زيادة نشاطهم . ففي هذه الفترة ذهب بعض الزيدية (الحسن الاطروش) الى منطقة جرجان وطبرستان و بشر فيها بالاسلام ونشر المذهب الزيدي . فكانت حركته هذه بدء زوبعة في جنوب بحر قزوين لم تلبث - بعد فترة تقل عن قرن - ان غمرت بغداد ذاتها واخضعتها لسيوف البويهيين .

وانتشرت دعاية الاسماعيلية والقرامطة سرا بصورة واسعة في الشرق الاسلامي ، ثم تلتها انفجارات عسكرية .

وانتجت دعاية صاحب الزنج في اوساط العمال والفلاحين في جنوب العراق حركة كادت تمزق كيان الخلافة .

ولا يمكن تفسير انتشار هذه الحركات وخطورتها الا بعد معرفة العلاقة بين المبادي، التي بشرت بها وبين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعات التي انتشرت بينهم . ففي طبرستان والديلم نجد بالاضافة الى الروح القومية والعداء السياسي للعباسيين ، نظاما طبقياً يعطي الجاه والثروة لجمهرة من الشيوخ (الكندخداهية) ويضع العبء على الجماهير . فاتفق العلويون مع الجماهير ودافعوا عن مصالحهم ، وبذلك اكسبوا حركتهم صفة شعبية فنجحوا في جهودهم .

وفي الشرق الادنى كان في نظام الضرائب من العسف في الجباية والزيادة في الضرائب وسوء المعاملة ما كان دافعاً هاماً لكثير من الثورات في العصر العباسي الاول . ثم تدهور الوضع المالي من جهة وتعدد من جهة

اخرى في العصر الثاني . فالفوضى الادارية التي عمت في فترة التسع سنوات ادت الى تدهور نظام الري والى الزيادة في ظلم الجباة والملاكين للفلاحين والى انتشار الفقر والتدمر العام . ثم ان ظلم الجباة دفع الملاكين الصغار الى توسع وانتشار الملكيات الفردية الكبيرة على حساب الزراع الصغار ثم الى زيادة المتدمرين . ومن جهة اخرى ، حدثت تطورات اقتصادية هامة في المجتمع بتوسيع التجارة . ومن المفيد هنا ان نرجع الى الوراء لنستعرض بايجاز خطوات تطور المجتمع الاسلامي من الناحية المادية .
فالعرب الذين تركوا الجزيرة الى الهلال الخصيب وما جاوره فاتحين ومهاجرين ، مروا بادوار انتقال اقتصادي اهمها :

١ — دور البداوة والسكنى في معسكرات منفصلة . اذ كان جل الفاتحين من البدو الرعاة ، فكان من المحتم ان يكون طراز معيشتهم استمراراً للحياة التي ألفوها في الجزيرة . ومما قوى هذا الاتجاه ان الخليفة عمر ابن الخطاب (رض) اراد ان يكون العرب امة عسكرية تجاهد لاعلاء شأن الاسلام . ولاحظ قلة عددهم بالنسبة للامم المغلوبة فنظمهم في معسكرات او مدن عسكرية خاصة ولم يشجعهم على الزراعة ، بل فرض الارزاق لهم ولعوائلهم . والناظر الى المدن الاسلامية الاولى — عند نشأتها — كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان يجدها مجتمعات قبلية بنعراتها وتقاليدها وشكل حياتها . وبقى العرب ، فترة من العصر الاموي ، يحتقرون كل

مهنة عدا مهنة الحرب ، تاركين الصنائع اليدوية والزراعة الى الاعاجم الذين كانوا « يكندسون طرقهم ويحزرون خفافهم ويحكون ثيابهم » .
ولكن تبدل البيئة على العرب لعب دوره . فصلتهم بالاعاجم - وكانت تقوى على مرور الايام - وكثرة دخول هؤلاء في الاسلام ، وتجمع الثروة لديهم ادت الى تسرب الترف والعمادات والآراء الاجنبية ببطء اكيد اليهم . ورأوا في الارض مصدر الثروة فمالوا الى اقتناء الاراضي والضياح يستغلونها بتشغيل سكان البلاد المحليين في زرعها ، وهكذا بدأ دور اقتصادي جديد وهو دور الاقطاع بدل دور الارستقراطية العسكرية .
واكن السادة الاقطاعيين كان جلهم من الامويين او من القبائل الموالية . وظهر هذا الدور بجلاء في الربع الاول من القرن الثاني للهجرة . فكان خير مثلا لذلك الخليفة هشام بن عبدالملك ، اكبر ملاكي عصره ، وخالد القسري ، ومسلمة بن عبدالملك .

الا اننا نشعر في نفس الوقت بان بعض العرب في الامصار ، كالعراق وخراسان ومصر ، اخذوا يقتنون الاراضي ويستغلون باستثمارها ويسكنون عليها . ثم قوي هذا الاتجاه بانتقال الحكم الى العباسيين لعدة عوا - من هنا نكبة الارستقراطية الاموية واشراك الاعاجم في الحكم مما اضعف عنهجية العرب وقال من شعورهم الارستقراطي فاجذ بعضهم يشتغل بالهن الحرة . ومنها زيادة الاختلاط بالفرس وتقدم المجتمع في الحضارة وضعف الروح البدوية الاصلية . فادى هذا الاتجاه الى دخول المجتمع في دور زراعي .

وكانت التجارة موجودة دائماً ولكنها تقتصر على عدد صغير .
فلما أصبح العراق مركز الخلافة ، وهو على ملتقى الطرق التجارية العالمية
انتعشت حركة التجارة وتوسعت وساعد على ذلك ترف الخلفاء ومن يحيط
بهم وتشجيعهم للتجار ، ووجود تقاليد وصلات تجارية قديمة لاهل الخليج
الفارسي وعرب السواحل والفرس بمختلف انحاء الشرق المتمدن كالهند والصين
واواسط آسيا وافريقية . وكانت ارباح التجار الطائلة اغراء كبيراً لاشتغال
الناس بالتجارة . وتوسعت طبقة التجار باشتغال العرب بالتجارة واهتمامهم
بها ، وبنمو وتوسع المؤسسات المصرفية . فانتقل المجتمع تدريجياً الى طور
تجاري صارت فيه التجارة ركناً من أهم اركان الحياة الاقتصادية بعد ان
كانت ثانوية .

و بتوسع التجارة ظهرت طبقة من اصحاب رؤوس الاموال الواسعة ،
اخذت تستثمر اموالها بتوسيع تجارتها او باقتناء الاراضي ، فادى ذلك الى
زيادة انتشار الملكيات الكبيرة في الارض . ونشأ عن تقدم الحضارة
تحسن في اساليب الزراعة وميل الى استغلال الارض استغلالاً مركزاً ،
مما استوجب زيادة الايدي العاملة عليها . فلجأ بعض اصحاب الضياع
الواسعة الى استخدام العبيد استخداماً واسعاً في مزارعهم . وقد عرف
عن الزنج الصبر على العمل والقابلية على الكدح ، فنظم التجار الحملات
لاصطيادهم او لشراهم من جهات شرق افريقية واواسطها وجلبوا
منهم الالوف . واستخدم الزنج في مختلف جهات العراق ، ولاسيما على

الاراضي السخبة المحيطة بالبصرة حيث حشد الالوف منهم . ولم تكن هذه الجماهير من الزوج تفهم شيئاً ما عن البيئة الجديدة او عن ثقافتها . فلا غرابة ان أدى تشغيلهم على هيئة جماعات كبيرة في محل واحد ، وسوء وضعهم المعاشي وصعوبة عملهم الى تدمير دفين انفجر في ثوره خطيرة عندما وجد من اثاره ووجهه .

ولم تكن ثورة الزنج الا ثورة طبقية محدودة الالفق ، تستهدف تحرير الرقيق من الزوج فقط ، وهي تمثل لنا اول صرخة اجتماعية خطيرة في العصر العباسي الثاني ضد النظام الاجتماعي الاقتصادي السائد . كما انها تكشف لنا عن مدى فضاة استغلال الرقيق بشكل يخالف مبادئ الاسلام ويمثل الجشع المادي المتطرف لاصحاب الاموال . ثم ان دراسة حوادث الثورة تظهر شدة حقد الزوج على اسيادهم وحنقهم على المجتمع الاسلامي ، اذ قاموا بفضائع ومنكرات لا يقدرها الا من تصفح الطبري الذي يتحدث عن الثورة باسهاب عجيب يدل على مدى خطورتها آنشد . وقد انهارت بعد ان خربت مزارع قسم كبير من السواد ودمرت عدداً كبيراً من قرأه ومدنه الهامة كالبصرة والابلة ، ولعل فشلها ناتج بالدرجة الاولى عن كثرة فضائعها وخلوها من برنامج اجتماعي شامل .

وكانت هناك في هذه الفترة نفسها ، حركة اخرى - دينية بمظهرها ، سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية باهدافها - ثبت دعاتها بنكتم وحكمة في العراق وهي حركة الاسماعيلية . ومع ان

الباحثين المستشرقين وغير المستشرقين (مثل دي ساسي ، ودي خويه ،
وغيارد ، وبراون ، وماسنيون ، وايفانوف ، والهمداني ، ولويس) وجهوا
عناية خاصة لدرسها الا ان اجرائهم تنازلت المظهر الديني او السياسي للحركة
ولم تعن ببحث الاساس الاقتصادي لها ، ولم تفحص مصدر مبادئهم فحسباً
شافياً ، ومع اني بحثت هذه النقاط في الفصل الخاص بالاسماعيلية والقرامطة ،
الا انني اراني في حاجة الى اظهار الحركة على ضوء العصر الذي نشأت فيه
وادخلها ضمن الاطار الشامل الذي قصدنا اعطائه في هذه المقدمة .

وأول ما يجلب الانتباه هو ان الحركة الاسماعيلية نبتت من
الكوفة ولاقت في منطقتها اول نجاح عملي ، وهذه نقطة لها اهميتها .
فالكوفة كانت مجعاً للثقافات والديانات القديمة ومركزاً مهماً من مراكز
الغلو الذي استغله العباسيون في دعوتهم . والغلو نفسه لم يكن الاستاراً
استخدمه الموالي في العصر الاموي لتحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي
السيء كما ظهر في حركة المختار (انظر قلمها وزن ص ٦٨) . ولكن الغلو
اخذ ينتشر في هذه الفترة بين جماهير العرب وذلك لان التعاون ووحدة
المصالح بين الارستقراطية العربية والفارسية ، وانتقال المجتمع الى الدور
التجاري ادى الى وقوع الجماهير من العرب والموالي في وضع معاشي واطىء
والى انقسام المجتمع على اساس اقتصادي لا عنصري .

واستمر الغلو يحمل في ثناياه الثورة على النظام السائد . وقد تستمر
الغلاة باسم الشيعة ليمتخذوا من حق العلويين في الخلافة صيحة شرعية ضد

العباسيين ، ووجد قسم منهم في اسماعيل بن جعفر الصادق واحفاده أئمة
يدعون اليهم .

ومع ان العباسيين استغلوا الغلاة وتعاونوا معهم في فترة الدعوة ،
الا انهم بعد توصلهم الى الحكم تنصلوا منهم دون ان يتمكنوا من
ايقاف قوتهم التي اثاروها ، وسرعان ما توجهت تلك القوة ضدهم لانهم
ابقوا الوضع على ما كان عليه . فلا غرابة ان نشأت نواة الحركة الاسماعيلية
في خلافة ابي جعفر المنصور الذي اضطر الى ضرب الغلاة علناً في تنكيه
بالراوندية وبالخرمية .

لكن قوة خلفاء العصر الاول ، اضطرت الاسماعيلية ان ينقلوا
مركز دعوتهم الى الاهواز ، ثم الى ساهية قرب حمص والى اختفاء
اثمتهم . ولعل دعايتهم رجعت الى سواد الكوفة بعد مقتل المتوكل ،
فجاءت في ظرف مناسب من كل النواحي . فاضطراب الخلافة اضعف
الرقابة عليها . كما ان سوء الادارة وما تبعه من ظلم جعل وضع الفلاحين
الاقتصادي سيئاً ، وزاد الطين بلة ثورة الزنج وما خلفته من خراب . هذا
بالاضافة الى ان منطقة الكوفة الخصبية كانت مزدحمة بالسكان ، والتباين
الطبقي فيها قوي لوجود عدد قليل من الملاكين يمتلكون الاراضي الواسعة
بينما حرم جمهور الفلاحين الا من الجزء الزهيد مما ينتجون . لذا كان
التدسر من الوضع شديداً . ومن ناحية ثقافية كانت البيئة في منطقة
الكوفة غريبة . فلاساطير والجهل وحتى بقايا من العقائد الوثنية كانت

متفشية بين العوام . هذا مع انها لم تكن تخل من مبادئ الغلو . ولا تنس انتشار بعض الآراء الفلسفية اليونانية بين المثقفين ، حتى او رثتهم حيرة وشكوكا في كثير من معتقداتهم . فجات الدعوة عن طريق اصلاح الدين حيناً والاهتمام بالفلسفة حيناً آخر ، واكدت على الصلة الوثيقة بين الرفاه المادي وبين الدين الصحيح ، واعتبرت النظام القائم مسؤولاً عن الفساد والفقر . ووجدت الحركة في العراق في شخص حمدان قرمط (من اهل السواد) زعيماً عملياً عبقرياً ، فنظم دعوتها بضوء الواقع وجعل تدابيرها حلولاً موقفة لنقاط التذمر ، كما وجدت في عبدان مفكراً قديراً وجه مبادئها وألف لها الكتب و وضع لها منهاجاً فكرياً يناسب بيئتها الجديدة . ومع ان بذور الحركة الاسماعيلية ترجع الى الغلو ، فتشترك بذلك مع الخرمية في كثير من المبادئ ، وخاصة في الاتجاه الاقتصادي ، الا انها كانت اكثر مرونة وأقدر على الاستفادة من الاوضاع والخبرات الجديدة . وهذا يعود الى - حد كبير - لاختلاف مهد كل من الحركتين . فالخرمية حركة ايرانية القت تبعة الوضع السيء على العباسيين العرب وعلى دينهم الذي جلب اليهم السلطة ، ومع انها كانت لها برامج اقتصادية يسارية (تقف عند اعادة توزيع الاراضي على الفلاحين ومحو التبائين الطبقي) الا انها جعلت هدفها العملي البارز التخلص من حكم العباسيين ومن دينهم وارجاع مجد ايران والدين المجوسي بشكل ما . اما الاسماعيلية فمهدتها العراق حيث توجد جماعات كبيرة من الانباط والفرس والسريان

الى جانب العرب ، وفيه جماهير من العرب تشكو نفس التباين الطبقي والظلم الذي يشكو منه هؤلاء الجماهير من الموالي في حين كان فيه قسم من ارسقراطية الفرس والترک تتمتع بالنفوذ والثروة. ولهذا اكتسبت الحركة صفة اقتصادية أممية . ثم ان انتشار الفلسفة اليونانية ، واطلاع زعماء الاسماعيلية على كافة الديانات والنقائات ابان لهم بان الضغط الاجتماعي حصل في المجتمعات غير الاسلامية كما حصل في المجتمع الاسلامي ، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد جميع الاديان ونسبوا قسماً كبيراً من مسؤولية الشقاء الى الدين ذاته ، فشجعوا الفلسفة وحاربوا الاديان لا ليستبدلوها بدين رسمي آخر، بل ليتخلصوا منها . ولما كان المجتمع في العراق اسلامياً كان الهجوم بالدرجة الاولى على الاسلام . واذا تذكرنا ان المام ثعوام بالدين لم يتجاوز المظاهر وانهم لم يكونوا راضين عن حالتهم المعاشية ، ادركنا سبب تأكيد القرامطة على الناحية المادية واستخدامهم للدين (بطريق التأويل وعلم الباطن) كوسيلة لضرب الدين ^(١) .

وهناك شيء آخر مهم ، وهو ان ثقافة دعاة الاسماعيلية الواسعة ، ونظرتهم العملية واهتمامهم باصلاح الواقع ثم اختلاف الوضع في المجتمعات الاسلامية - دفعهم الى تعديل مبادئهم وتنظيماتهم لتناسب الوسط الذي

(١) هامش - الحديث هنا عن الاسماعيلية في دورها الاول ، الثوري ، وقبل ان تنشأ الدولة الفاطمية التي عدلت الكثير من المبادئ الاسماعيلية وصارت فيها نزعة قوية للمحافظة .

يدعون فيه رغم كون الاسس والاهداف واحدة . وخير مثل لتوضيح ذلك ، فخص تنظيمات القرامطة في كل من العراق والبحرين انرى كيف أدى اختلاف الاوضاع في هذين البلدين الى اختلاف التنظيمات .

فمن الناحية الاثنولوجية ، كان سكان السواد مزيجاً من اجناس متعددة كما بينا ، بينما كان عامة سكان البحرين عرباً بينهم اقلية من الفرس واليهود . ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية كان عامة سكان السواد يشتغلون بالزراعة مع تباين كبير في مستوى المعيشة ، بينما كان اكثر سكان البحرين بدو رعاة ، وبعضهم زراع في منطقة الاحساء الخصبية خاصة ، وبيدهم اقلية مهمة من التجار واخرى من الصناع واهل الحرف . ومن ناحية معنوية لم تسكن في السواد عصبية عنصرية ، بينما كانت في البحرين نزعة عربية . ومن الناحية الثقافية نجد بساطة في التفكير وعدم الميل الى التعقيد في الدين في البحرين يقابل ذلك الفوضى الفكرية والتعقيد مع الجهل في السواد . واخيراً كانت فترة قرامطة العراق فترة عصيان موقت ضد خلفاء اقوياء ولم تتجاوز مدتهم نصف القرن ، بينما كونوا في البحرين مملكة مستقلة عاشت عدة قرون .

فاذا فهمنا هذا التباين فسنفهم الفروق في تنظيمات القرامطة في السواد والبحرين . ففي السواد الغيت الملكية الفردية ، وطبقت اشتراكية تامة يعطى فيها لكل فرد حسب حاجته ، بينما يكون مركزه الاجتماعي متناسباً مع خدماته . أما في البحرين فكانت التدابير الاقتصادية

تتصف بنزعة يسارية قوية ، ولكن ليست اشتراكية بالمعنى الصحيح ،
وذلك لعدم وجود التطور والتعميد الاقتصادي الموجود في العراق من
جهة ، ولان فعاليات سكان البحرين الاقتصادية كانت في حقول متباينة
من زراعة وتجارة ورعي وصناعة . فابقيت فيها الملكية الفردية ولكن
الحكومة قامت بدور مصرف زراعي صناعي لتسليف الزراعة والصناع
الاموال عند الحاجة وتشجيعهم في اعمالهم . ومنع الربا لحماية الناس من
من جشع المرابين . واحتكرت الحكومة التجارة الخارجية وحاولت فتح
الاسواق لها في الخارج لتنظيم امر الصادرات والوارد لفائدة الشعب والحكومة .
وضربت نقوداً من الرصاص - لا تقبل خارج البحرين - حتى لا تمنع
(حسب النظرية المتبعة آنثذ) تسرب الثروة الى الخارج . وانشئت
طواحين مجانية لفائدة الشعب وللتخفيف من اعباء النساء . وخفضت
الضرائب ، والفي الخراج في منطقة الاحساء للترفيه عن الزراعة . وانشئت
مزارع حكومية لتوفير الدخل للخرينة لتقوم الحكومة بخدماتها الاجتماعية .
وصفوة القول ان الحكومة اتبعت سياسة من شأنها رفع مستوى المعيشة
وتوفير الرخاء لكافة اقسام الشعب .

و بينما كان الحكم مطلقاً بين قراةطة السواد ، كان شوريا في
البحرين . فمع ان الحكم كان في البحرين وراثيا في عائلة ابي سعيد ،
الا انها وراثة مقيدة برأي مجلس الشورى الاعلى المسمى بمجلس العقداية .
كما كان على الرئيس (ويسمى السيد) استشارة ذلك المجلس الذي يضم

ابرز الشخصيات في القضايا السياسية والعسكرية والادارية ، وبذلك
أصبح الحكم شوريا يناسب النزعة البدوية للحرية .
وبينا كانت نزعة قرامطة السواد اممية ، كانت النزعة في البحرين
عربية ، فقال شاعرهم :

تولى نبي بني هاشم وهذا نبي بني يعرب

وختاما نرجح ان التطرف في المباديء في السواد كان اقوى منه في
البحرين لرسوخ وكثرة التقاليد والاساطير الدينية في الاول بالنسبة للثاني .
يتضح اذن مما مر ، ان المجتمع العباسي كان يصطخب بالتيارات
الخفية ، تلك التيارات التي ما خف الضغط الخارجي عنها ، حتى انفجرت
براكينها وكادت تمزق الخلافة العباسية وكل ما تمثل .

ولكن الخلافة اثبتت انها كانت لا تزال تنطوي على حيوية قوية
كامنة . فالأترك الذين لم يكونوا مدفوعين بهدف معين (غير الانانية)
انهمكهم التنافس فيما بينهم والنضال مع الخليفة . والامراء المنفصلون
كانوا يرون في رضى بغداد خير وسيلة لجعل حكمهم حكما مشروعا بنظر
الجمهور ، فكانوا يهتمون بمحاولة استحصال عهد تولية من بغداد ويسعون
للتفاهم معها وارضائها . والبيت العباسي اخرج في الموفق (اخ المعتمد
والمسيطر عليه) اميراً عبقريا حازما لقب بحق « المنصور الثاني » .

فتلت فترة (بين ٢٥٦ — ٥٢٩٥) من البعث السياسي
والانتعاش العام ، وذلك بنتيجة قوة الموفق والمعتضد وبعد نظرهما

وقابلتيها على إشغال الأتراك في المعارك وضبطهم . فأخذت الثورات
الداخلية التي قام بها الزنج والقرامطة ، وأعيد سلطان الخلافة على العراق
والجزيرة وغرب إيران والشام ومصر . وانتعشت الماكنة الإدارية وعادت
هيبة الوزراء وسيطرتهم على السياسة العامة . وبذلت جهوداً لاصلاح نظام
الري ولتشجيع الزراعة ولاصلاح نظام الجباية . وقضى على فوضى الأعراب
وأعيدت السكينة الى البلاد ، فذاقت بعض الرفاه ، ووضع حد لآزمات
الخزينة . ولعل رجوع المعتمد الى بغداد كان دليلاً على تقلص نفوذ الترك
وعنواناً للبعث الجديد . وظن الناس ان عصر الخلفاء الأول قد عاد .
ولكن نصف قرن كان كافياً ليظهر ان الانتعاش لم يكن راسخ
الأركان ، وانه كان نتيجة وقتية لجهود الموفق والمعتضد ، وان عناصر
التفسخ كانت كامنة تنتظر الفرصة . فالترك خفت صوتهم ولاكنهم بقوا
عماد الجيش وعلى استعداد للتدخل في السياسة متى سنحت الفرصة .
والمنكفي الذي خلف المعتضد (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) اظهر في مرضه
الأخير ضعفاً وانانية مضرين اذ انه لم يرد ان تنتقل الخلافة الى ابنائه
عنه ، مع ان اخاه جعفر (المقتدر بعدئذ) كان طفلاً ، فلم يبيت في امر
العهد وبذلك تركه للوزراء والسكتاب ، وكان هؤلاء في وضع مؤلم ، فما
ان رجع لهم نفوذهم في هذه الفترة حتى اخذوا يتنافسون فيما بينهم ، فكل
وزير له عصبية تتمتع بالوظائف والثروة عند مجيئه الى الحكم وتنسكب
وتصادر اموالها عند عزله ، ولاشك ان المصادرة (وقد اصبحت عادة)
كانت عاملاً هاماً في اذكاء نار الحقد والتنافس بين الوزراء . وقد انقسم

الكتاب فعلا في ايام المكتفي الى حزبين متناحرين : احدهما جلب
المقتدر الى الخلافة ، وثار الآخر يريد ابن المعتز ، وعندئذ تدخل الجيش
لتأييد عرش المقتدر ، فكان ذلك اعلانا بشؤم خطير .

هذه انجاءات كانت تنذر بالشر في وقت فتح عصر المقتدر ، ثم وجدت
من الظروف المحيطة ما قوى حدتها حتى جرت بسلاطان العباسيين الى
الهاوية . فلننظر اذن كيف لعبت دورها .

كان الخليفة صبياً (عمره ثلاثة عشرة سنة) مترفا لا خبرة له
بالسياسة او الادارة ، مبذراً متلافاً ، بدد في مدة قصيرة ما في الخزينة ،
وزعزع ركن الدولة المالي وهو أهم اركانها . وكان الحرم يتمتع بنفوذ
كبير . وكان على رأسه السيدة شغب ام الخليفة ، ومعها القهرمانه (المديرة
العامة) وعدد من الجواري الفاتنات . وهن نسوة ثقافاتهن محدودة او
معدومة ، يملن الى البذخ والترف وتسيرهن عواطفهن . فانفقن دون
حساب ، وليتهن اكتفين بذلك ، ولم يتدخلن في سياسة الدولة وفي عزل
الوزراء وتعيينهم ، وحتى في القضاء والعدل .

والوزراء والكتاب ، كانت بيدهم الادارة الفعلية (في النصف
الاول لحكم المقتدر على الاقل) ، ولكنهم كانوا - عدا الوزير علي بن عيسى -
جماعة لا نههم الا مصالحهم ، فلم يفكروا باصلاح او بتنظيم ، بل كان
همهم جمع المال بكل وسيلة واعطاء الوظائف لاصدقائهم ومحسوبيهم ،
والدس على بعضهم ، وزاد الوضع سوءاً شعورهم بعدم الاستقرار في وظائفهم
اذ كان كل منهم عرضة للعزل في اي لحظة .

لدى بعضهم على بعض وترحيب الخليفة بالاموال التي يقدمها كل وزير جديد والاموال التي تحصلها هذا من سافه للخزينة - فأضعف ذلك مركز الوزراء ووقف حائلا دون الاستقرار الاداري . وهم كثيراً ما استنجدوا في خصوصياتهم بالحرم وأخطروا من ذلك انهم جرروا الجيش للتدخل في شؤونهم وادخلوه الى حومة السياسة وبذلك نحرروا قوتهم بأيديهم ، ولم يتورع بعض الوزراء - لاسباب شخصية - عن التحالف مع الجيش ضد الخليفة .

وادت الخصومة بين الوزراء والكتاب ، وطمعهم في المال الى تدمير الهيئة الادارية والى ارهاق الشعب بالضرائب والى اهمال نظام الري كما انها ادت الى ازمة مالية وافلاس مزمن في الخزينة فكان لذلك ابلغ الأثر في تصديق سلطان الخلافة .

وعاد الجيش الى التدخل بالسياسة وعلى رأسه مؤنس ، فأخذ مؤنس منذ قضاؤه على فتنه ابن المعتز يعتد بفضله ويحاول التدخل في كل شيء . ولكن وجود الوزراء القديرين في اول عصر المقتدر - كابن الفرات - أوقفه عند حده مؤقتاً . إلا ان تخليط الوزراء واشتداد الأزمة المالية ساعده على تأكيده نفوذه ، ومن ورائه الجيش الذي صار يستغل كل فرصة لطلب زيادات في الرواتب ، او للمطالبة برواتب متأخرة . وزاد الحال سوءاً بتكدر العلاقة بين الخليفة ومؤنس . ولما كانت القوة للجيش ، صار الأمر بيده في سني المقتدر الاخيرة حتى انه خلع سنة ٥٣١٧ ثم ارجعه .

وقد حاول الخليفة تأكيد سلطته باذكاء المنافسة والخصام بين فرق الجيش
ولكن الاوان قد فات . فضمف الوزراء وفراغ الخزينة ، وشهور الجيش
بالمصلحة المشتركة تجاه الخليفة احبطت مساعيه وأدت الى مقتله سنة ٥٣٢ هـ .
وبمقتل المقتدر انحوت الخلافة العباسية كقوة سياسية . فازداد الجيش
تعتياً وطغياناً ، حتى لقد ذهب للقاهر ضحية حين حاول ايقافه عند حده .
وكان الخلفاء الذين تسلو المقتدر من مرشحي الجيش ، يولهم ويعزهم
حسب أهوائه . واستمرت الازمة المالية على حذتها . ونهب الجباة البلاد .
وأدت الفوضى في المركز الى انسلاخ كافة الولايات بيد وال استقل
او امير جديد ظهر ، ولم يبق بيد الخليفة سنة ٥٣٤ هـ الا المنطقة التي بين
بغداد وواسط ، فاصبح سير الادارة مستحيلا لفراغ الخزينة وقلة الوارد
وضعف الخليفة الذي لم يجد المال لدفع الرواتب . فنتج عن ذلك انتصار
جديد مطلق للجيش . اذ اضطر الراضي ان يقبل بتعيين ابن رائق قائد
الانراك في منطقة واسط « امير الامراء » في بغداد لقاء دفع ابن رائق
للمنفقات اللازمة للبلاد وللادارة . وبموجب هذا التعيين انتقلت السلطة
الدينيوية في الادارة والمال والجيش الى امير الامراء . ولم يبق للخليفة إلا
الاسم . وشارك ابن رائق خليفته حتى في امتيازات الخلافة او شاراتها
وهي ذكر الاسم في الخطبة ، وطبعه على السكة .
فتمسك الجيش على كل شي وانهارت المؤسسات الادارية ، وبطلت
الدواوين ولم يبق للوزير الا الاسم . وبذلك زال الاساس البيروقراطي

الذي قامت عليه الدولة العباسية .

وكانت السنوات التي سبقت الفتح البويهي (سنة ٣٢٤ — ٣٣٤) فترة فوضى ونزاع بين الطامحين الى امارة الامراء ، لاقت فيها البلاد عامة و بغداد خاصة ، صنوف المذلة والتدمير وذهبت في نهايتها طعمة سهلة للبويهيين الفاتحين .

هذه هي التيارات التي سيرت الدولة العباسية حتى الفتح البويهي . ولعلنا اوضحنا وحدة التطور واثراوضاع الاقتصادية والانظمة الادارية على سير التاريخ العباسي . وسنرجي تطور التاريخ العباسي في الفترات التالية الى فرصة اخرى .

ولعلنا وضعنا مثلالمعنى النظرة الشاملة وتطبيقها على فترة من تاريخ المسلمين ، وهي ولا شك محاولة اولية علمها تفتح افاقاً جديدة .

عبد العزيز الروري

٤ تموز ١٩٤٥

الوائق

١٩ ربيع الاول ٢٤٧ - ٢٤ ذى الحجة ٢٣٢ / ١١ آب ٨٤٧

١ - تكاد المصادر القديمة ان تجمع على ان الواثق كان ابيض مشرباً حمرة ، حسن الوجه ، عريض الصدر ، كث اللحية ، ربعة ، حسن الجسم ، في عينه اليمنى نكتة بيضاء^(١) . وكان على ما يظهر نهما كثير الاكل والشرب^(٢) . ولكنّه فطن لميب فصيح ينظم الشعر^(٣) ، ويجب الموسيقى حتى انه صنع مائة صوت^(٤) .

اما نظرة المؤرخين المحدثين الى الواثق فمختلفة كل الاختلاف . فالبعض يتطرف في ذمّه له تطرفاً كبيراً لتعصب الواثق الديني وطامعه ، متناسين مزايه الاخرى . فيور يقول : انه كان ضعيفاً وغير رشيد في ادارته^(٥) . ويقول زرتشتين : انه خلو من مزاي الحكام وانه كان رجلاً طامعاً متعصباً منغمساً في الملاذ^(٦) .

بينما نجد البعض الآخر ينحلي في مدحه مغالاة شديدة . فيقول امير علي : كان الواثق - رغم افتراء بعض الكتاب المتعصبين - حاكماً

(١) الاربلي ص ١٦٣ المسعودي التنبيه ص ٣١٢ الطبري ح ١١ ص ٢٤ ابن الاثير ح ٧ ص ٢١ . (٢) المسعودي ح ٤ ص ١٩ . (٣) الفخري ص ٣١٥ . (٤) الاغانى ح ٩ ص ٢٧٧ . (٥) ميور ص ٥١٩ (٦) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٤ ص ١١٩١ .

ماهرآء ، كرمآ صبورآ ، واسع المعروف لم تشب اخلاقه ايسة شائبة برغم حبه المهجون (١) .

وسنرى انه لم يكن هذا ولا ذلك . وان شخصيته في حياته الخاصة هي غيرها في حياته السياسية .

٢ — كانت سياسته اتمرارآ لسياسة عمه وابيه . فكان يجب الاعتزال ويغض « التقليد واهله » ويشجع نشر العلوم بين الناس (٢) . اقتفى اثر عمه في الاعتزال . وحاول نشر مبادئه وامتنحن الناس في خلق القرآن فكتب الى القضاة ان يفعلوا ذلك في سائر البلدان وان لا يجزوا الا شهادة من قال بالتوحيد (٣) . وتشدد في ذلك ، حتى انه امر سنة ٢٣١ هـ بامتحان اهل الثغور فلما رفض اربعة ان يقولوا بخلق القرآن ضرب اعناقهم (٤) . ولما جرى الفداء سنة ٢٣١ هـ اقتدى من الاطري المسلمين من قال بخلق القرآن فقط (٥) .

وهكذا اصبح الاعتزال رمز المواطنة الكاملة واضطهد غير المعتزلة ، فادى ذلك الى السخط العام عليه . يقول المسعودي : « شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فافسد قلوبهم واوجد لهم السبيل الى الطعن عليه » (٦) . وسرعان ما ادى تشدد الواثق الى قيام حركة ضده في بغداد سنة ٢٣١ هـ يحمل لواءها « اصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق

(١) مختصر تاريخ العرب س ٢٤٥—٢٤٦ . (٢) المسعودي — مروج الذهب . ٤ ص ٣٠ (٣) اليعقوبى ح ٣ ص ١٠٧ . (٤) الطبري ح ١١ ص ١٩ . (٥) الطبري ج ١١ ص ١٩—٢٠ ابن الانبيرج ص ٧ ص ١٨ وانظر اليعقوبى ح ٣ ص ٢٠٧ . (٦) المسعودي — التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .

القرآن « . ويقودها احمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي ^(١) .
وانتشرت الدعوة سرّاً ولكن المؤامرة اكتشف قبل موعدها . فالقى
القبض على احمد وعلى بعض انصاره وجيء بهم الى سامراء . فعقد الوراق
مجلساً عاماً لمحاكمته حضره قاضي قضائه احمد بن ابي دواد . وبعض
قضائه . وحكم على احمد بن نصر بالكفر فقتله الخليفة بيده وتبع
اصحابه وسجنهم ^(٢) .

وهذه الحركة تدل دلالة واضحة على قوة اعداء المعتزلة رغم استمرار
ثلاثة خلفاء على نشرها ، فلا تستغرب سهولة ضربها سياسياً في عصر
المنوكل .

وسار الوراق على خطة ابيه في تقريب الأراك وتقديمهم في الجيش .
فاعتمد عليهم الاعتماد كله وأرسلهم الى قلب الجزيرة لضرب الثوار
العرب كما اعطى الولايات الواسعة لقوادهم ورؤسائهم . فقد ولي اشناس
« من بابه الى آخر عمل المغرب ^(٣) » وولي ايتاخ خراسان والسند
وكور دجلة ^(٤) . ولكن مساوىء تقريرهم لم تظهر في خلافته .

واقتردى بالمؤمن في سياسة التسامح مع العلويين . واحسن اليهم
وبالغ في اكرامهم ومنحهم الاموال ^(٥) .

(١) الطبري - ١١ ص ١٨ . (٢) ابن الاثير - ٧ ص ١٤-١٥ الطبري - ١١
ص ١٨ (٣) اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٤ . (٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٠٥ . (٥) الاربلي ١٦٣
الفخري ٢١٥ ابن الاثير - ٧ ص ٢١ .

٣ — حدثت بمض الاضطرابات في خلافة الواثق ، واكنهها لم تكن
خطرة ولعل اهمها اضطراب بعض القبائل في الجزيرة واغلاقها الامن .
ولاشك ان هذه بادرة ان دلت على شيء فانها تدل على ضعف الحكومة
المركزية أو اهمالها . كما أنها كانت بدء ذلك الدور الهدام الذي لعبه البدو
في شئون المملكة العباسية منذ هذا الوقت حتى سقوطها . ففي سنة ٢٣٠ هـ
كان بنو سليم يعيثون حول المدينة ويأخذون ما ارادوا من الاسواق وبأى
سعر أحبوا . ثم اعتدوا على بني كنانة وباهله وقتلوا بعضهم . ولما أرسل
عامل المدينة حملة ضدهم هزموها وقتلوا قائدها . فقويت شوكتهم وزاد
سوء تصرفهم وقطعوا طريق الحج بين مكة والمدينة ثم بايعوا بالخلافة
رجلا منهم . فأرسل الواثق اليهم سنة ٢٣٠ هـ بغا الكبير في الشاكرية
والأترار والمغاربة فهزمهم ثم دعاهم الى لمان فاجابوه واحتبس عنده منهم
من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وترك الباقين . ثم توجه الى
بني هلال وعرض عليهم مثل الذي عرض على بني سليم فاجابوه وأخذ
منهم نحواً من ٣٠٠ رجل من المفسدين وسجنهم في المدينة .

وفي السنة التالية (سنة ٢٣١ هـ) تغلبت فزاره وصره على فذك
فأرسل اليهم حملة فهزبوا الى الشام . ثم جاءه جماعة من بطون غطفان
وفزاره واشجع وتعلمه فاستحلفهم بالايان المؤكدة ان لا يتخلفوا عنه متى
دعاهم فحلفوا . ثم سار الى بني كلاب فاستأمنوا فحبس في المدينة من اهل

الفساد نحواً من (١٠٠٠ — ١٣٠٠) وترك الباقيين^(١) .

وفي سنة ٢٣١ هـ تدمر الشاعر عماره بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي الى الخليفة من بني نمير واخبره بمبشهم وفسادهم في الأرض واغارتهم على الناس وعلى اليمامة وما جاورها . فامر الخليفة بغا ان يسير اليهم من المدينة فتحرك في صفر سنة ٢٣١ هـ وانتصر عليهم بعد معارك كاد يقضي فيها عليه . ثم تتبعهم حتى اقبل عدة من ساداتهم يطلبون الامان لانفسهم ولبطونهم فامنهم وانسهم ثم قيد منهم نحواً من ٨٠٠ رجل وأخذهم معه الى سامراء . وكذلك استدعى من سجن في المدينة^(٢) .

واضطربت ارمينيا « وتحرك بها قوم من العرب والبطارقة والمتغلبين وتغلب ملوك الجبال والباب والابواب على ما يليهم وضعف أمر السلطان » ولكن الواثق ارسل اليهم حملة فاخضعهم من جديد^(٣) .

وقام الخوارج بثورة صغيرة برئاسة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة فقتل على الحركة وأسر زعيمها وجاء به الى سامراء حيث سجن^(٤) .

٤ - اما في علاقته مع البيزنطيين فلم يحصل ما يسترعي الانتباه غير فداء كان سنة ٢٣١ هـ . فقد قدم في آخر سنة ٢٣٠ هـ وفد بيزنطي يقترح

(١) ابن الاثير - ٧ ص ٨ ، ص ١٣ الطبري - ١١ ص ١٢ - ١٣ ، ص ١٥ اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٥ . (٢) الطبري - ١١ ص ٢٢ - ٢٤ ابن الاثير - ٧ ص ١٩ . (٣) اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ . (٤) اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

الفداء ، فمدين يوم ١٠ محرم سنة ٢٣١ هـ موعداً لذلك^(١) . وجرى الفداء على نهر (اللامس) على مسيرة يوم من طرسوس . وكان عدد الاسرى من المسلمين عند الطبري ٣٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ امرأة^(٢) . وعند ابن العبري^(٣) وابن الاثير^(٤) الرجال ٤٤٦٠ والنساء والصبيان ٨٠٠ واهل ذمة المسلمين ١٠٠ . وعلى كل حال فقد كان اسرى المسلمين اكثر من اسرى الروم ولذلك وجه الواصل الى بغداد والرقعة لابتياح « الرقيق من ممالك الروم » ولكن العدة لم تتم « فاخرج ... من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة »^(٥) .

٥ - كان عصر الواصل عصر هذوء نسبي وان كنا لاندرى هل لازم ذلك رخاء نسبي . فقد كان الواصل متقدماً لرعيته^(٦) يحسن الى الناس^(٧) وقد « فرق في اهل الحرمين اموالا لا تحصى حتى انه لم يوجد في ايامه بالحرمين سائل »^(٨) . ومن مظاهر عطفه ان السكرخ احترقت في ايامه فعجز الفقراء عن عمارة املاكهم وانتقلوا عنها فاعطاهم مليون درهم « بمعونة على اصلاح المنازل »^(٩) كما انه اعطى المال لاهل فرغانه لسد ثقب وحفر نهر هناك . وشجع التجارة فأمر سنة ٢٣٢ هـ بترك جباية اعشار سفر البحر^(١٠) ويقول اليعقوبي « وفرق على قوم من التجار اموالا جمّة . . . وأسقط ما كان

(١) الطبري - ١١ ص ١٩ . (٢) الطبري - ١١ ص ١٩ . (٣) ابن العبري مختصر الدول ص ٢٤٤ - ٢٤٥ . (٤) ابن الاثير - ٧ ص ١٧ . (٥) الطبري - ١١ ص ١٩ - ٢٠ . (٦) السعدي - ٤ ص ١٩ . (٧) ابن الاثير - ٧ ص ٢١ . (٨) ابن الاثير - ٧ ص ٢١ . (٩) الاربلي ص ١٦٣ ، اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٨ . (١٠) الطبري - ١١ ص ١٤ .

يؤخذ ممن يرد في بحر الصيني من العشر^(١)»

ولكن الواثق يلام لانه اكثر من مصادرة موظفيه حتى صارت سنة
سيئة لمن خلفه ومصدراً يمول عليه في اوقات الحاجة . ولا شك ان لذلك
أسوأ الاثر في الادارة وفي الاستقرار المالي . ففي سنة ٢٢٩هـ «حبس . . .
الكتاب والزهم اموالا عظيمة وأخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف
دينار بعد ان ضربه ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ ٤٠٠ الف دينار
ومن الحسن بن وهب ١٤ الف دينار ومن ابراهيم بن رباح وكانبه ١٠٠
الف دينار ومن احمد بن الخصيب وكتابه الف الف دينار ومن نجاح ٦٠
الف دينار ومن أبي الوزير ١٤٠ الف دينار^(٢)»

ولا بد ان نشرك في المسؤولية المترتبة على حكم الواثق قاضيه بطل
الاعتزال احمد ابن ابي دواد ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات اذ « كان
لا يصدر الا عن رأيهما ولا يعاب عليهما فيما رأيا وقلدهما الامر وفوض اليهما
مذك^(٣)» ولا شك ان استبقاء الواثق لابن الزيات في الوزارة رغم
سخطه عليه وهو امير دليل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتزان الواثق وقد
قال له « والله ما ابقيتك إلا خوفا من خلو الدولة من مثلك وسأ كفر عن
عيني فاني اجد عن المال عوضاً ولا اجد عن مثلك عوضاً^(٤)»

وأخيراً أرى اهم نتيجة للمهدوء في عصر الواثق تعاظم نفوذ الترك لدرجة
جملت المتوكل يفكر بتقليده، فجري صراع صامت قوي أدى الى انتصار الأتراك

(١) اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٨ (٢) ابن الاثير - ٧ ص ٧ الطبري - ١١ ص ١٠

(٣) المسعودي - ٤ ص ١٩ (٤) الفخري ص ٣١٤

المتوكل

٢٤ ذو الحجة - ٢٣٢ هـ / ١١ آب ٨٤٧ - ٤ شوال ٢٤٧ هـ

١١ كانون الاول ٨٦١

١ - توفي الواثق دون عهد . اذ رفض الاقتراح بتسمية خلف له قائلاً
« لا يراني الله اتقلدها حياً وميتاً ^(١) » وترك الامر لرجال الحاشية
فاجتمع في دار الخليفة قاضي القضاة (احمد بن ابي دواد) والوزير ابن
الزيات ، واحمد بن ابي خالد ابو الوزير وعمر بن فرج من رؤساء الكتاب ،
ووصيف وايتاخ من قواد الاتراك وأرادوا البيعة لابن الواثق : ولكنهم
عدلوا عنه لصغر سنه وقصره واحتج وصيف وقال : « اما تتقون الله !
تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة ؟ » فعدلوا عنه الى اخ
الواثق . فألبسه قاضي القضاة الملابس وسلم عليه بالخلافة ؟ وكانت بيعته
الخاصة في تلك الساعة ثم بايعه الناس البيعة العامة مساء ^(٢) .
وهكذا تمت بيعة المتوكل . وقد لعب الترك فيها دوراً مهماً . ولكن
اشترك رجال الادارة قلة من خطر هذه التجربة ^(٣) . ويرى (بووين)
ان الترك هم الذين اختاروا المتوكل ^(٤) فاختيارهم الخليفة يدل على ان
نفوذهم قد استفحل جداً . فبات اصطدامهم بخليفة قوي كالتوكل
امراً منتظراً .

(١) اليعقوبي ٣ ، ٢٠٨ . (٢) الطبري ١١ : ٢٧ . (٣) اليعقوبي ٣ : ٢٠٨ .

(٤) bowen Ali b. Isa 803 .

٢ — كان المتوكل كما يظهر من المصادر القديمة اسمر رقيق البشرة يضرب لونه الى الصفرة خفيف اللحية حسن الوجه كبير العينين خفيف العارضين نحيفاً مهيباً إلا انه ليس بالطويل ^(١) .

ويوصف المتوكل بسهولة الأخلاق والاعتدال في صرف الاموال مع ميل للكرم . كما يوصف بالحزم والشدة والقسوة والالتجاء الى الغدر متى اقتضى الحال ذلك كما فعل بايتاخ . وكذلك يوصف بالانهماك في اللهو والشراب . فلم ير البعض مبالغاً في القول بانه كانت لديه اربعة آلاف سرية ^(٢) .

وقد أحب المتوكل العمارة . فانفق اموالاً طائلة على القصور والابنية .

٣ — واجه المتوكل قوة المعتزلة واستبدادهم من جانب وزيادة نفوذ الاتراك زيادة خطيرة من جانب آخر واسكنه لم يكن معتزلياً وكان يخشى الاتراك بالرغم من مساعدتهم له في الوصول الى الحكم . فاتبع سياسة جديدة اقتضتها ظروفه وميوله ، إذ قرر ضرب المعتزلة مستعيناً بمساندة الفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربي في المملكة حولهم . ويظهر ان حركة الاعتزال اقتضت على بعض المثقفين بينما بقي السواد الاعظم محافظاً . وهذا يفسر نجاح المتوكل في ضرب قسوة المعتزلة

(١) الم-مودي - التنبيه ٣١٣ - ٣١٤ . الطبري ١١ ، ٦٧

الإربلي ١٦٤ القرماني ١٥٩ . (٢) الإربلي ١٦٤ المسعودي ٤ : ٣٨ القرماني

١٦١ ، ١٥٩ اليعقوبي ٣ : ٢٠٩ .

السياسة دون ان يجابه بثورة أو عصيان . فنهى الناس عن الكلام في القرآن وأمرهم بالتسليم بالتقليد وأمر الشيوخ بالتحديث واظهار السنة . وأطلق من سجنه الواثق لتمسكه بقول أهل السنة وأخرج أحمد ابن حنبل من السجن ٢٤٢ هـ واكرمه ^(١) .

ولكن سياسة الرجوع الى السنة صحبها اضطهاد للمذاهب الاخرى . فتشدد في مطاردة العلويين وانصارهم ونكل بهم وصادر اموالهم ^(٢) . وقد تطرف في كرهه للعلويين حتى انه كان يبغض اسلافه الثلاثة لميلهم للعلويين ^(٣) . وأمر بهدم قبر الحسين وما حوله من المنازل والدور وحاول ان يخفي معالمه ، ومنع الناس من زيارته . وقرب جماعة كانوا مشهورين ببغضهم لآل علي فزادوا الطين بلة بان « كانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بانعادمهم و . . . الاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الواقعة في اسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين ^(٤) . » فذهب الى السخرية علينا من علي علياً .

فاظهرت هذه السياسة الهوجاء عدم امكان التفاهم بين العلويين والعباسيين ، وجلبت سخط قسم كبير من الناس حتى قال ابن الاثير : « فغطت هذه السيئة جميع حسناته ^(٥) » .

(١) السعودي ٣٧٤ ، ٣٧٤ . اليمقوبي ٢ ، ٢٠٩ . ابن العبري ٢٤٨-٢٤٩

القرماني ص ١٥٩ . (٢) ابن الاثير ٧ ، ٣٦ . (٣) نفس المصدر ٧ ، ٣٧

(٤) ابن الاثير ٧ ، ٣٧ الطبري ١١ ، ٤٤ . (٥) ابن الاثير

واضطهد المتوكل الذميين وكان وضعهم قبله حسناً . وامله كان مسوقاً الى ذلك بارضاء العامة . ففرض عليهم نوعاً خاصاً من الزي « وقيد تصرفاتهم العامة ، بان أمرهم سنة ٢٣٥ هـ « بلبس الطيالة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخرة السروج ، وعمل رقعتين على لباس مماليتهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحد منهما غير لون الاخرى . ومن خرج من نسائهم تلبس ازراراً عسلياً ، ومنعهم من لبس المناطق... وان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب » . ومنعهم « ان يظهر وا في شعائيرهم صامياً ، وان يستعملوه في الطريق . وأمر بتسوية قبورهم مع الارض » . كما انه أمر بهدم كنائسهم الجديدة^(١) . ومنع المسلمين من تدريس اولادهم^(٢) . وحضر استعمالهم في الوظائف^(٣) . حتى انه نحى سنة ٢٤٢ هـ المسيحي الذي كان يراقب مقياس النيل^(٤) . ويقول « تريتون » ان المتوكل كان أول خليفة من شرع منع بناء كنائس جديدة . ثم أكد تبان زي الذميين عن المسلمين بعد أربع سنوات إذ أمر « بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الاقبية والدراريع وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين » . كما انه شدد من جديد على « هدم البيع

(١) اليعقوبي ٢ ، ٢١٢ . (٢) الطبري ١١ ، ٢٦ . (٣) ابن

الانير ٧ ، ٣٤ — ٣٥ . الطبري ١١ ، ٣٦ . (٤) Tritton ، ٢٣ .

المحدثه في الاسلام» (١)

وفرض المتوكل ضريبة جديدة على أهل الذمة . فأمر « بأخذ العشر من منازلهم » (٢) . ولما اشترك مسيحو حمص في الثورة ضد العامل سنة ٢٤٢ هـ أمر باخراجهم من مدينتهم « وهدم كنائسهم وادخل بيعتهم في الجامع » (٣) . وكان الغرض من هذه السياسة جلب رد الرأي العام ، وخلق كتلة قوية تؤيد الخليفة . وهي في ذاتها تتعلق بمحاولته لتقليل نفوذ الترك وضربهم بعد ازدياد نفوذهم لدرجة خطيرة .

وقد سار في مقاومته لنفوذ الترك بصورة بطيئة ، فكادت ايامه سلسلة نزاع صامت بينه وبين حرسه انتهت بفشله ومقتله .

بدأ المتوكل بايتاخ « وكان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة » (٤) بالاضافة الى الاشراف على بيوت الاموال وبتلك كانت سلطته خطراً على الخليفة . ولم يتردد ايتاخ في اظهار غروره . فأخذ الخليفة يدبر عليه . وفعلا ارسل اليه من حسن له الحج ، ففعل ذلك ايتاخ فاسرع المتوكل بنقل الحجابة الى وصيف ثم دبر مؤامرة مع حاكم بغداد بأن يسجنه عند رجوعه فنجحت المؤامرة ، ومات ايتاخ في السجن (٥) جمادي الآخرة سنة ٢٣٥ هـ . وكانت بغداد المحل المناسب لهذا المشروع ليقض اهلها للترك وليبعد ايتاخ عن انصاره

(١) ابن الاثير ٤٧٠٧ الطبري ١١ : ٣٦ . (٢) ابن الاثير ٧ : ٢٧ .

(٣) ابن الاثير ٧ : ٥٠ . (٤) الطبري ١٩ : ٣٣ ، ابن الاثير ٧ : ٢٩ .

(٥) الطبري ١١ : ٣٤ .

حتى قال الطبري « ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على اخذنه ، ولو دخل
سامراء فراد باصحابه قتل جميع من خالفه امكنه ذلك »^(١) . اما اليعقوبي
فيذكر ان ايتاخ اراد ان يوقع بالخليفة فلما لم يمكنه ذلك طلب الحج
فسمح له الخليفة بذلك ثم دبر سجنه ومقتله في بغداد ، وانه صادر اموال
عامل مصر لمكاتبتة ايتاخ^(٢) .

وبقي المتوكل يشعر بضعف مركزه ، وبانه في وسط جيش
لا يدين له بولاء خاص ، ففكر بنقل مركز حكمه الى محل آخر يتخلص
فيه من نفوذ الترك ويكون فيه بين عنصر يؤيده وهو العنصر العربي
لانه لاحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والاتراك ، ولذلك فكر
بدمشق التي كان النفوذ التركي والفارسي فيها معدوما ، كما انها تتعصب
للسنة وتكره العلويين ، فهي بذلك تتفق وميوله . وفعلا انتقل اليها في
صفر ٢٤٢ هـ « وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وأمر بالبناء
بها »^(٣) . ولكن الاتراك ادركوا خطر الوضع فاجبروه على الرجوع بعد
ان قام بها شهرين واياماً^(٤) ، إذ بدأوا بالضجيج ضده يطلبون ارزاقهم
وارزاق عيالاتهم وجردوا السلاح . ثم لم يقنعوا باستلام اعطياتهم بل
فكروا بقتله كما يقول المسعودي . فلم ينجحوا لتأييد بغا الكبير
للخليفة وهكذا اضطره الى الرجوع . ويؤيد هذا قول اليعقوبي بأن

(١) ابن الاثير ٧ : ٢٩-٣١ ، الطبري ١١ : ٣٣-٣٥ . (٢) اليعقوبي

٣ : ٢١٠ . (٣) الطبري ١١ : ٥٥ . (٤) الطبري ١١ : ٥٦ .

رجوع الخليفة كان لحذره من موقف الاتراك (١).

ويعطي بعض المؤرخين تفسيراً آخر لرجوع الخليفة الى سامراء فيقولون : ان الهواء بدمشق بارد ندي والماء ثقيل والريح تهب مع العصر ، فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل وهي كثيرة البراغيث (٢).
لكن هذا التفسير اعتداري ، فالمسعودي يبين ان المتوكل لم ينزل دمشق نفسها بل نزل « على ساعة من المدينة في اعلى الارض (٣) » ويؤكد البعض على برودة الهواء وان الثلج « حل ... بين السابلة والميرة (٤) » مع العلم ان المتوكل كان هناك بين صفر و ربيع الثاني (بين مايس وتموز اي في وسط الصيف) (*).

وهكذا فشل المتوكل في هذه المحاولة تجاه مقاومة الاتراك وسرعة انتباههم للأمر .

ثم لم يستقر الخليفة في سامراء ذاتها بل قرر الانتقال الى شمالها ، ففي سنة ٢٤٥ هـ أو ٢٤٦ هـ انتقل الى موضع يقال له الماحوزة على ثلاثة فراسخ من سامراء (٥) وأمر بالبناء هناك ، واقطع القواد واصحابه وأمر بحفر نهر مصدره من خمسة فراسخ شمال مدينته الجديدة التي سماها « الخاصة المتوكلية » (٦). ولعله اراد بذلك تقليل ضغط الترك عليه

(١) اليعقوبي ٣ : ٢٤٥-٢٤٦ . المسعودي ج ٤ ص ٦٥ . (٢) الطبري

١١ : ٥٦ . (٣) المسعودي ٤ : ٦٥ . ابن الاثير ٧ : ٦٦ (٥) اليعقوبي

٣ : ٢١٦ . (٦) الطبري ١١ : ٥٦ - ٥٧ .

(*) ميور ٥٢٨

والابتعاد عن خصومه واعل اوضح دليل على ذلك نقض هذه المدينة
حال مقتله .

وامتصر يدبر ضد الترك قال المسعودي « وجفا الموالي من الاتراك
واطرحهم وخط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم^(١) .
وقد خطا خطوة عملية في ذلك بان ادخل فرقة عربية في الجيش » اذ ضم
الى وزيره عبدالله بن يحيى بن خاقان نحواً من اثني عشر الفا من العرب
والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره . رضاق ذرعاً بتصرف
الاتراك باموال الدولة « وجعل يجيل الآراء في استئصالهم^(٢) . وحاول
تشتيت الزعماء فقبض على ضياع وصيف واقطعها لالفتح بن خاقان^(٣) .
كما انه عزم على الفتك به وبيغاً^(٤) . غير ان الترك استغلوا الخلاف بينه
وبين ابنه المستنصر فعاجلوه وقتلوه كما سنرى .

— ٤ —

(١) وكان وزراء المتوكل طوع أمره . إذ ابقى محمد بن الملك الزيات
في الوزارة ولكنّه كان يحقد عليه لسوء معاملته له في حياة أخيه فنسبته
بعد اربعين يوماً^(٥) وصادر امواله وعذبه حتى مات^(٦) . وكان هذا
« رجلاً شديداً القسوة قليل الرحمة جباها للناس ، كثير الاستخفاف بهم
لا يعرف له احسان الى أحد ولا معروف عنده ، وكان يقول الحياء خنث

(٢) التنبية ٣١٤ . (٣) نفس المصدر . (٤) الطبري ١١ : ٦٠ .

(٥) الطبري ١١ : ٦٤ . المسعودي ٤ : ٦٩ . (٦) اليعقوبي ٣ : ٢٠٩ .

(٦) الطبري ١١ : ٢٧ - ٢٩ .

والرحمة ضعف والسخاء حمق ، فلما نكب لم ير الا شامت به وفرح
بنكته (١) . «

ثم استكتب بعده احمد بن خالد المعروف بأبي الوزير دون تسميته
بالوزارة ثم نكبه . ثم استوزر الجر جرائي « وكان شيخاً ظريفاً حسن
الأدب عالماً بالغناء مشتهراً به فخف على قلب المتوكل » . ثم نكبه لكثرة
السماعات عليه وابدى رغبة لاستيزار حدث وقال ضجرت من المشايخ
فاستوزر عبدالله بن يحيى بن خاقان ، وكان « حسن الخطل له معرفة في
الحساب والاستيفاء الا انه كان مخلطاً ... وكان كريماً حسن الاخلاق .
وكان كرمه ايضاً يستر كثيراً من عيوبه ، وكان فيه تعفف (٢) » وبقى
في الوزارة حتى مقتل المتوكل .

ولكن الوزراء المعزولين كانوا عرضة للمصادرة كما حصل لابن
الزيات ولابن الوزير . ويظهر ان نفوذ الاتراك كان يحدد من سلطة
الوزير (٣) .

(ب) يذكر اليعقوبي ان المتوكل « امر سنة ٢٣٤ هـ ان يسلم الناس على
ابنه محمد بالامرة ويدعي له على المنابر وكتب بذلك الى الآفاق (٤) » .
وفي سنة ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م نظم ولاية العهد فعقد لاولاده الثلاثة : محمد
وسماه المنتصر ، وابي عبيد الله (اسمه محمد او الزبير او طلحة) ولقبه

(١) اليعقوبي ٣ : ٢٠٩ (٢) الفخري ٢١٥ — ٢١٧ (٣) الفخري

٢٠٦ — ٢٠٧ (٤) اليعقوبي ٣ : ٢٠٧

المعتز ، و ابراهيم ولقبه المؤيد (في ٢ - ٣ ذي الحجة) وعقد لكل واحد منهم لواءين احدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل (الطبري) . وقسم الامبراطورية بين الثلاثة : فكانت حصّة الاسد المنتصر ، بينما كانت حصّة المؤيد الحصّة الصغرى . فضم الى المنتصر افريقيا والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه حتى المغرب ، وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجررية والجزيرة والسواد والحرمين والجزيرة العربية والسند والاهواز ومستغلات سامراء ومنطقه الجبال ، وصدقات العرب بالبصرة (يجعل اليعقوبي الجبل في حصّة المعتز ٣ : ٢١١) . وولى المعتز على كور خراسان و كور فارس . وولى المؤيد على اربعة من اجناد الشام فقط ، وهي جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وجند فاسطين (اليعقوبي يضيف ارمينيا واذر بيجان بينما الطبري يجعلها في حصّة المعتز ^(١)) .

وكان المنتصر وحده قد وصل سنا يساعده على التدخل الفعلي في امور الدرلة (١٣ سنة لان سنه عند مجيئه للحكم ٢٥ سنة) بينما كان المؤيد حديثا ، والمعتز طفلا ، ولذلك عين المتوكل لكل منهم كاتباً يشرف على ادارة ولاياته ^(٢) .

وبعد خمس سنوات اُضيف المتوكل الى ابنه المعتز خزن بيوت الاموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب ، وأمر بضرب اسمه على

(١) Z. M. D. G. P. 89 (٢) اليعقوبي ٣ : ٢١١ .

الدرام (١) .

ولكن المتوكل لم ينجح في تنظيمه ، فان الخصومات بين أفراد العائلة المالكة ودسائس الحاشية أدت الى تحطيم خطته وساعدت على قتله . ج (اراد المتوكل ان يقوم باصلاح زراعي مهم ، فحاول تأخير موعد الجباية لحل مشكلة هامة . فقد كان الخراج يجبي قبل نضوج الزرع ، فكان الزراع يضطرون الى الاقتراض ، ويخسرون كثيراً حتى هجر البعض أراضيهم . وكانت هذه المشكلة موجودة منذ العصر الأموي ، فأمر ان يؤخر الموعد من نيسان الى ١٧ حزيران . ولكن مقتله حال دون تنفيذ هذا الاصلاح (٢) .

وفي سنة ٢٤١ جعل كورة سميساط عشرية وكانت خراجية (٣) ولعل اهلها ادعوا بانها ملك الحاربيين . ولعل الضرورة العسكرية ساعدتهم في طلبهم .

واكثر المتوكل من المصادر حتى أصبحت شبه ضريبة على الموظفين الكبار ولعله اعتبرها وسيلة لاسترجاع بعض أموال الدولة التي اخذوها بطرق غير مشروعة . كما ان كثرة النفقات وقلة الوارد دفعت الخليفة الى هذه الوسيلة . ويمكن الحصول على فكرة عن بذخه من نفقاته على الدور التي بناها . فقد بنى قصوراً انفق عليها أموالاً عظيماً ، منها الشاه والعروس والشبذاز والبديع والغريب والبرج . وانفق على

(١) الطبري ١١ : ٣٨ . (٢) الطبري ١١ : ٦٠ ابن الاثير ٧ : ٥٧-٥٨

البيروني ، المقرئزي ، (٣) ابن الاثير ٧ : ٥٥ .

البرج الف الف وسبعمائة الف دينار^(١) « وانفق في بناء الماحوزة
« اكثر من الف الف دينار^(٢) ». وخصص للنفقة على النهر الذي
اجراه اليها ٢٠٠ الف دينار.

والامثلة على مصادراته كثيرة^(٣).

٥ — ساعدت الفوضى في المركز على اضعاف كيان الدولة وعلى حصول
الاضطرابات فيها . فخصمت ثورة في اذربيجان بزعامة محمد بن البعيث ،
وكانت ربيعة العنصر الاساسي فيها . فأرسل المتوكل المتوكل لاختادها
فرقتين ولكنهما لم تخمداها ، حتى ذهب بغا الشراي ، فاستطاع بدهائه
ان يخمدها (سنة ٢٣٥)^(٤).

وفي سجستان ظهر الصفارون وبدأوا بتسكين امارتهم التي
قضت على آل طاهر^(٥) . واضطربت ارمينيا « وتحرك بها جماعة من
البطارقة وغيرهم وتغلبوا على نواحيهم^(٦) ». وكان زعيمهم بقراط بن
أشوط « وكان يقال له بطريق البطارقة » يريد الامارة والانفصال ،
فأرسل المتوكل اليها يوسف بن محمد^(٧) . فكاتب البطارقة فاجابه بعضهم
وخرج بقراط اليه على الأمان فحمله يوسف مع ابنه نعمة الى المتوكل^(٨).

(١) اليعقوبي ٣ : ٢١٥ . (٢) الطبري ١١ : ٦٠ . (٣) انظر اليعقوبي
٣ : ٢٠٩ . الطبري ١١ : ٣٥ . ٤٥ - ٤٦ . ٣٠ - ٣١ ابن الاثير
٧ : ٢٦ - ٧ اليعقوبي ٣ : ٢١٦ . (٤) اليعقوبي ٣ : ٢١٠ - ٢١١ .
(٥) ميور ٥٢٦ . ابن الاثير ٧ : ٢٧ . (٦) اليعقوبي ٣ : ٢٢٣ (٧) الطبري
١١ : ٤٥ . (٨) ابن الاثير ٧ : ٢٨ .

فاجتمع البطارقة مع ابن اخي بقراط ضد الوالي وهاجموه وقتلوه ومن
معه في الشتاء . فأرسل المتوكل اليهم بغا الشرايبي (الصغير) فسار الى
معقلهم الرئيسي فحاربهم وقتل منهم زهاء ٣٠ الف وسبي منهم خلقاً
كثيراً ، ثم فتح ديبيل وحاصر تفليس وكان فيها اسحق بن اسماعيل
الأموي مستقلاً فضر بها بالمنجنيق ومات في الحريق حوالي ٥٠ الف (١)
« وهرب منهم جماعة وكانوا الروم وصاحب الخزر وصاحب الصقالية
واجتمعوا في خلق عظيم » فكتب بغا الى المتوكل فأرسل له نجدة بقيادة
محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، فسكن المتحركون واومنوا (٢) .
ونكت البجة وهم « جنس من اجناس الحبش » العهد الذي لهم
مع المسلمين وكانوا يؤدون بموجبه « اربعمائة مثقال تبر قبل ان يطبخ
ويصفى » الى عامل مصر . وامتنعوا سنة ٢٣٧ هـ عن اداء الخراج ، فكتب
عاهل البريد يخبر الخليفة بذلك وبان البجة خرجت « من بلادها الى
معادن الذهب والجوهر وهي على التخوم فيما بين أرض مصر وبلاد البجة
فقتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب
والجوهر وسبوا عدة من ذراريتهم ونسائهم ، وذكروا ان المعادن كانت
لهم وانهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها وان ذلك اوحش جميع من
كان يعمل في المعادن من المسلمين ، فانصرفوا عنها خوفاً على انفسهم

(١) الطبري ١١: ٤٥ - ٤٨ ابن العبري ٢٤٧ . (٢) اليعقوبي ٣: ٢١٤

ميور ٥٢ . ابن العبري ٢٤٧ . الطبري ١١ : ٤٥ - ٤٨ .

وذراريهم . فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر . فاضطرب المتوكل لبعده المسافة ووعورة الأرض . ولما زادت تعدياتهم وجه حملة وطلب من عامل مصر امدادها ، وحملت اليها المؤن من البحر فهزم البجة واجاب رئيسهم (علي بابا) الى الشروط السابقة ودفع خراج الأربع سنوات الذي لم يدفع وحمل الى سامراء حيث استقبل بحفاوة . ويروي انه كان يحمل صنما معه يعبده فاستنكر أهل سامراء ذلك^(١) .

وحدثت ثورة في حمص سنة ٢٤٠ — ٢٤١ هـ وطردها العامل . فأمره المتوكل بمحاربتهم وأمهه بجند من دمشق والرملة فاضع الثورة^(٢) .

— ٦ —

تقتصر العلاقات مع البيزنطيين على غزوات صغيرة من الجانبين وتبادل الاسرى بين حين وآخر . وقد كان البيزنطيون اكثر فعالية من المسلمين في هذه الفترة . ففي سنة ٢٣٨ هـ هجم اسطول بيزنطي من ثلثمائة مركب على مصر فرسي مائة منها في دمياط وكانت خالية من الجند آنئذ لأن أمير مصر دعاهم الى الفسطاط لحفل خاص «فهبوا واحرقوا وسبوا واحرقوا جامعتها وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع... وسبوا ما بها من النساء المسلمات والذميات نحو ٦٠٠ امرأة^(٣) . فساروا

(١) الطبري ١١ : ٥٢ — ٥٤ ابن الاثير ٧ : ٥٠ — ٥٢ (٢) ابن الاثير

٧ : ٤٩ — ٥٠ (٣) ابن الاثير ٧ : ٤٥ . ابن العبري ٢٤٨

الى اشنوم (قلعة) تنيس وعلميه بابان من حديد من عمل المتوكل فنهبوا
ما فيه من سلاح واخذوا البابين وهربوا .

وفي سنة ٢٤١ هـ اغار الروم على عين زربة فاخذوا من بها الزط مع
نسائهم وذرارهم ودوابهم^(١) وفي تلك السنة حصل الفداء على نهر اللامس
(١٢ شوال) وكان ذلك بعد ان قتلت (تدوره) من اسرى المسلمين
١٢٠٠٠ لرفضهم التنصر . وكان عدد اسرى المسلمين ٧٨٥ رجلا
و ١٢٥ امرأة .

وفي سنة ٢٤٢ هـ غزا الروم الثغور الجزرية من جهة شمشاط
حتى قاربوا آمد وانتهبوا عدة قرى واسروا نحواً من ١٠ آلاف انسان .
وفي سنة ٢٤٤ هـ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم في ربيع
الآخر فغزا الصائفة وافتتح صممه^(٢) .

وفي سنة ٢٤٥ هـ اغار الروم على سميساط فقتلوا واسروا وسبوا
خلفاً كثيراً^(٣) . وفي سنة ٢٤٦ هـ غزا عمرو بن عبد الله الاقطع
الصائفة فأخرج ١٧ ألف رأس ، وغزا قريباس وأخرج ٥ آلاف رأس
وغزا الفضل بن قارن في عشرين مركباً فافتتح انطاكية وغزا علي بن يحيى
الارمني فأخرج ٥ آلاف رأس ومن الدواب والحمير نحواً من ١٠ آلاف
رأس وكان الفداء على يد علي بن يحيى الارمني ففودي بـ ٢٣٦٧^(٤) .

(١) ابن الاثير ٧ : ٥٢ (٢) الطبري ١١ ، ٥٥٥ (٣) ابن الاثير

٧ : ٥٧ (٤) ابن الاثير ٧ : ٥٩

وفي ليلة الاربعاء (يوم الثلاثاء ٤ شوال ٢٤٧ هـ) قتل المتوكل في مدينة الجعفرية قتله جماعة من الاتراك على رأسهم وصيف وبغا المعروف بالشرابي بعد ان انفض مجلس شراب الخليفة وبقى وحده في حالة سكر عميق ومعه الفتاح بن خاقان الذي قتل وهو يدافع عن سيده . وكان ذلك كما يظهر باتفاق بين الترك والمنتصر (١) .

ولا شك ان قتله هذا كان فاتحة بلاء على الخلافة واعلاناً لزوال حرمتها . فهي اول مرة بجرأ فيها الجند البرابرة على سفك دم الخلفاء والتعدي عليهم وشجعتهم على اقتراح انواع الجرائم ضدهم . وقد اجتمعت ظروف متعددة أدت اليها . ودراسة أسبابها تلقي ضوءاً على السياسة العامة وعلى دسائس البلاط .

ولعل العقدة الاولى ناتجة عن انحراف المتوكل عن المنتصر . واني لأرى سبباً هاماً في ذلك وهو اختلاف ميول المنتصر عن مبول أبيه المتوكل . فقد كان الاول يميل الى الشيعة وآل علي بينما كان المتوكل يكره العلويين أشد انكره .

ويذكر ابن الاثير غضب المنتصر لان والده كان يسخر في مجلس طربه من الامام ! ويعلق على ذلك قائلاً « فكان هذا من الاسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل (٢) » ويذكر الاربلي ان

(١) الطبري : ١١ ، ٦٤ — ٦٦ نجد فيها تفاصيل الحادثة . (٢)

ابن الاثير ٣٦ ، ٧ .

المنتصر أخذته الغيرة لسب والده للعلويين « وانه قتله على سبيل
المذهب (١) .

وصار المنتصر يشترك في دسائس البلاط ، فزاد ذلك في اضرار النار
واثارة سخط المتوكل وشكوكه ، وأخذ يهين ابنه المنتصر ويحتقره (٢) . ومما
وسع في ثغرة الخلاف بين المتوكل والمنتصر وزيره عبيد الله بن يحيى ونديمه
الفتح بن خاقان اللذان شجعا المتوكل على تقريب المعتز وابعاد المنتصر (٣) .
حتى انها اشارا عليه في آخر جمعة من رمضان سنة ٢٤٨ هـ ان يفوض
أمامه الصلاة للمعتز فاغتاز المنتصر « مما زاد في اغرائه (٤) » . وبلغ من
كره المتوكل لابنه ومن خوفه من دسائسه انه فكر بالفتك به وزاد في
شتمه واهانتته ثم أعلن خلعه في مجلس شربه في اواخر ايام حياته (٥) .
وقد انجرف المنتصر في دسائس الترك . فقد رأوا في سياسة المتوكل
حتفهم قفر روا التخلص منه فوجدوا في ولي العهد خير حليف لهم . فقد ارتاع
رصيف عندما ما علم بان المتوكل أمر بانشاء الكتب لقبض ضياعه
واقطاعها للفتح بن خاقان (٦) . ويروي الطبري عن بعض المعاصر بن
« وذكر بعضهم ان المتوكل عزم ... على ان ... يقتل وصيفا وبغا وغيرهما
من قواد الاتراك ووجوههم فكثير عيشه بهم » وحدد المتوكل لذلك يوم

(١) الاربلي ١٦٥ . (٢) Z. M. D. G P . 90 . (٣) المسعودي

٣ : ٦٩ . (٤) الطبري ١١ : ٦٢ . (٥) الطبري ١١ : ٦٤ . (٦) انطربى

. ٦٠ : ١١

الخميس ٥ شوال (بعد مقتله بيومين)^(١) . ويذكر المسعودي ان بغا الضغير « كان توحش من المتوكل ... وكان (اوتامش) غلام الوراق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك »^(٢) .

وأخذ الاتراك يتكفلون ويداولون الرأي بينهم في الخلاص من المتوكل^(٣) . وأخذ المنتصر يقوي مركزه بينهم « فكان يجتذب قلوب الاتراك ... وكان اوتامش يجتذب قلوب الاتراك الى المنتصر ... فكان المنتصر لا يبعد أحد من الاتراك الا اجتذبه فاستمال قلوب الاتراك من الفراغنة والاشروسنه »^(٤) .

ويظهر ان تصرف المتوكل يوم الثلاثاء وضع آخر حجر في القضية . وانتهى بقتله مساء ذلك اليوم . وبقته فتح باب الفوضى للدولة العباسية .

(١) الطبري ١١ : ٦٤ . (٢) المسعودي ٤ : ٦٩ . (٣) القرمانلي ١٦٦ .

(٤) المسعودي ٤ : ٧٠ .

فوضى الاتراك

او

فترة التسع سنوات

المنتصر : ٨٦١ - ٨٦٢ م المعتز : ٨٦٦ - ٨٩٩ م

المستعين : ٨٦٢ - ٨٦٦ م المهدي : ٨٦٩ - ٨٧٠ م

هياً مقتل المتوكل جحماً من الفوضى والاضطراب الشديد للخلافة ،
اقترب الترك فيه انواع الفظائع وانحطت هيبة الخلافة الى الحضيض ،
وتشجع امراء الاطراف على الانفصال ولاسيما في ايران و مصر . واتضاءت
اهمية الوزارة ، واختلت الادارة ، وانفسح المجال للتيارات الثورية
الاجتماعية المكبوتة ان تظهر بشكل عنيف ، كما حصل في حركة الزنج
والقرامطة التي زعزعت اركان الدولة وكادت تقضي عليها .

ولكن رسوخ قدم العباسيين ونفوذهم الديني على الجماهير وانقسام
الترك على انفسهم وظهور بعض الخلفاء القديرين في آخر هذه الفترة
انقذ الخلافة العباسية مؤقتاً واعاد لها بعض سلطانها .

تتميز هذه الفترة باستبداد الترك ، حتى اصبح الخلفاء العويبة
بأيديهم يولونهم ويعزلونهم حسب اهوائهم و رغائبهم . وقد وصف الفخري
هذا الوضع فقال : « ان الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على

المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في ايديهم كالأسير ، إن
شاؤا أبقوه وإن شاؤا خلعوه وإن شاؤا قتلوه^(١) .

فالمنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ / ٨٦١ — ٨٦٢ م) بايعه قتلة ابيه من
الأتراك ، وفي اليوم التالي بايعه الناس^(٢) . ثم ألح عليه وصيف وبعث
بخلع أخويه المعتز والمؤيد وتولية ابنه عبد الوهاب خوفا على انفسهما من
ولي العهد . فأجبر المنتصر أخويه على التنازل ، بحجة صغرهما يوم التولية
فتزلا عند امره . وقد ورد في كتاب التنازل : « ان امير المؤمنين
المتوكل على الله قلدي هذا الامر وانا صغير من غير ارادتي ومحبتي ، فلما
فهنت أمري ، علمت أني لا أقوم بما قلدي ، ولا اصلح لخلافة المسلمين
فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حل وقد حلتكم منها وابرأتكم
من ايمانكم^(٣) ... » وبعد حكم قصير دام ستة اشهر لاقى حتفه ، كنتيجة
لمرض ضميره او بالسم^(٤) .

ثم رشح زعماء الأتراك (بغا الكبير وبعثا الصغير والتامش)
واحمد بن الخصيب احمد بن محمد بن المعتصم ابن اخي المتوكل
للخلافة لخوفهم من اولاد المتوكل ، ولقبوه بالمستعين (٢٤٨ — ٢٥١ هـ) .
ويبين الطبري كيفية البيعة قال : « اجتمع الموالي . . . وفيهم بغا الصغير
وبغا الكبير واوتامش (التامش) ومن معهم فاستحللوا قواد الأتراك

(١) الفخري : ٢٢٠ . (٢) الطبري ١١ : ٦٩ - ٧١ . (٣) الطبري

١١ : ٧٧ . (٤) Z. M. D. C. P. ١

والمغاربة والاشروسنة ، على ان يرضوا بمن رضى به بغا الكبير وبنغا الصغير واوتامش وذلك بتدبير احمد بن الخصيب فحلف القوم ^(١) . « ولم يكن اختيار المستعين مرضياً للجميع فقد » انكر بعض القواد البيعة « ووقع نزاع بين الاتراك وبين الابناء لمدة ثلاثة ايام تغلب في آخرها الاتراك ^(٢) .

لم يتمتع المستعين بالحكم طويلاً ، لانقسام الاتراك على انفسهم وتنافسهم على السلطة . فقد اطلق المستعين يد اوتامش وشاهك الخادم في بيوت الاموال ، وشاركهم في السلطة ام المستعين القوية ، فكانت معظم الاموال تنقل الى هؤلاء الثلاثة . ولكن السلطة الخليفة آلت الى اوتامش . فأخذ وصيف وبنغا يتآمران مع الجند ضده ^(٣) . ونجحت دسائسهما ، فنار الاتراك والفراغنة ضد اوتامش بحجة استئثاره بارزاقهم ^(٤) وقتلوه في ربيع الآخر سنة ٢٤٩ هـ

الا ان قتل اوتامش لم يحل المشكلة ، اذ تنفذ (باغر) دون وصيف وبنغا ، واخذ هذان يدبران المكائد ضده للتخلص منه . وكان باغر قويا يخشى بأسه ويخاف شره ^(٥) . فلما ادرك ما يراد به وشعر بان الخليفة في جانب اعدائه « جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل او بعضها مع غيرهم » . وبعد ان تأكد من ولائهم له قال لهم « الزموا

(١) الطبري ١١ : ٨٢ • (٢) اليعقوبي ٣ : ٢١٨ • (٣) الطبري

١١ : ٨٦ • (٤) اليعقوبي ٣ : ٢١٩ • (٥) الطبري ١١ : ٩٢ •

الدار حتى تقتل المستعين وبغا ووصيفا ونجيب بن بعلي بن المعتصم او بان
الواثق فنعه خليفه حتى يكون الامر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا
على امر الدنيا وبقينا نحن في غير شي . فأجابوه الى ذلك ^(١) . «
وهكذا تجاهلوا كل اعتبار ونظروا الى مصلحتهم قبل كل شيء . واصبح
المستعين في حالة يرثى لها وسط هذه الدسائس . فبعث الى وصيف وبغا
وقال لهما « ما طلبت اليكما ان تجعلاني خليفة وانما جعلتاني واصحابكما
ثم تريدان ان تقتلاني ! » وأخيراً نجح حزب وصيف وبغا في قتل باقر
فتار اصحابه وتأزم الوضع فاضطر الخليفة وسيداه (وصيف وبغا) ان
ينحدروا الى بغداد ^(٢) ، يصحبهم « جلة العمال والكتاب وبنو هاشم
وكذلك ... الاتراك الذين في جانب وصيف وبغا ^(٣) . ولا شك ان
هذه التدابير كانت لصالح وصيف وبغا فقط . اذ بقي « المستعين لا امر له
والامر لبغا ووصيف ^(٤) . »

اضطرب الاتراك والفراغنة وغيرهم من الموالي بسامراء لانتقال
الخليفة ، فقرر وا ارسال وفد يسترضيه ، فاسلوا « اليه عدة من وجوه
الموالي ومعهم البرد والقضيب وبعض الخزائن ومائتا الف دينار » وسألوه
الرجوع « واعترفوا بذنوبهم واقروا بخطئهم وضمنوا له ان لا يعودوا
ولاغيرهم من نظرائهم الى شيء من ذلك مما انكره عليهم ^(٥) » ولكنه

(١) الطبري ١١ : ٩٢ . (٢) الطبري ١١ : ٩٤ - ٩٥ (٣) الطبري

١١ : ٩٧ . (٤) المسعودي ٤ : ٩٠ (٥) المسعودي ٤ : ١٦ .

أبي ان يرجع ، ووعدهم بارسال ارزاقهم بانتظام من مقره الجديد ^(١) .
وكان معنى ذلك فقدان سامراء واتراكها الدور الرئيسي في الحكم واستناد
الخلافة الى اهالي بغداد . اذا فلا غرابة ان تجد الاتراك في سامراء
يقررون خلع المستعين ، واخراج المعتز والمؤيد من السجن ، ومبايعة
الاول بالخلافة . وهكذا أدى تنازع الاتراك على السلطة الى وقوع
الحرب الأهلية الثانية ، والى حصار بغداد للمرة الثانية ^(٢) . وأوكل
المستعين أمر الدفاع عن بغداد الى محمد بن عبدالله بن ظاهر ، بينما اعطى
المعتز قيادة قواته الى اخيه ابي أحمد بن المتوكل . وحصنت بغداد بتقوية
سوريتها وأمام ستمدارتها ، وبجفر خنادق حولها ، وضعت حاميات
على الابواب ، وجهزت بالمجانيق الضخمة ، وبتقمت المياه بطسوج الانبار
وطسوج بادوريا لقطع طريق الاتراك . وأمر المستعين بقطع الميرة عن
أهل سامراء من جهةي الموصل وبغداد ، وجند ابن طاهر قسماً من أهالي
بغداد واستعان ببعض الخراسانيين الذين قدموا للحج وفرض فروضا
ببغداد ^(٣) . كما استعين بقسم من العيارين برأسة عرفائهم ، وعملت لهم
تراس من البواري المقيرة ومخال تملأ بالحجارة .

وكتب المستعين الى ولاية الخراج في كل بلدة وموضع قبل بدء
القتال ان يرسلوا الوارد في بغداد لا الى سامراء ، كما حاول كل من

(١) الطبري ١١ : ٩٧ - ٩٨ . (٢) N. Abbot P. 92

(٣) الطبري ١١ : ٩٧ .

الخليفين استمالة اتباع صاحبه والاستعانة بالفرق الموجودة في الخارج .
وهرب جماعة من اهل القرى المحيطة ببغداد خوفاً من الترك الى بغداد
نفسها تاركين امتعتهم ومزارعهم ، و بذلك زادوا في صعوبة التموين .

وتوالت فرق المعتز (بين صفر و ربيع الاول سنة ٢٥١ هـ)
واحاطت ببغداد من الجانبين (يقدر بعضهم عددها بـ ١٢ر٠٠٠ جندي
في الجانب الغربي و ٧ر٠٠٠ جندي في الجانب الشرقي ^(١) .

ومما تجدر ملاحظته ان المغاربة والأتراك كانوا في جانب المعتز
غالباً او مستعدين للانضمام اليه ، وهذا خير دليل على شعورهم بان سيادتهم
متعلقة بنتيجة تلك الحرب . وقد أبدى المدافعون شجاعة ومقدرة
عظيمتين ، وكتب النصر لهم اول الامر . ولكن طيلة القتال والحصار
الاقتصادي على بغداد ادّى الى ضعف معنويات البغداديين حتى الحوا
على ابن طاهر في طلب الاكل ورفع الحصار .

تقدم ابن طاهر للمفاوضة في شروط الصلح ، ويظهر ان الانقسام
قد دب في صفوف حاشية المستعين قبل ذلك ، وفكروا بمصالحهم لما رأوا
عبث المقاومة ^(٤) . وكان من شروط الصلح إخلع المستعين والاعتراف
بالمعتز خليفة للمسلمين . ويزل ابن طاهر جهده لاقتناع المستعين (١٦ ذي
الحجة) بذلك فابى . فقال له : « لا بد لك من خلعها طائِعاً او مكرهاً »

(١) الطبري ١١ : ١١٧ (٢) الطبري ١١ : ١٣٣ - ١٣٤ .

واجاب اخيراً . وقد يشم المرء رائحة تنبيء بمحصول علاقة سرية بين ابن طاهر
وجماعة المعتز . فعندما ذكر ابن طاهر تأكيد كتاب الشرط ، قال له
الخليفة : « لا عليك لا عليك ، الا تركتها يا ابا العباس فما لقوم باعلم
بالله منك ، وقد اكدت على نفسك قبيلهم ، فكان ما قد علمت ^(١) » .

والمسعودي يصرح بهذا إذ يقول : « لما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر
ضعف أمر المستعين وقوة المعتز كاتب المعتز وجنح اليه ومال الى الصلح على
خلع المستعين وكان من شروط الصلح الأمان للمستعين ولاهله وولده
وما حوته ايديهم من املاكهم وعلى ان ينزل مكة هو ومن شاء من اهله وان
يقيم بواسط الى وقت مسيره الى مكة ^(٢) » : « وان يدفع اليه مال معلوم
وضياع تقيمه ^(٣) » .

وأخبر بن طاهر الناس في أول الأمر ببقاء الخليفة في منصبه ، على
أن يكون المعتز ولي عهده . فلما اكتشفوا الحقيقة ، هجموا على دور
الأمير واحاطوا به وهددوه . ولم يهدئهم إلا توسط المستعين ^(٤) .
انتصر المعتز ، ولكنه اختلف مع الاتراك بعد مدة قصيرة ،
لأنهم كرهوا ميله للمغاربة والفرغانيين (الذين كانوا يكرهون الاتراك
لاستئثارهم بالسلطة) . ومما زاد الأمر تعقيداً ، خلوا الخزينة من المال ،
وعدم تمكنه من دفع الرواتب بصورة منتظمة . على ان بعض القادة

(١) الطبري ١١ : ١٣٧ . (٢) المسعودي ١٠٧ ، ٤ . (٣) اليعقوبي

٢٢٢ ، ٣ (٤) Levy P. 107 - 114 الطبري ١١ ، ١٣٧ .

وبعض أعضاء العائلة المالكة (ولاسيما ام المعتز) جمعوا اموالا طائلة .
وأدت هذه المشكلة (الرواتب) الى اجتماع كلمة الترك والفرغانيين
والمغاربة ، يطالبون الخليفة برواتبهم . فاستعان بامه ، إلا انها انكرت
وجود الأموال عندها . ولما عجز عن تلبية طلبهم ، قرروا خلعهم ^(١) .
فاضطر الى التنازل بعد ان أمنوه على نفسه وماله وولده ، ولكنهم سجنوه
وعذبوه الى ان مات ^(٢) .

ثم أسرع الاتراك بارجاع محمد بن الواثق من بغداد (وكان المعتز
قد نفاه اليها ^(٣)) ولكن موسى بن بغا الذي كان في خراسان لمحاربة
مساور الشاري ، لم يعترف بالخليفة الجديد ^(٤) . ولما لاحظ الاتراك عزم
الخليفة على تشذيب نفوذهم اصطدموا معه وانزلوه عن عرشه ثم قتلوه .
وكان خلعهم في ١٤ رجب بينما وفاته كانت في ١٨ منه بعد رفضه ^(٥) خلع
نفسه (اليعقوبي يجعل الوفاة في ١٦ رجب ^(٦)) . ثم اجتمعت الآراء على
مبايعة أحمد بن المتوكل على الله (المعتمد) .

بهذه الأساليب الوحشية كان الحزب التركي يعملي رغباته حتى جعل
من الخلافة مهزلة عامة . وكانت المصالح المادية هي المرشد لهم في تعيين
الخلفاء . فعندبيعة المنتصر « قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبغا ،

(١) Abbot : 93 . (٢) المسعودي ٣ : ١٢٠ . الطبري ١١

١٦٠ - ١٦٢ . يعقوبي ٣ : ٢٦٦ . (٣) المسعودي ٤ : ١٢٤ .

(٤) المسعودي ٤ : ١٢٥ . (٥) الطبري ١١ : ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٦) يعقوبي ٣ : ٢٥٦ .

أنا لا نأمن من الحدثان ، وان يموت أمير المؤمنين (المنتصر) فيلي الأمر
المعتز فلا يبقى لنا باقية ويبيد خضراءنا ، والرأى ان تعمل في خلع هذين
الغلايين قبل ان يظفرا بنا ، فحمد الاتراك ذلك وألحوا على المنتصر ... فلم
يزالوا به حتى فعل^(١) « ثم مالوا لأحمد بن المعتصم ، ولكن أحد الحاضرين
ذكرهم بانه يعتقد انه أحق بالخلافة من المتوكل والمنتصر وانه اخر عنها ،
وأضاف « فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ، ولكن اطيعوا
انساناً يعرف كل ذلك » فقبلوا رأيه الا بغا الكبير فانه قال: « نجى بهن
نهاية ونفرقه فتبقى معه ، وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا فقتلنا انفسنا »
ولكنهم اخيراً نجحوا في اقناع بغا وتولية احمد بن محمد بن المعتصم^(٢) .
وفعلا صدقت الايام نبوة بغا الكبير .

وكما اتصفت هذه الفترة باستبداد الترك وتلاعيبهم في امور الدولة ،
كذلك كانت فترة نضال بينهم وبين الخلفاء ، حاول فيها الخلفاء مقاومة
الترك بل اضعافهم وكسر شوكتهم . فالسعودي يرى ان المنتصر « عزم
على تفريق جميع الاتراك » وانه خاف ان يجرئهم مقتل والده على
الخلفاء ، فقال يوماً وقد رأى بغا الصغير مقبلاً وحوله جماعة من الاتراك
« قتاني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله » . وكانت أول
خطوة خطاها لتفريقهم كانت بارسال وصيف في جمع كثير من الاتراك
الى غزاة الصائفة بطرسوس ، ولكن المنية عاجلته ولعل الاتراك سمعوا لما
لما لاحظوا « ما يفعل بهم وما قد عزم عليه^(٣) » .

(١) الطبري ١٢: ٧٥ — ٧٦ (٢) الطبري ١١: ٨٢ — ٨٣ . حاشية (٣) المسعودي

ثم جاءت خلافة المعتز والمهتدي فكانت فترة نزاع علني بين الخليفة والحرس التركي . فقد لاحظ المعتز منذ أول خلافته ان دسائس الاتراك تحيط به من كل مكان ، ونعى اليه ان اخاه المؤيد تحالف مع جماعة من المولي على خلعه ، فسجنه واضطره الى خلع نفسه . واتصل بالخليفة ان جماعة من الاتراك ، كانت تحاول اخراج المؤيد من السجن وتوليته الخلافة . فأمر بقتله (٢٢ رجب سنة ٢٥٢ هـ / ٨ آب ٨٦٨ م ^(١)) . كما حاول وضع حد لطغيان الاتراك ، فكاتب (كما يقال) طاهر بن محمد بن عبدالله بن طاهر صاحب خراسان ان يساعده ، فأرسل اليه عمه سليمان ابن عبدالله « في خلق كثير من جند خراسان » ودخل سامراء فخلع عليه الخليفة ، ولكن وصيفا وبغا اضطرا الخليفة ان ينحيه ويرسله الى بغداد (فجاءها في ١٦ ربيع الآخر سنة ٢٥٤ هـ ^(٢)) . وسمى لضرب الحرس بعضهم ببعض ، فاضطنع المغاربة والفراغنة وقربهم على حساب الترك ، واعمل الحيلة للتخاص من رؤساء الاتراك مستغلا التنافس بينهم . ونجح فعلا في قتل بغا ^(٣) . ولكن الاتراك انتبهوا الى ذلك ، فاجتمعوا بزعامة صالح بن وصيف . واتخذوا الارزاق ذريعة للفتك به ونجحوا في القضاء عليه ^(٤) .

جاء المهتدي وكان حازماً كما يظهر ، ولعل الاتراك اختاروه لورعه

(١) N . Abbot . 93 المسعودي ٤ : ١١٨ — ١١٩ (٢) ايعقوبي

٣ : ٢٢٣ (٣) انظر التفاصيل في العقوبي ٣ : ٢٢٦ . والطبري ١١ : ١٥٦ —

١٥٧ (٤) المسعودي ٤ : ١٢٠ .

وتقواه ، واضعفه الظاهر . فظاهر المهتدى براعة ودهاء في محاربة نفوذ
الأتراك ، واتبع في ذلك طريقتين : التقرب من العامة ورجال الدين
وجمعهم حوله ، وتقسيم صفوف الجيش وضربهم بعضهم ببعض . فبنى قبة
للعظام لها أربعة ابواب وجلس فيها للعام والخاص « وأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، وحرم الشراب ، وأخرج القيان والمغنين من سامراء ونفاهم
الى بغداد ، وابطل الملاهي ، وقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء ^(١) »
وصرح للناس انه يريد ان يقتدي بسيرة عمر الثاني ، وعمد الى الصور
التي كانت في المجالس فحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بن
يدي الخلفاء ، والديوك وقتل السباع المحبوسة . ولاشك ان ذلك أرضى
العوام وزاد في حماسهم لهم ^(٢) . وكان المهتدى صالحاً ديناً ولكنه كان
يفكر بقوة مركزه ، حتى نجده في المعارك الاخيرة بينه وبين الأتراك
يعلق المصحف في عنقه ويستنفر العامة ويبيحهم دماء الأتراك واموالهم ^(٣)
وينادي فيهم في الساعة الحرجة ، « انا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن
خليفتكم ^(٤) » . و« يا معشر الناس انصروا خليفتكم ^(٥) » . ولكن
العوام قوة غير منظمة فلم تنفعه كثيراً .

كما انه في نفس الوقت حاول الاقصاد في النفقة مدفوعاً بافلاس
الخزينة فقلل مثلاً نفقات مائدته من ١٠٠٠٠٠ درهم الى ١٠٠

(١) السعدي ٤ : ٩٢ (٢) الطبري ١٩ : ١٧١ . السعدي ٤ : ١٢٤

١٣٠ — ١٣١ . (٣) اليعقوبي ٣ : ٢٢٨ . (٤) الطبري ١١ : ٢٠٦ اليعقوبي

٣ : ٢٢٨ . (٥) الطبري ١١ : ٢٠٤ .

درهم . وقليل من اللباس والفراش و « أمر باخراج آنية الذهب والفضة
من الخرائن فكسرت وضربت دنانير ودرهم (١) » .

وحاول المهدي تقسيم صفوف الجيش وضرب زعمائه الاقوياء (٢) .
فحاول استغلال المنافسة بين الاتراك وبين الفراغنة والمغاربة ، وقدم
الصنفين الأخيرين ، وسعى من وراء ذلك لضرب الترك (٣) . كما انه
سعى لتفريق الاتراك انفسهم . وقد نجح في أول الأمر وأيده قسم من
الاتراك الصغار (اللاحقين من أولاد الاتراك) ولكنهم رجعوا وانضوا
لاخوانهم . وأراد استئصال شأفة الزعماء الترك مستغلا منافستهم على
الرياسة ، فكتب الى (بايكباك) وكان مع موسى بن بغا ومفلح في طريق
خراسان ، يغريه سرا بالقيادة العامة للجيش ويأمره بقتل موسى بن بغا
ومفلح ولكن (بايكباك) انتبه الى الخطر وأطلع صاحبيه على الرسالة .
فاغظها الأمر ويظهر انهم اتفقوا على ان يظهر بايكباك الولاء للمهدي ثم
يقتله . فرجع بايكباك وموسى ودخل بايكباك سامراء فشعر المهدي
بخطر تأمرهما فجمع حوله الموالي فكان عددهم من المغاربة والاتراك حوالي
١٥٠٠٠ ، ثم قبض على بايكباك وعندما شاغب أصحابه أمر بقتله فقتل .
فكان ذلك اعلانا للحرب بين الخليفة والاتراك انتهت بخلع الخليفة
وأودت بحياته . وبايع موسى والاتراك لأحمد بن المتوكل ولقبوه

(١) الم-مودي ٤ : ١٣٠-١٣١ . (٢) اليعقوبي ٣ : ٢٢٨ ، الطبري

١١ : ٢٠٩ . (٣) الطبري ١١ : ٢٩٠ .

بالمعتمد على الله في ١٣ رجب (١) .

وقد كان مقتل بايكباك حجة مباشرة للهباج ، وليكنه لم يكن
السبب الحقيقي بل السبب الحقيقي هو « مساواة (الخليفة) الفراغنة لهم
(الاتراك) في الدار ودخولهم معهم ، ووضح عندهم ان التدبير إنما جرى
في قتل رؤسائهم حتى يقدم عليهم الفراغنة والمغاربة (٢) .

وهكذا انتهت هذه الفترة القصيرة بانتصار الترك ، وكادت سلطة
الخلفاء ان تنهار نهائياً وسط خصومات الجيش وفوضاه . ولكن القواد
الاتراك توقفوا عن اثار الاضطراب بعد مجيء المعتمد . وربما كان ذلك
عائداً الى تضعف صفوفهم وانهاكهم في هذه الفترة . كما ان موسى بن بغا
لم يكن له مساو بينهم ، ولما كان الخليفة صنيعته لم يبق مجال للنزاع في
البلاط . ولا تنس انه شغل الجند باخماد الثورات في جهات متعددة (٣) .

وأدى شلل الحكومة المركزية اثناء الفوضى الى تقوية الميول
الانفصالية عند بعض الامراء ، والى قيام الثورات في جهات متعددة .
وكان كثير من تلك الثورات شيعية قام بها الزيدية . ففي سنة ٢٤٩ هـ
تاريخي يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي في الكوفة
« واجتمعت اليه الزيدية ودعا الى الرضا من آل محمد » . ومن الغريب ان
« تولاه العامة من اهل بغداد (٤) » . إلا ان الحركة اقتصرت عملياً على

(١) الطبري ١١ : ٢٠٣ - ٢٠٥ . (٢) الطبري ١١ : ٢٠٩ .

(٣) Eowen P. 5 . (٤) الطبري ١١ : ٨٨ .

الكوفة وفشلت (١).

وفي السنة التالية قاد الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي الثورة بطبرستان وكان عمال سليمان بن عيد الله (عم محمد بن طاهر امير خراسان) والي طبرستان قد أساءوا السيرة فيها. ومما زاد الوضع سوءاً ان الخليفة اقطع محمد بن عبد الله (حاكم بغداد ٨٥١-٨٦٧) من صوافي السلطان قطائع في طبرستان على حدود الديلم « وكان بجذائها ارض لاهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتط بهم ومراعي مواشيتهم ومسرح سارحتهم (٢). » فجاء ممثل محمد بن عبد الله لادارة القطائع ، فضم الارض المشاعة اليها وأدى ذلك الى ثورة عامة قادها الحسن بن زيد واستطاع ان يخضع طبرستان وجرجان ، وان يجمع كلمة سكانها (٢٥٠-٢٧٠ / ٨٦٤-٨٨٤) (٣). ويعلق (بارتولد) على هذه الحركة ، قائلاً : « وفي هذه الحالة كانت الحركة الشيعية نتيجة للتجاوز على مصالح الفلاحين (٤). » ثم خلفه اخوه محمد بن زيد الذي ضم اليه الديلم سنة ٢٧٧ هـ وبقي يحكم حتى فتح السامانيون المنطقة سنة ٢٨٢ هـ / ٩٠٠ م (٥).

ولنستطرد قليلاً فنقول ان ثورة اخرى قامت في طبرستان سنة ٩١٣-٩١٤ م برئاسة حسن بن علي الاطروش العلوي ناصر

(١) الطبري ١١ : ٨٧-٧٩ ، اليعقوبي ٣ : ١٢١ . (٢) الطبري ١١ ، ٩٠.

(٣) الطبري ١١ ، ٩٠-٩٣ (٤) Barthold T. : P. 221 .

(٥) انظر Erowne vol. I. P. 348 المسعودي ٣ : ٩٨٤

الحق الذي نشر الاسلام بصورة ناجحة بين أهالي الديلم وطبرستان
(وكانوا وثنيين ومجوس ^(١)) وجذبهم الى جانبه وبقوا يخلصون له الى
آخر حياته . ويشي المؤرخون على عدالته . ويظهر انه كان لحركته صبغة
شعبية كحركة الحسن بن زيد . كما انه قضى على التنظيم الاقطاعي بين
الديلمة وتقسيمهم الى عوائل منفصلة باراضيها بحكم كلامها (كتحدا)
أو رئيس ^(٢) . وبقيت طبرستان بيد عائلته حتى ٣١٤هـ / ٩٢٨م حين
فتح (مرداويج) المنطقة وانشأ الامارة الزيارية . ومما يذكر للعلويين
انهم اثاروا روح التوسع في الديلم وقضوا على التقسيمات الاقطاعية ففتحوا
المجال لتوسع الديلمة . وسنرجع لذلك في حينه ^(٣) .

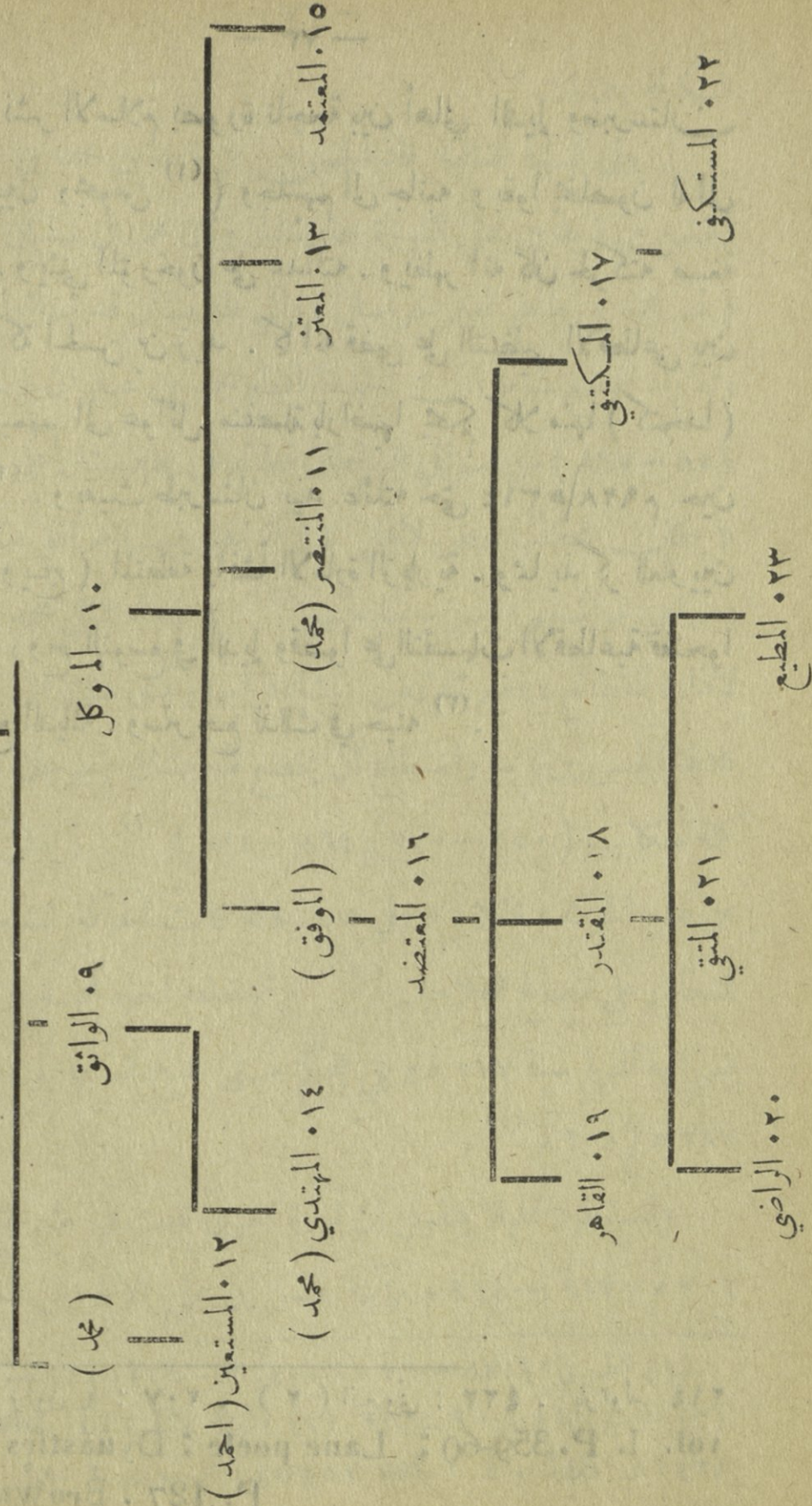
(١) براون ١ : ٢٠٧ . (٢) البيروني : ٤٢٢ . بارتولد ٢١٤

(٣) انظر Lane poe : Dynasties vol. I. P. 359-60 ;

P. 127 . Browne,

مهرول باسماء الخفاء بين ٢٢٧ هـ - ٣٣٤ هـ

٠٨ المعصم



ثورة الزنج

٢٦ رمضان ٢٥٥ - ٢ صفر ٢٧٠ هـ

٥ آب ٨٦٩ - ١١ آب ٨٨٣ م

— ١ —

كانت ثورة الزنج حركة خطيرة، هددت كيان الدولة العباسية في الصميم واشغلتها حوالي اربعة عشر عاماً . ولا يكفي لفهمها فهم طموح الرجل الذي أثارها، أو اضطراب وضع الخلافة فحسب، بل لابد من تحايل وضع من انضوى تحت لوائه، والدوافع التي دعتهم الى ذلك، حتى جعلتهم يكافحون بحماس عجيب طيلة الثورة .

وحركة الزنج — كما يدل اسمها — هي : ثورة العبيد في وجوه اسيادهم، مستهدفين من وراء ذلك رفع منزلتهم وتحسين وضعهم بعد أن نظّمهم رجل ادعى النسب العلوي وبت فيهم دعاية لم يألّفوها من قبل، ولكنها تنفق وروح العصر الذي عاشوا فيه .

لم يكن استخدام العبيد في المزارع بالأمر الجديد الذي يلفت النظر، وإنما المهم ان نلاحظ ظهور بعض الاتجاهات والأوضاع الجديدة في هذا العصر . فقد شهد القرن الثالث الهجري — نتيجة لتحول المجتمع من طور زراعي الى تجاري — نشوء طبقة من المثريين ذات

رؤوس اموال عظيمة ، تستخدم من الرقيق عدداً كبيراً . ونتيجة لذلك ظهر نوع جديد من التمر كرز في العمل ، كوجود آلاف من الرقيق يشتغلون في محل واحد . وظهرت دعاية جديدة واسعة النطاق متسترة بأسم العدالة الدينية ، ولكنها ليست في الحقيقة إلا تداً كبيراً قوياً على تحسين الوضع المالي والاجتماعي للطبقات العامة (١) .

— ٢ —

كان عامة الثوار عبيداً من زنوج الصومال وزنجبار الذين كانوا يستخدمون في سهول البصرة (فرات البصرة) في كسح السبخ لجعل الارض قابلة للزراعة وللاستفادة من الاملاح المجتمعة (٢) . وانضم اليهم جماعات من العبيد الهاربين (الآباق) من القرى والمدن المجاورة ، تخلصاً من وضعهم السيء وهرباً من الضغط الشديد الذي ينوون بثقله (٣) .

كان عددهم كبيراً . وكانوا يشتغلون عادة جماعات تتراوح بين ١٠٠٠ — ٥٠٠٠ (٤) . بل قد يكون العدد اكثر من هذا بكثير ، إذ قد بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تشتغل على نهر الدجيل خمسة عشر ألفاً (٥) . مما يدل سعة تركز العمل بين هؤلاء الزنوج .

ويمكننا ان نقول ان هؤلاء الزنوج كانوا يشتغلون بلامقابل تقريباً . فقد اقتصرت اجورهم على قوت قليل من الطحين والتمر

(١) الدوري — دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري . ٧٦ — ٧٧ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٤ . (٣) الطبري ١١ — ١٧٧ . (٤) دائرة المعارف الاسلامية ٤ : ١٢١٢ . (٥) انطبري ١١ : ١٧٧ .

والسويق^(١) ، مما جعل اي وعد لتحسين وضعهم المعاشي اغراء كبيرا لهم .

وإذا فقد كان هؤلاء الزوج يرزحون تحت اوضاع اقتصادية واجتماعية سيئة . فقد كان شغلهم شاقا ، ووضعهم المعاشي سيئاً . ثم ان الشعور بالولاء الذي يربط العبد بسيده في المجتمع الاسلامي كان معدوما عندهم . كما ساعد هذا التكتل الواسع على بعث شعور عام بينهم بالمصلحة والقيام ضد اسيادهم^(٢) .

— ٣ —

ويظهر ان زعيمهم « صاحب الزنج » ادرك هذه الحقائق ، فحاول اولا معرفة دقائق وضعهم ، فسأل « عن اخبار غلمان الشورجيين وما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر^(٣) » وشدد التأكيد في دعوته على الناحية المادية . ففي سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م خطب الزنج خطبة « ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وان الله قد استنقذهم به من ذلك ، وانه يريد ان يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم اعلى الامور^(٤) » .

من هذا يتضح لنا ان « صاحب الزنج » قصد الى ادخال بعض التعديلات على الاوضاع الاجتماعية ولكنه لم يقصد الى الغاء الرق . فقد

(١) الطبري ١١ : ١٧٦ . (٢) Noldeke. P.149-148 (٣) الطبري

١١ : ١٧٦ . (٤) الطبري ١١ : ١٧٧ .

حرر العبيد كلها سنحت له الفرصة^(١) ، ولاكنه استرق أسرى
المسلمين^(٢) . واذا فقد كانت حر كته لفائدة طبقة العبيد ليس الا . ولهذا
فلا نستغرب فشل دعوته بين أهل البصرة رغم انقسامهم الى حزبين
متناحرين^(٣) . كما ان هذا كان السبب في اغراء اهل القرى المجاورة
(بالاضافة الى سادة الزنج) القائد (رئيس) ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م بكميات
متنوعة من المال ان هو اخذ الحركة وارجع العبيد الى اسيادهم^(٤) .

فكل ما اراده « صاحب الزنج » هو تحرير العبيد وتحسين
حالتهم المادية ، ولم يكن ليجول في خلده انشاء نوع من الاشتراكية كما
اعتقد مؤلف سياسة نامه^(٥) . ولعل عدم وجود برنامج اقتصادي
اجتماعي شامل في حركة الزنج يلقي بعض الضوء على فشل محاولة حمدان
قرمط للتعاطف مع صاحب الزنج ضد العباسيين^(٦) . ومع ذلك فهناك اشارة
الى وجود « القرماطيين » مع الزنج^(٧) .

لم ينس « صاحب الزنج » ان يلبس حر كته ثوبا دينياً . ومع ان
عامه الزنج كانوا برابرة لا يفهمون العربية ، ولا يمكن ان يكون اي ثقافة^(٨) ،

(١) الطبري ١١ : ١٨٦-١٨٧ ، ٢١٣ . (٢) الطبري ١١ : ١٨٢ ،
٢٧١ ، ٢٠٣ . السيوطي ٢٤٢ . (٣) الطبري ١١ : ١٧٥ ، ١٨٤ .
(٤) الطبري ١١ : ١٧٩ ، اطروحة الدوري . (٥) سياسة نامه ٢٨٥
يقول صاحبها ان مبادئ صاحب الزنج هي مبادئ مزدك . (٦) الدوري
الطبري ١١ : ١٧٧ . (٧) الطبري ١١ : ١٧٩ . (٨) Noldeke P. 174
الطبري ١١ : ١٧٧ .

الا ان بعضهم لم يكن الى هذا الحد من الجهل بالدين واللغة كالفرازية والنوبية^(١) . وكان لابد لصاحب الزنج من ان يزودهم بحجة شرعية للقيام ضد العباسيين . فادعى ان العناية الالهية أرسلته لانفاذ العبيد المظلومين، وانها كانت ترشده وتساعده^(٢) . وأدعي العلم بالغيب^(٣) وانتحل النبوة والرسالة^(٤) . ومع انه ادعى النسب العلوي ليكتسب شرفاً^(٥) ، إلا انه لم يبشر بمبادئ شيعية ، بل بشر بمبدأ الخوارج الذي ينكر مبدأ الوراثة (الذي يستند اليه العباسيون والعلويون معا) ويرى لزوم خلافة أفضل الامين ولو كان عبداً حبشياً . وقد صرح بذلك المسعودي بقوله : انه كان يرى رأى الازارقة^(٦) . فكتب على لوائه « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله^(٧) » . ولهذا اكتفى بكتابة اسمه وأسم أبيه على علمه دون ذكر أصله . هذا الى ان بساطة هذا المبدأ تجعل فهمه ميسوراً على الزنج ، كما ان البصرة لم تكن علوية كالـكوفة^(٨) . واتباعه لمذاهب الخوارج (الازارقة) يفسر كيف انه وضع السيف في رقاب اعدائه واسترق نساءهم واطفالهم^(٩) . وهكذا كانت حركة الزنج متلونة بالاضاع

(١) الطبري ١١ : ١٧٩ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٦ ، ١٧٧ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ . (٣) السيوطي ٢٤٢ . (٤) ابن الحوزي ٥ : ١٧ .
(٥) الطبري ١١ : ٢٢٢ . (٦) المسعودي ٤ : ١٣٥ . (٧) الطبري
١١ : ١٧٦ (٨) Noldeke P. 151-152 الطبري ١١ : ١٧٦ .
(٩) المسعودي ٤ : ١٣٥ .

السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشأت فيها .
ولنتقل الآن الى بحث حوادث تلك الحركة والطبري مصدرنا
الرئيسي : —

— ١ —

وقعت حوادث الحركة في السهول الواقعة بين مصب دجلة
العوراء (شط العرب الحالي) وبين واسط . وهي أراضي تكثرت فيها مجارى
المياه وتزدحم الادغال . فقد كانت البطيحة تغمر القسم الشمالي منها ، بينما
كانت الأراضي حول دجلة العوراء تغمرها شبكة من القنوات التي تزداد
كثافة حول البصرة ، حتى قدر الجغرافيون العرب عددها بمائة ألف قناة
في تلك المدينة .

وطبيعي أن يساعد هذا الوضع الجغرافي على حرب العصابات
ويجعل حركة الجيوش المنظمة أمراً عسيراً كما يساعد على اطالة أمد
الحرب ، وعلى المباغعات التي تنشأ عن جهل المهاجمين بالمسالك الخفية
والقنوات المتعددة . وأخيراً تجعل اقامة وسائل الدفاع أمراً سهلاً وازالتها
أمر صعباً . وقد استغل الثوار هذه الأوضاع ، ولم ينجح الجيش العباسي
في محاربتهم واخضاعهم إلا بعد اناة طويلة ومعرفة جيدة للمنطقة بعد خبرة
طويلة وخسائر فادحة .

— ٢ —

اما بطل الحركة فاسمه (بهبود)^(١) . واصله من (ورنين)

(١) ابن الجوزي ٥ : ٧٠ السيوطي ٢٤٢ .

وهي قرية من قرى الري (١) . فكأنه من أصل فاسي ، ولكنه تسمى
بمحمد بن علي وزعم انه عربي . فانتسب أول الامر الى عبد القيس (٢) ،
ثم الى زيد بن علي (اولا الى عيسى بن زيد وبعده خراب البصرة الى يحيى
بن زيد) (٣) وقد نفي المؤرخين صحة نسبه الملوي وسكنوا عن عروبته
فكأنهم يسلون بها .

ويظهر انه كان طموحاً ذا نفس متوثبة تسعى دوما وراء السيادة ،
الا انه كان صبوراً هادئاً التفكير . فقد بدأ يبشر بمذهبه في
البحرين واتبعه ناس وقاومه آخرون مما جر الى فتنة بين الطرفين فرحل
عنها (٤) . ومما يؤيد هذا ان بعض كبار اتباعه (ومنهم سليمان بن جامع
الكبير قواده) هم من تلك المنطقة (٥) .

ثم ورد البصرة سنة ٢٥٤ هـ ثاني مدن العراق وقلبه التجاري ،
وكانت مسرحاً لفتن مستمرة وخصومات دائمة بين جماعتي البلاية
والسعدية ففشل في دعوته . واحس به العامل فطلبه فهرب الى بغداد وتبع
بعض اتباعه واقاربه واقامهم في السجن . ثم عاد مرة ثانية الى البصرة سنة
٢٥٥ هـ بعد ان عزل العامل ، وبعد ان خرج أهله من السجن نتيجة
للاضطرابات التي تلت العزل (٦) .

(١) الطبري ١١ : ١٧٤ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٤ . (٣) الطبري

١١ : ١٧٤ : ٢٢٢ . (٤) الطبري ١١ : ١٧٤ . (٥) Noldeke. P. 156

(٦) الطبري ١١ : ١٧٥ - ١٧٦ . Noldeke. P. 146 - 147

وجه على بعد رجوعه ، دعايته الى الزنج في السهول الواقعة شرق
البصرة وذلك بعد ان مكث فيها مدة يدرس الاوضاع^(١) فلما دعت
نجاحاً سريعاً . إذ كان الزنج ينضمون اليه جماعات تتراوح بين الخمسين
والخمسائة في المرة الواحدة^(٢) حتى « اجتمع اليه بشر كثير من
علمان الشورجيين^(٣) .

ويعتبر يوم الاثنين (٦ ايلول ١٦٩ م / ٢٦ رمضان ٢٥٥ هـ) يوم
قيامه بالثورة . إذ خطب اتباعه « فناههم ووعدهم ان يقودهم ... ويملكهم
الاموال » وأكدهم اخلاصه وعطفه^(٤) . ثم خطبهم خطبة ثانية يوم
عيد الفطر (١٠ ايلول) ووعدهم بتحسين حالهم وانهم سيتمتلكون الاموال
والعبيد والمنازل^(٥) وبين الطبري انه كان يستعمل المترجمين لفهام من
لم يعرف العربية من اصحابه^(٦) .

وكان اتباعه من جماعات متنوعة من الزنج وهم اخطر اصحابه
واهمهم ، والعبيد الفراتيين (من منطقة الفرات) والنوبة^(٧) .
ويظهر ان بعض الاعراب الساخطين على الخلافة حالفوا الزنج
وقاتلوا معهم . ففي سنة ٢٥٧ هـ ساعد بعض الاعراب الزنج في الهجوم

(١) الطبري ١١ : ١٧٦ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٦ . (٣) الطبري

١١ : ١٧٦ . (٤) الطبري ١١ : ١٧٦ - ١٧٧ . (٥) الطبري ١١ : ١٧٧ .

(٦) الطبري ١١ : ١٧٧ . (٧) الطبري ١١ : ١٧٩ .

على البصرة^(١). وفي سنة ٢٥٨ هـ عاث الباهليون في البطائح فصلب
رئيسهم « فانضم باقي رؤسائهم الى الزنج »^(٢). وفي سنة ٢٦٦ هـ انتهت
الاعراب كسوة الكعبة ثم « صار بعضهم الى صاحب الزنج^(٣) » .
وتعاون بعض اهالي القرى (في منطقة البصرة) مع صاحب الزنج
وايدوه . فقد : « أتى عليه (صاحب الزنج) أهل السكرخ (قرية على
الديجيل) ... ودعوا له بخير وامدوه من الانزال بما اراد »^(٤) وهذا دليل
على تدمير الفلاحين من معاملة ملاك الأرض . ويرى تولد كه انه « لولا
مساعدة الفلاحين وتغاضيهم لصعب تموين جيوش صاحب الزنج
الجرارة »^(٥) .

ومما قوى الزنج وزاد في شكيمتهم ، انضمام الجنود السود من
جيوش الخلافة اليهم وخاصة بعد الهزائم المتكررة . ولعل القليل من
اصحاب الحرف في المدن اشتركوا مع صاحب الزنج^(٦) .

ويظهر من مفاضة رميس (قائد فرقة البصرة) مع صاحب الزنج
ان الحكومة لم تقدر نياته وحركته حق قدرها . اذ عرض
رميس عليه الأمان ورد الزنج الى اسيادهم ، على ان يعطيه خمسة دنانير
عن كل رأس . ولكن صاحب الزنج رفض ذلك . ولما اضطرب الزنوج
وخافوا المفاوضات أكد لهم اخلاصه . كما ان تهاون الحكومة اول الامر
ساعد على انتصاراته السريعة^(٧) .

(١) الطبري ١١ : ٢١٨ . (٢) ابن الجوزي ٥ : ٨ . (٣) ابن الجوزي

المنتظم ٥ : ٥٥٦ . (٤) الطبري ١١ : ١٨٠ - ١٨١ . (٥) Noldeke . P. 154

(٦) Noldeke . P. 152-153 (٧) الطبري ١١ : ١٧٩ وما بعده .

ويمكننا ان نقسم حرب الزنج الى فترتين . فالاولى كانت فترة انتصارات متوالية للزنج ، ساعدتهم عليها اضطراب شؤون الخلافة العباسية وقلة خبرة جيوشها وضعف قيادتها . والفترة الثانية وتبدأ سنة ٢٦١ هـ أي بعد تعيين ابي أحمد الموفق للمرة الثانية لضرب تلك الحركة .

بدأ محمد بن علي اعماله بغارات على القرى المجاورة وعلى مدينة البصرة العظيمة . وقد اظهر في القيادة مقدرة فائقة . فكان رابط الجأش ، بعيد البصيرة ، كثير التروي مقدرًا للظروف في حركاته وسكناته . وقد ساعده نظام الجاسوسية والاستطلاع اللذان كانا نشيطين عنده على معرفة احوال اعدائه وسيرهم العسكري . ففي سنة ٢٥٥ هـ اخبر بتجمع جيش أكثره من أهل البصرة على نهر بيان لمقاتلته ، فهاجمه ومزق صفوفه شرمزق بعد ان اطلع بواسطة جواسيسه على عدده . وتشكيلاته العسكرية (١) . ولعله كان يأمل أن ينضم اليه أحد الحزبين المتناحرين فيما بينهما في تلك المدينة . الا ان آماله ذهبت ادراج الرياح لا سيما بعد ان اتحد الحزبان ضده (٢) .

وبعد ان هزم فرقتين بصريتين اخريين ، الح على اصحابه بالانتظار ، ولكن نشوة النصر حملت بعضهم على التعجيل فكانت العاقبة وخيمة عليهم ، إذ قد منوا بهزيمة منكرة (١٢ من ذي القعدة ٢٥٥ هـ / ٢٣ تشرين الأول ٨٦٩ م) . ولكن البصريين لم يكونوا

(١) الطبري ١١ : ١٨٤ — ١٨٥ . (٢) Noldeke. P. 155

جيشاً مدرباً يعرف التعقيب كما لم تكن لهم قيادة تقارن بقيادة الزنج .
فلا غرابة ان مرق الزنج جمعهم بعد يومين (٤ من ذى القعدة) ولم ينج
منهم الا الشريد^(١) . وكان هذا الانتصار كافياً لتحطيم معنوية البصريين
ولأن يصبح أسم الزنج مثاراً للرعب والخوف في تلك المنطقة^(٢) .

وهنا ظهرت عبقرية صاحب الزنج ، فلم يسمح لجنده بمهاجمة
البصرة لانه اقتنع بعدم وجود الموالين له فيها ، وادرك ان ليس باستطاعته
اخضاع تلك المدينة . هذا بالاضافة الى ان جيشه كان بحاجة الى الراحة
والاستجمام بل والاستعداد من جديد^(٣) .

ثم رأى ضرورة انشاء مركز حصين له وجنده ، ليسهل تنظيم
الجيوش وتعبئة الحملات منه . فانسحب الى سبخة في آخر انهار البصرة
(سبخة ابي قره بين نهر ابي قره ونهر الحاجر) وأمر اصحابه بانشاء
الاكواخ من سعف النخيل والطين فيها . ثم انتقل في السنة التالية الى نهر
ابي الخصيب وانشأ على ضفته الغربية مدينة حصينة بأسوارها وخنادقها ،
علاوة على الحصانة الطبيعية من الاذلال الكثيفة والقنوات
العديدة وأمر اصحابه بالبناء فيها . وبني قصوره من الحجارة كما يظهر
وجعلها كاقلاع . ويظهر انه بنى حصوناً على الجانب الشرقي لابي
الخصيب التجأ اليها في ايامه الأخيرة . واعتنى بصورة خاصة بتموينها

(١) الطبري / ١١ : ١٨٨ — ١٨٩ . (٢) الطبري / ١١ : ١٩١ .

(٣) Noldeke. P. 155-156 الطبري / ١١ : ١٩١ .

فكانت الأراضي التي حولها عامرة ، وجعلها قريبة من البحر والبادية
ليسهل الحصول على الاقوات من الجانبين . وسنرى ان قضية التموين
كانت عظيمة الأهمية في حرب الزنج (١) .

استنجد البصريون بالخليفة فارسل اليهم القائد التركي (جعلان) .
ويدل تركيب جيشه على جهل بمنطقة الحرب . فقد كان أكثر اصحابه
فرسانا ، ولذلك لم يجد « الى لقاء صاحب الزنج سبيلا لضيق الموضع ، بما فيه
من النخل والدغل (ويمكن ذكر القنوات ايضاً) عن مجال الخيل (٢) »
فبقي ستة اشهر قابلاً في مكانه دون حركة . ولكن خصمه الداهية استغل
جهله وارتباكه فبيت له وشتت اصحابه . فاضطر جعلان ان ينسحب الى
البصرة (٣) . وبهذه المناسبة نقول ان التبييت واستعمال الكميناء كانا من
ابرز أساليب الزنج في هذه الحرب . وقد لاقت منها جيوش
الخليفة الأمرين .

وبعد هذا الانتصار تشجع الزنج (ونقلوا مركزهم الى الجانب
الغربي من نهر ابي الخصيب) فهاجموا الأبله ، المرفأ التجاري العظيم
(وهي على اربع ساعات من البصرة) في ٢٥ رجب سنة ٢٥٦ / ١٩
حزيران سنة ٨٧٠ وكانت دورها من الخشب . فاقتحموها ونهبوها

(١) الطبري ١١ : ١٩١ ، ٢١١ — ٢١٢ ، ٢٧٦ ، ٣١٦ ، (٢) الطبري

١١ : ٢١١ ، (٣) الطبري ١١ : ٢١١ ، Noldeke. P. 157

واضرموا النار فيها « فاحترق وقتل خلق كثير وغرق خلق كثير »^(١)
فزاد الرعب من خطر الزنج ، حتى ان أهل عمادان (وهي مدينة على جزيرة
في مصب دجلة العوراء) فتحوا له ابواب مدينتهم ليسلموا مما صارت اليه
الآبلة ، « فدخلها اصحابه فاخذوا من كان بها من العبيد (وحرروهم)
وحملوا ما كان فيها من السلاح اليه ففرقه عليهم »^(٢).

وبعد ان تقوى جيشه بالرجال والسلاح والمال ، صار يطمع بالاهواز .
فهاجم جبي ودخلها ، والاحراق والنهب يصحبه ، ثم تقدم الى مدينة
الاهواز نفسها (العاصمة على نهر كارون الخالي) فانسحبت الحامية منها .
ويظهر ان هذا ضمن لها شيئاً من الاعتدال في المعاملة . فدخلها في ١٢
رمضان سنة ٢٥٦ هـ / سنة ٨٧٠ م^(٣).

وهكذا استطاع هذا المغامر على رأس عصابات الزنج ان يبسط
سلطانه على اراضي واسعة ، وكان صدى انتصارات مروعا وخاصة لاهل
البصرة ، حتى « انفض كثير من اهلها عنها وتفرقوا في بلدان شتى »^(٤) .
ولم يكتف الزنوج بذلك بل تجاوزوا الى طرق المواصلات بين بغداد
والبصرة فقطعوها واحلوا بالتجارة اضرارا فادحة .

ولكن وضع الخلافة بدأ يبشر بالتحسن . فقد قتل المهدي

(١) الطبري ١١ ، ٢١٣ ، (٢) الطبري ١١ ، ٢١٣ ، (٣) الطبري

١١ ، ٢١٣ — ٢١٤ P 158 Noldcke . (٤) الطبري ١١ ، ٢١٥ .

و بويع للمعتمد ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى اخيه ابي احمد الموفق
فاظهر ابو احمد من المقدرة والكفاءة والمثابرة ما مكنته من استرجاع
هيبة الخلافة وسلطتها في المقاطعات المركزية على الأقل (١) .
ولعل انشغال الموفق منعه من الاشراف على حرب الزنج بنفسه
فارسل جيشاً بقيادة حاجبه (سعيد الحاجب) في رجب في سنة ٢٥٧ هـ
واستطاع ان يهزم فرقة من الزنج قرب معقل ، ولكن صاحب الزنج جاءه
بغثة فهزمه ، وهزم خلفه في القيادة — وهو منصور بن جعفر الخياط —
دون ان يجد صعوبة ما (٢) .

ثم عاد الزنج فقطعوا واصلات البصرة بدجلة ، و ضربوا عليها
حصاراً اقتصادياً وخرّبوا المدن التي حولها ثم قرروا مهاجمتها ، والبصرة
يوهئد تعاني الغلاء الشديد والعصية التي كانت تمزق صفوف حاميتها
الضعيفة (٣) . وكانت قيادة الزنج العليا الى علي بن ابان الملهبي ، يساعده
يحيى بن محمد . وفي ١٧ شوال سنة ٢٥٧ هـ / ١٨ ايلول سنة ٨٧١ م هجموا
على البصرة اثناء صلاة الجمعة من ثلاث جهات واعملوا فيها النهب
والسلب والقتل ثم انسحبوا خوف السكين . ولسكنهم اعدوا السكرة
يوم الاثنين وفتحوها وانتقموا من أهلها انتقاماً سريعاً وقتلوا ما يقارب
من ٣٠٠٠٠٠ وسبوا النساء والاطفال حتى حصل كثير منهم على عشرة
ارقاء أو أكثر « وهرب الناس على وجوههم » وأحرقوا المسجد الجامع .

(١) Noldeke : P 158 (٢) الطبري ١١ ، ٢١٥ — ٢١٦

(٣) الطبري ١١ ، ٢١٩ — ٢٢٠

ولما فكر علي بن ابان بالتساهل مع السعدية وأرسل وفدهم الى صاحب
الزنج ولعله (كان يطمح باستمالتهم) رفض صاحب الزنج مقابلة الوفد
ونحى عليا وافرد بجي بالقيادة « لموافقة ما كان يجي أتى من
القتل اياه » (١).

لم يكن احتلال البصرة احتلالاً دائماً امراً مكنياً ، فانسحب
الزنج منها ، ولذا استطاع جيش محمد بن الولد الذي أرسله الخليفة علي
أثر النكبة (ذو القعدة سنة ٢٥٧ هـ) ان يحتل البصرة والامة دون
مقاومة تذكر . ولكن محمداً لم يكن اسعد حظاً من اسلافه ، إذ بيده
صاحب الزنج وانقض عليه ومزق جيشه (٢).

وهكذا فشل قواد الخليفة في الصمود أمام أساليب صاحب الزنج
المختلفة ، مما أدى الى اضعاف معنوية جيوشهم وزاد في ثقة اعدائهم .

— ٧ —

ثم تسلم الموفق القيادة العليا وتقدم الى البصرة مع « جيش عظيم
لم يرد على الخبيث مثله » فرعب الزنج لعدده وعدته . واصطدم الجيشان
في ١٢ جمادي الاول سنة ٢٥٨ هـ فهزم جيش الموفق . ثم استدعى صاحب
الزنج قائده علي بن ابان من الاحواز ليجمع قواه وليضرب الجيش
العباسي الغربة الحاسمة . أما الموفق فقد عرج على الابله ليلم شعث

(١) الطبري ١١ : ٢١٩ — ٢٢١ . (٢) الطبري ١١ : ٢٢٢

جيشه وليستعد من جديد ^(١) . ولكنه عندما رأى تجمع الزنج لم يرتح لمحله
فانسحب الى واسط . ولكنه فشل من جديد في مقابلة الزنج . وزاد
الوضع سوءاً التهم النار معسكره ^(٢) . وربما كان لتخرج موقفه واضطراب
شئون الخلافة في سامراء ، ما دعاه الى استخلاف محمد بن المولود والعودة
الى العاصمة (٢٦ ربيع الاول ٢٥٩ هـ / ١٣ كانون الثاني ٨٧٣ م) .

— ٨ —

ارسل صاحب الزنج جيشاً الى الاهواز بعد رجوع الموفق الى مقر الخلافة
وتمكن من احتلال العاصمة مرة اخرى . وربما كان صاحب الزنج يفكر في توسيع
سلطانه الا انه لم يقصد الاحتلال الدائم اذ كان يعلم انه هو وزنجه في مأمن مادام
بين الادغال والقنوات . ولعل توسعه الى الاهواز والى جهات واسط لم يكن
يقصد به احتلال منظم بقدر ما كان للحصول على الغنائم والمؤن وبث
الرب في قلوب اعدائه ^(٣) .

ثم اسندت قيادة الجيش العباسي الى القائد التركي الكبير موسى
ابن بغا (وكانت اليه ولاية المشرق) فوافى البصرة في ذي القعدة سنة
٢٥٩ هـ / ايلول ٨٧٢ م فارسل فرقة الى الاهواز . ثم رجع عبدالرحمن
وعسكر ببيان لمحاربة صاحب الزنج فدامت المناوشات بين الطرفين الى ان
استقال موسى بن بغا من منصبه ^(٤) . ويظهر ان موسى جعل واسطاً

(١) الطبري ١١ : ٢٢٥ . (٢) الطبري ١١ : ٢٢٨ . (٣) Noldeke P 161

(٤) الطبري ١١ : ٢٣٠ — ٢٣١ .

مر كزآله ، ولـكنه ضـجـر من محاربة الزنج ، كما ان احد اشوار احتل مقاطعة فارس وطرد نائب موسى منها . فاستعفى هذا (سنة ٢٦١ هـ ٨٧٥ م) من محاربة الزنج ومن ولاية المشرق « لكثرة المتغلبين عليه وانه لا قوام له بهم » فانتهت الولاية وقيادة لابي احمد الموفق .

استغل الزنج هذا الوضع المضطرب فاعادوا الكرة على الاهواز للمرة الثالثة ودخلوها واعملوا في اهلها القتل والسبي ونهبوا ما استطاعوا عليه ^(١) ، حتى يقدر عدد القتلى في هذه المرة بخمسين الف ^(٢)

ثم هبت زوبعة على الخلافة اشغلتها فترة من الزمن ، وفسحت المجال امام الزنج ليوسعوا نفوذهم وليعيشوا في جنوب العراق ، اذ انشغل الموفق بخطر جديد وهو الخصومة بين يعقوب بن الليث الصفار وبين الخليفة ، فاستند حرب الزنج الى ابي مسرور البلخي . ولم تمض الا مدة قصيرة حتى جاء يعقوب قاصداً الاستيلاء على بغداد . فقابله الموفق عند دير العاقول (بين واسط وبغداد) ٨٧٦ م - ٢٦٢ هـ واسرع البلخي لنصرة الخليفة وتعزيز جيشه . فبقيت واسط مفتوحة امام الزنج . وقد تعلق مصير الخلافة بتلك الفترة . ولسكن الظروف ابـت الا ان ينتصر الموفق وان يعنى يعقوب بالفشل ^(٣) .

لم ينجح الزنج في التفاهم مع الصفارين . فقد جرت مناوشات بين

(١) الطبري ١١ : ٢٣٥ . (٢) ابن الجوزي ٥ : ١٩ . (٣) الطبري

١١ : ٢٣٦ - ٢٣٨ .

اتباع يعقوب (بعد انسحابه الى الاهواز) وبين علي بن ابان سنة ٢٦٣ هـ .
كما رفض يعقوب اقتراح الزنج بالتحالف معهم لانه اعتبرهم مارقين ،
ولكن الضرورة العسكرية جعلت الطرفين يقنعان بالهدنة (١) .

توسع الزنج بقيادة سليمان بن جامع في منطقة دست ميسان
والبطيحة . وقد لاقوا بعض المساعدة من بعض القبائل الساكنة في
البطيحة (٢) . ودخلوا « واسط فحلى الناس البلاد وخرجوا حفاة على
وجوههم ، وخربت واسط بالنار » (٣) ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا
النعمانية « فاحرقوا سوقها واكثر منازلها وسبوا » ثم وصلوا جرجرايا
وصاروا على مسافة قريبة من بغداد ولا غرابة ان ترك اهل السواد قراهم
والتجؤا الى بغداد تخلصا من اذى الزنج (٤) .

— ٩ —

وتحسن وضع الموفق سنة ٢٦٥ هـ إذ توفي يعقوب وعقد خلفه
الصلح معه بعد أن بذل الموفق في سبيل ذلك جهوداً كثيرة (٥) .

تفرغ الموفق حينئذ لحرب الزنج . فحشد جيوشه وركز قواه
لضربهم الضربة القاضية . كما ان خبرته بحرب الزنج ، والتجارب التي
استفادها من فشل الجيوش العباسية المتكررة جعلته أبعد بصيرة بحربهم
من تقدمه . فادرك ضرورة التأني والتروي وأخذ يسعى لبلوغ غايته بهدوء

(١) الطبري ١١ : ٢٤٦ . (٢) الطبري ١١ : ٢٢٣ — ٢٤٠ P. 162

oldeke . (٣) ابن الجوزي ٥ : ٤٥ . (٤) الطبري ١١ : ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٥) الطبري ١١ : ٢٥٤ .

وتؤدة . فلا يخاطر إلا قليلا ، بل لا يخط خطوة لا يتأكد منها . ومنذ
هذا الحين انعكت الآية وصارت الامور تجري في صالح العباسيين (١) .
أرسل الموفق (بعد دخول الزنج واسط) ابنه ابا العباس (المعتضد
فيما بعد) في ربيع الثاني ٢٦٦ هـ لخر بهم بعد ان استعرض جيشه واسطوله
قرب بغداد . وكانت سفن الاسطول متنوعة ، فبعضها كبار تستعمل
حصوناً أو للنقل وبعضها صغار تسع الواحدة ٢٠ - ٤٠ رجلا كانت اعدت للهجوم
في الدرجة الاولى . وبلغ عدد جيشه رجلا وفرسانا « عشرة آلاف رجل
في أحسن زى وأكمل عدة » .

ولما سمع الزنج بمقدمه غلب على اذهانهم انه فتى غر « لم تطل
ممارسته للحروب وتدريبه عليها » (كان عمره ٢٣ سنة) فقرر وا حشد
اكبر قواهم لصدمه بقوة ترجعه على اعقابه . ولكن ابا العباس اظهر من
المقدرة والبراعة ما مكنه من فل جيش سليمان بن جامع وتمزيقه (٢) .

ثم فكر ابو العباس ببناء معسكر لجيشه يأمن فيه شر المباغته
فاختار (العمر) « وهو على فرسخ من واسط » وقال « اجعل معسكري
اسفل واسط ليأمن من قومة الزنج واعرض عن مشاورة اصحابه
واستماع شيء من آرائهم » (٣) .

ولم سليمان شعث جيشه واتته نجدات جديدة . ثم اصطدم بابي
العباس فاندحر وولى هاربا (٤) .

(١) Noldeke P. 164 . (٢) الطبري ١١ : ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٣) الطبري ١١ : ٢٦١ - ٢٦٢ . (٤) الطبري ١١ : ٢٦٢ .

وأظهر أبو العباس إلى حسنكته في القيادة جرأة وشجاعة . فكان
يتعرف المواقف والممرات والمسالك بنفسه ويهتم كثيراً بالاستطلاع^(١)
وأظهر بعد نظر في معالجة الأمور . فلما شئت فرقة من الزنج (في عبدسى)
استبقى رئيسها وضمه إلى قواده^(٢) . وهذا أول تطبيق لسياسة جديدة
كان لها نجاح كبير في اجتذاب قواد الزنج والشوار وجنودهم . وكما تخرج
وضع صاحب الزنج ، ازداد استئمان أصحابه من الموفق ، مفضلين أمانه
وهباته على تحمل الأخطار ، بينما كان هذا يظهرهم بالخلع على مرأى من
أصحابهم ليطمعهم وليفت في أعضادهم ، حتى اضطر صاحب الزنج في
الآخير إلى اتخاذ تدابير فعالة لمنع تسلسل أتباعه إلى الموفق .

لاحظ صاحب الزنج قوة أبي العباس وكثرة جيوشه ، فأرسل إلى
علي بن إبان أن يترك الأهواز ويصير بجميع من معه إلى ناحية سليمان بن
جامع ليجتمعوا على حرب الجيش العباسي . فلما سمع الموفق بذلك توجه
(صفر سنة ٢٦٧هـ | تشرين الأول ٨٨٠ م) إلى ساحة القتال بجيش
كبير وتراجع أبو العباس إلى مقره بجوار واسط لينتظر والده^(٣) .

سار الموفق وابنه لمهاجمة حصن الزنج الشمالي (المدينة المنيعه) الذي
بنوه قرب واسط . فهزم جيشهم في ٨ ربيع الثاني واحتل الحصن واستنقذ
(٥٠٠٠) أسيرة مسامة . وهكذا صار تحرير الأسيرات المسلمات يتكرر

(١) الطبري ١١ : ٢٦٣ — ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ (٢) الطبري

١١ : ٢٦٥ (٣) الطبري ١١ : ٢٦٦ .

حتى نهاية الحرب . تم « أفن للناس ... في أخذ ما كان فيها اجمع ، وأمر
بهدم سورها وطم خندقها واحراق ما كان بقي فيها من السفن »^(١) .
ثم أخذ الموفق يستعد لضرب حصن الزنج الثاني (المدينة المنصورة)
بجوار (طهيشا) وكان الزنج قد حصنها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام
كل خندق منها سوراً يمتنعون به »^(٢) . فأمر باصلاح سفن الجسور
ليحدرها معه واستكثر من العمال والآلات التي يسد بها الانهار ويصلح
بها الطرق للغيل^(٣) . ولعل من المفيد ان نذكر ان الموفق كان يهتم كثيراً
في كل تقدم يقوم به بضمان مواصلاته الخلفية . وهذا ولا شك يتطلب
كثيراً من الهندسة . فكان المهندسون (المدنيون) يلعبون دوراً هاماً
في هذه الحرب^(٤) .

وفي ٢٧ ربيع الثاني دخل العباسيون طهيشا ، وأجلوا الزنج عنها
« وافلت سليمان بن جامع في نفر من اصحابه » كما « استنقذ الموفق من
نساء اهل واسط وصبيانهم ومما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة
زهاء ١٠٠٠٠٠ ... وحملوا الى واسط ودفعوا الى اهلهم »^(٥) . وأمر
الموفق بهدم سورها وطم خنادقها ، كما أمر بتتبع الزنج اللاجئين الى
الآجام ، والعفو عنهم واكرامهم بدل التنكيل بهم « لما دبر من استمالتهم
وصرفهم عن طاعة صاحبهم » وأرسل فرقة لتتبع سليمان « والهراب معه »

(١) الطبري ١١ : ٢٦٧ — ٢٦٨ • (٢) الطبري ١١ : ٢٧١ •
(٣) "طبري ١١ : ٢٦٩ • (٤) old ke P. 170-171 • (٥) الطبري
• ٢٧١ : ١١

وان يستمر في طلبهم حتى يوافي دجلة العوراء ، ثم امر « بفتح السكور
التي كان الفاسق احدثها ايقطع بها الشذا (القوارب الحربية) عن دجلة
فيما بينه وبين النهر المعروف بابي الخصيب » (١) . وقد كان انشاء السدود
في الانهار والقنوات من اساليب الزنج المشهورة لمنع سفن اعدائهم من
المرور ولعرقلة حركات جيوشهم .

ثم خلف الموفق ابنه ابا العباس في واسط ، وسار الى الاهواز
لينقذ اهلها من المهلي . أما صاحب الزنج فاضطرب لما حل بجماعته وكتب
الى المهلي والى بهبود بن عبد الوهاب (واليه يومئذ ولاية ما بين الاهواز
وفارس) بالقدوم وذلك حذراً من هجوم الموفق على مدينته (٢) .

و بعد ان وطد الموفق الوضع في الاهواز وجمع الذخائر والمؤن دعا
ابنه وقائديه في منطقة البطيحة الى نهر المبارك . فاجتمع كلهم هناك في ١٥
رجب سنة ٢٦٧ هـ / ١٨ شباط ٨٨٦ (٣) .

— ١٠ —

ومنذ هذا الوقت اقتصر الزنج على مدينتهم « المختارة » وأصبحت
الحرب تدور حولها حتى انتهت بتدميرها وتمزيق شمل الزنج .
بدأت المناوشات بحملة استطلاعية قام بها ابو العباس . ومما يذكر
ان أحد قواد الزنج (اسمه منتاب) استأمن اثناء هذه الحملة مع جماعة من

(١) الطبري ١١ : ٢٧١ (٢) الطبري ١١ : ٢٧٢ — ٢٧٣

(٣) الطبري ١١ : ٢٧٤ .

اصحابه « فكان ذلك مما كسر الخبيث واصحابه »^(١) وهذا أول قائد استأمن .

ثم كتب الموفق (مراعاة التعاليم الاسلامية) كتاباً الى صاحب الزنج يدعو فيه الى التوبة والكف عن القتال « ويعلمه ان التوبة له مبسوطة والأمان له موجود ، فان هو نزع عما هو عليه من الامور التي يسخطها الله ودخل في جماعة المسلمين محاذلك ماسلف من عظيم جرائمه وكان له به الحظ الجزيل في دنياه »^(٢) فلم يزد الكتاب الانفوراً واصراراً ولعله كان يأمل ان تحصل فتن تشغل عدوه .

قضى الموفق خمسة ايام في الاستعداد ، وفي اليوم السادس سار الى المختاره « فاشرف عليها وتأملها فرأى من منعتها وحصانتها بالحصون والخنادق المحيطة بها وما عور من الطرق المؤدية اليها واعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان . ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلط أمره »^(٣) . ولم يكتف الزنج بهذه التحصينات بل استمر وا في انشاء وسائل دفاع جديدة من انواع مختلفة طيلة فترة الحصار حتى كانوا يلجأون الى بثق القنوات احياناً^(٤) . وكان الزنج (٣٠٠٠٠٠) أكثر عدداً من جيش الموفق (٥٠٠٠٠٠) ولكن

(١) الطبري ١١ : ٢٧٥ . (٢) الطبري ١١ : ٧٥ - ٢٧٦ (٣)

الطبري ١١ : ٢٧٦ . (٤) Noldeke p: 167

تجهيزات الموفق كانت أحسن ، وتموينه انظم ، وكان جيشه يزداد باستمرار بانضمام فرق جديدة اليه .

وبعد مناوشات اولية أستأمن اصحاب سميريتين ، فآكرمهم الموفق وخلق عليهم « وأمر بادنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراًؤهم فكان ذلك من انجع المكاييد التي كيد بها الفاسق ، فلما رأى الباقون ما صار اليه اصحابهم من العفو عنهم والاحسان اليهم رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه ^(١) . وتوالت حوادث الاستئمان كثيراً . وكان لها أثر سيء على وضع الزنج ، إذ تقوى جيش عدوهم على حسابهم وليس ذلك لقوة المستأمنين العسكرية فقط بل لاطلاعهم على وضع الثوار ومعرفةهم الدقيقة بمنطقة الحرب وخططهم العسكرية . وهذا الأثر المعنوي كان له المفعول القوي على نفوس الباقين ، وعلى علاقة صاحب الزنج باتباعه ، حتى صار يشك في ولائهم ^(٢) .

لاحظ الموفق حصانة المختارة ، الا انه لم يفكر ان يأخذها بهجوم مفاجيء بل قرر المطاولة . فانتقل يوم ١٥ شعبان سنة ٢٦٧ هـ الى معسكر جديد بازاء المختارة وانشأ هناك المدينة الموقية ، وأخذ يقوي نفسه . ويصف الطبري استعداداته بتفصيل فيقول : « واحتاج الى الاستكثار من الشندا وما يحارب به في الماء ، فأمر بانفاذ الرسل في حمل المير في البر والبحر وادرارها الى معسكره بالمدينة التي سماها الموقية . وكتب

• (١) الطبري ١١ : ٢٧٦ (٢) Noldeke p. 167

الى عماله في النواحي في حمل اموال الى بيت ماله في هذه المدينة. وأنفذ رسولا الى (سيرا ف) و(حنابا) في بناء الشدا والاستكثار منها لما احتاج اليه من ترتيبها في المواضع التي يقطع بها المير عن الخائن واشياعه ، وأمر بالكتابة الى عماله في النواحي بأنفاذ كل من يصلح للاثبات في الديوان ويرغب في ذلك « (١) . ومن هذا يتضح انه جعل لمشكلة التموين اهمية كبرى في خطته الحربية .

ولقد نجح في قضية التموين فعلا ، اذ « وردت المير (بعد شهر او نحوه) متتابعة يتلو بعضها بعضاً ، وجهاز التجار صنوف التجارات والامتعة وحملوها الى المدينة الموقية ، واتخذت بها الاسواق وكثرت بها التجار والمتجهزون من كل بلد » وكذلك فتح طريق التجارة البحرية فوردت المراكب بعد ان قطعها الزنج « قبل ذلك بأكثر من عشر سنين » واتخذ الموفق دوراً لضرب الدراهم والدنانير (٢) .

وكما اعتنى الموفق بتأمين تموينه ، اهتم اهتماماً خاصاً بفرض حصار اقتصادي على الزنج لانه رأى ذلك أنجع طريق للقضاء عليهم (٣) . فقطع سبل الاتصال بينهم وبين الخارج ، ولما سمع بورود سمك من البطيحة ، وبوصول اعراب من البادية الى معسكرهم بحجة شراء التمر ، منع جلب السمك منعاً باتاً وانشأ سوقاً خاصاً للاعراب في البصرة يستطيعون ان يأخذوا منها ما يشاؤون من التمر . وشدد الحصار في السنة التالية

(١) الطبري ١١ : ٢٧٩ (٢) الطبري ١١ : ٢٧٨ — ٢٧٩

(٣) الطبري ١١ : ٢٨٠

في البر والبحر والنهر « فلم يكن للزنج سبيل الى بر ولا بحر ، فضاقت عليهم المذاهب وأشدت عليهم الحصار » (١) .

وحاول صاحب الزنج اختراق الحصار الاقتصادي وتهديد تموين الموفق فأرسل حملة (من ١٠ر٠٠٠) الى جهة البطيحة لأخذ ما وجدوا من طعام وميرة وليقطع الميرة الواردة من مدينة السلام وواسط عن الموفق ولأنه « انقطعت عن الخبيث مواد الميرة وسدت عليه » فأسرع الموفق بأرسال فرقة من قوتها (٢) . وهكذا فشلت المحاولة الهامة الوحيدة لرفع الحصار الاقتصادي .

وقد ظهر اثر الحصار الاقتصادي على الزنج بوضوح . فقد ازداد استئمان الزنج هربا من سوء الوضع المعاشي . فما ان جاء ذوالحجة سنة ٢٦٧هـ حتى « جعل الزنج يهربون في كل وجه ويخرجون الى ابي احمد في الامان » . ولما سد صاحب الزنج المسالك على اتباعه ووكل بفوهة الانهار لينمع خروج السفن المستأمنة هرب بعض الزنج خلال المعارك الى جيش الموفق (٣) .

فاقتضحت خطط الزنج لتبديد عسكر الموفق أكثر من مرة ، لكثرة هذا الانضمام بل لقد صرنا نسمع بمباغثة فرقتهم وتشتيتها (٤) . واضطر آخرون الى ان « تفرقوا في القرى والانهار النائية عن عسكرهم

(١) الطبري ١١ : ٢٩١ ، (٢) الطبري ١١ : ٢٨٤ ، (٣)

الطبري ١١ : ٢٨٤ — ١٨٥ ، (٤) الطبري ١١ : ٢٨١ — ٢٨٢ .

في طلب القوات « فأمر الموفق جماعة من قواد غلمانه السودان بمطاردتهم » (١).

وفي ذي القعدة سنة ٢٦٧ هـ / تموز ٨٨١ م قام الموفق بهجوم على المختارة ونجح اصحابه في دخولها ثم تراجعوا عنها ليلاً. (٢) وفي ربيع الثاني سنة ٢٦٨ هـ هاجم الموفق المختارة وأمر اصحابه بهدم السور وان لا يدخلوا المدينة. فلما خالفوا اصابوا بخسارة فادحة. (٣) ولناحظ ان هذه الهجمات كان يقصد منها في الدرجة الاولى تخريب الجسور والقناطر وأزالة وسائل الدفاع، وكانت النار اليونانية والرصاص المذاب تستعملان في الهجوم، كما ان سفن الحريق كانت تستعمل لتخريب القناطر. (٤) وتقدم الموفق بهدم اسوار المختارة بالتدريج حتى اضعف تحصينها، ولكن الحوادث اسعفتها مؤقتاً. اذ اصاب الموفق (٢٥ جمادى الاولى سنة ٢٦٩ هـ) بسهم في صدره فأعاقه عن الاشراف على القتال حتى شفي في شعبان (٥). ثم شغل الموفق بمشكلة المعتمد الذي هرب في ٤ شعبان سنة ٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م من سامراء قاصداً اللجوء الى ابن طولون. ولكن اسحق بن كنداج عامل الموفق على الموصل، قبض عليه وارجمه الى سامراء. وبذلك تخلص الموفق من هذه المشكلة.

وسرعان ما استغل صاحب الزنج هذه الفرصة لتقوية وسائل

(١) الطبري ١١ : ٢٩٢ — ٢٩٣ • (٢) الطبري ١١ : ٢٨٦ •

(٣) الطبري ١١ : ٢٨٧ • (٤) Noldeke • p. 166 • (٥) •

الطبري ١١ : ٢٩٩ •

دفاعه و «اعاد بناء بعض الثلم التي ثلمت في السور» (١).

ثم رجع الموفق الى متابعة القتال. ففي ١٩ شعبان سنة ٥٢٦٩هـ/شباط ٨٨٣م هاجمت شذواته وسميريته (مراكب حربية) المختارة حتى وصلت قصر صاحب الزنج فاحرقته وخرج هارباً (٢). ثم اعتل الموفق «بوجع المفاصل» فعاقه عن متابعة القتال حوالي شهرين فاستفاد صاحب الزنج من ذلك في بناء قنطرة وجسر على نهر أبي الخصيب ولكن الموفق دمرها بعد شفائه (٣).

وهاجم الموفق جيش الزنج في غرب نهر ابي الخصيب فمزقه واحرق الجسر الثاني على النهر (٤). وأفلت ابن صاحب الزنج (انكلاي) وسليمان ابن جامع الى الجانب الشرقي.

لقد وصلت حوادث الاستئمان الآن الى حد بعيد. ففي ٥٢٦٨هـ قتل صاحب الزنج «ابن ملك الزنج» لما هرب انه يريد اللحاق بالموفق (٥) والآن (سنة ٢٦٩) تقدم (انكلاي) نفسه يطلب الامان. فأجابه الموفق الى كل ما سأل، ولكن والده عذله وثناه عن رأيه (٦). ثم استأمن الشعراي - قائد مؤخرة جيش صاحب الزنج - (تردد الموفق في منحه ذلك لفضاعة اعماله فتنكر الزنج فقبل امانه) وكان التحاق الشعراي بجيش الموفق ضربة لجيش صاحب الزنج (٧). ولما عين صاحب الزنج

(١) الطبري ١١: ٣٠١ • (٢) الطبري ١١: ٣٠٢ - ٣٥٣ •

(٣) الطبري ١١: ٣٠٥ - ٣٠٦ • (٤) الطبري ١١: ٣١٢ - ٣١٣ •

(٥) ١١: ٢٩٥ • (٦) الطبري ١١: ٣١٣ • (٧) الطبري ١١: ٣١٤ •

محلّه شبيل بن سالم استأمن ايضاً بدوره . « وكان شبيل هذنا من عدد الخبيث وقدماء اصحابه وذوي الغناء والبلاء في نصرته » ^(١) .

واخذ الموفق يكثر من ارسال الفرق لالقاء الرعب في نفوس الزنج وللإطلاع على دقائق مسالكهم . ثم اقتنع بان الوقت قد حان لشن الهجوم الاخير . فجمع المستأمنة من الزنج وذكروهم بفضله واحسانه « وانهم من الخبرة بمسالك عسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي اعدّها للهرب اليها على ما ليس عليه غيرهم . فهم احرياء ان يحضوه نصيحتهم ويجهدوا في الولوج على الخبيث والتوغل اليه في حصونه حتى يمكنهم الله منه ومن اتباعه » فشكروه واقسموا له يمين الاخلاص ^(٢) .

انتقل صاحب الزنج الى الجانب الشرقي من نهر ابي الخصيب دون ان يهمل الجانب الغربي . وجمع الموفق السفن من البطيحة ودجلة . ولما اتم استعداداته هجم في ٧ ذي القعدة من اماكن متعددة على شرق نهر ابي الخصيب وغربه . وكان عدد جيشه خمسين الفا « من الرجالة والفرسان في احسن زي واكمل هيئة » ^(٣) . فدخلوا المدينة المختارة واستولوا على قصر صاحب الزنج ونهبوه وسبوا أهله . فانقل الى قلعة اخرى (لعلها في نفس المدينة) وهي قصر المهلبى ^(٤) . ثم خطا آخر خطوة في ضرب تموين صاحب الزنج ، اذ احرق بيادره « وكان احراق ذلك من اقوى الاشياء

(١) الطبري ١١ : ٣١٤ ; (٢) الطبري ١١ : ٣١٤ - ٣١٥ (٣) الطبري

١١ : ٣١٧ ; (٤) الطبري ١١ : ٣١٧

على ادخال الضعف على الفاسق واصحابه اذ لم يكن له معول في قوتهم
غيره (١).

ووردت للموقف هذا الوقت نجدات جديدة . فقدم في ٢
ذى الحجة عشرة آلاف بين فارس وراجل من سامراء . كما ان لؤلؤ
قائد شمال سورية انفصل عن سيده أحمد بن طولون وفاوض الموقف في
الانضمام اليه وجاء « بجيش عظيم من الفراغنة والاتراك والروم والبربر
والسودان وغيرهم » (٢).

واستمرت الأموال تتوارد على الموقف، وجاءه كثير من المتطوعة
للجهاد، مثل عامل اينج (أحمد بن دينار) في الاهواز ومعه جمع كثير
من الرجال والفرسان والفي رجل من البحرين وبعض المتطوعة من فارس
وبلدان اخرى (٣).

وكان الهجوم العام على شرق ابي الخصيب وغربه وفي النهر يوم
٢٧ محرم سنة ٢٧٠ هـ | ٥ آب ٨٨٣ . وكان عدد الرجال حوالي ٥٠٠٠٠
والفرسان ٢٠٠٠ « سوى من عبر من المطوعة وأهل العسكر من
لا ديوان له » ومع ان الموقف ازال العسكر الذي أحدثه الزنج اخيراً في
نهر ابي الخصيب (٤) . إلا ان ضيق المواضع وكثرة الخنباذق والانهار بقيت
عائقاً أمام عسكر الموقف حتى في هذا الهجوم .

(١) الطبري ١١ : ٣١٨ (٢) الطبري ١١ : ٣١٨ — ٣١٩

Noldeke 172 (٣) الطبري ١١ : ٣٢١ (٤) الطبري ١١ : ٣١٨ — ٣١٩

وعلى كل حال فقد مزقت قوة الزنج وهرب رئيسهم وابنه
وسليمان^(١) . ثم اعاد الموفق الكرة يوم ٢ صفر ٢٧٠هـ | ١١ آب ٨٨٣ م .
فخطم البقية من عصاباتهم وقتل رئيسهم وأسر سليمان بن جامع وعلي بن
ابان المهلبى فصلبها . ولم يبق إلا شردمة استعصت في ادغال البصرة
وعانت فيها ثم اضطرت الى طلب الأمان^(٢)

وأصدر الموفق منشوراً الى العالم الاسلامي يبشرهم بانتهاء الخطر
ويدعو « أهل البصرة والابلة وكوردجلة وأهل الاهواز وكورها وأهل
واسطوما حولها » الرجوع الى مدنهم المهجورة^(٣) .

وهكذا انتهت حركة الزنج بعد ان تركت وراءها آثاراً فضيعة، من
التدمير والتخريب . ولعل أهم ما فيها الروح الطبقيّة التي اتصفت بها ،
والدور الكبير الذي لعبته الحرب الاقتصادية خلالها ، وأهمية الهندسة
المدنية في اعمالها ، وانكشاف ضعف الخلافة وقواها الكامنة في
وقت واحد .

ثبت المراجع

Noldeke = Sketches From Eastern History London 1892 .

Massignou = Art . "Zanj" E . I Vol . IV

DURI = Studies on the Economic Life of Mesopotamia in
the 10th century.

(١) الطبري ١١ : ٣٢٢ (٢) الطبري ١١ : ٣٢٦ (٣)

الطبري ١١ : ٣٢٦

الطبري — تاريخ الرسل والملوك (المطبعة الحسينية) ج ١١

المسعودي — مروج الذهب ج ٤

اليقوي — التاريخ (النجف) ج ٣

ابن الجوزي — المنتظم ج ٥

السيوطي — تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الامارات الفارسية

مقدمة

لم ينس المأمون انه مدين للفرس بانتصاره على اخيه الأمين ، فاعتمد عليهم في ادارة الولايات الشرقية أكثر من اسلافه . ولكن سياسة بني سهل أكدت له شكوك اسلافه في ولاء الارستقراطية الفارسية فنكل بهم وبذلك فشلت آخر محاولة للتعاون الوثيق بين العباسيين وبين ارستقراطية الفرس ، وأصبح كل منهم يخشى الآخر . ثم ان رجوع المأمون الى بغداد واقتفائه خطة اسلافه خيب أمل جماهير الفرس في احياء حكم العدل الذي وعده به العباسيون . ولذلك حصل بعض الوئام بين مصلحة الارستقراطية الفارسية ومصلحة الجماهير ضد السيادة العباسية . ولعل هذه الاوضاع تلقي بعض الضوء على ظهور الامارات الفارسية (كالظاهرية والصفارية والسامانية) في القرن الثالث للهجرة . ومع ان من الممكن اعتبارها الثمرة الاولى للوعي الفارسي ، إلا انها لم تتخذ سياسية قومية كما سنرى .

آ - الظاهريون

ظاهر بن الحسين ٢٠٥ - ٢٠٧ هـ / ٨٢٠ - ٨٢٢ م

طلحة بن طاهر ٢٠٧ - ٢١٣ هـ / ٨٢٢ - ٨٢٨ م

عبدالله بن طاهر ٢١٣ — ٢٣٠ هـ / ٨٢٨ — ٨٤٤ م

طاهر بن عبدالله ٢٣٠ — ٢٤٨ هـ / ٨٤٤ — ٨٦٢ م

محمد بن طاهر ٢٤٨ — ٢٥٩ هـ / ٨٦٢ — ٨٧٢ م

— ١

كان لبني طاهر نفوذ محلي في خراسان قبل خلافة المأمون . فقد عين مصعب جد طاهر لولاية بوشنج (في منطقة هرات) ثم خلفه ابنه الحسين (المتوفي سنة ١٩٩ هـ | ٨١٤ — ٨١٥ م) وتلاه حفيده طاهر في الولاية .

ولعب طاهر وابنه عبدالله دوراً كبيراً في خلافة المأمون . فهو مدين لها بالدرجة الاولى في انتصاره على الأمين وفي تهدئة مملكته المضطربة . ومع ان المأمون عرف لها ذلك وكافأهما بالمناصب الرفيعة ، إلا انه حاول ابعادهما عن خراسان لانه خشى نفوذهما هناك وخاف طموح طاهر . ولكن طاهراً لم يقنع بتعيينه والياً على الجزيرة و برئاسة شرطة بغداد والاشراف على المعاون في السواد بل كان يتطلع الى خراسان ، وقد نجح بالتآمر مع الوزير أحمد بن ابي خالد في الحصول على رغبته . وتظهر قلة ثقة الخليفة بطاهر من ان التولية لم تتم إلا بضمان شخصي من الوزير بحسن سلوكه .

وتحقت شكوك المأمون في طاهر إذ أسقط هذا اسم الخليفة من الخطبة سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م ، معلناً بذلك الانفصال عن بغداد ولكنه

توفي فجأة . وربما كان للمأمون أو لوزيره يد في ذلك . ثم عين المأمون طلحة ابن طاهر محل والده . ولعل ذلك كان بدافع رغبة الخليفة في ازالة الشكوك التي حامت حول وفاة طاهر الفجائية . ولكن التولية بحمد ذاتها تدل على النفوذ المحلي القوي الذي كان لآل طاهر في خراسان .

أما تولية عبدالله بن طاهر بعد اخيه ، فربما كانت نتيجة ثقة المأمون بقابلياته وباخلاصه . ولكنها اكدت العائلة صفة وراثية في الحكم ونفوذاً وسلطة محلية لم يتمتع بها أحد قبلهم . وفي خلال حكم عبدالله وصلت العائلة أوج قوتها وثبتت اصولها لدرجة لم يعد معها ممكننا نقلهم لأية ولاية اخرى . حتى ان المعتصم رغم كرهه لعبدالله لم يجرأ على عزله بل اكتفى بتشجيع الخطة السرية لقتله . ومن الجهة الاخرى كان عبدالله ا كيس من والده فلم يخن الثقة عندما اطلع على مؤامرة المعتصم ، ولكنه كان حازماً يعرف انه آمن مادام في بلاده ولذلك لم يذهب الى الحج رغم تدينه (١) .

ولما توفي عبدالله، فكر الواثق بتولية اسحق بن ابراهيم المصعبي على خراسان ، ولكنه عدل عن ذلك قبل سفر الوالي الجديد وعين طاهراً بن عبدالله محل والده . واخيراً ولي محمد بن طاهر (وكان يميل للهو والمجون فحضر امارته و بلاده ليعقوب الصفار سنة ٥٢٥٩ / ٨٧٢ م .

(١) فكر مرة بالحج واستشار كاتبه فقال له « ايها الامير انت احزم من ان تقوم بعمل غير مئزر كهذا » فوافقه ، اوضح وانه اما اراد ان يختبره .

كان الطاهريون من الأرستقراطية وبنفس الوقت كانوا الممثلين
الرسميين لسلطان العرب (نظرياً على الأقل) فلم يكونوا يمثلون الميول
القومية أو الشعبية كما كان أبو مسلم والدعاة الآخرون . ولعل خير وصف
لحكمهم انه « الاستبداد المهذب » . ولكنهم في محاولتهم لانشاء حكم
مستقر ، ولإعادة السلم للبلاد ، لم يغفلوا العامة ، بل اتخذوا موقف الحماة
لها ضد ظلم الطبقات الأرستقراطية ، فشجعوا التعليم وعنوا بالامور
الزراعية . كما انهم قاوموا عناصر الاضطراب والثورة بين الطبقات العامة .
وتظهر هذه الاتجاهات جلية في حكم عبدالله بن طاهر الذي اهتم
بشؤون الزراعة كثيراً . فعندما لاحظ كثرة الخصومات بينهم على
توزيع المياه ، دعا اليه جماعة من الفقهاء وطلب اليهم شرح الاسس
الفقهية لمشاكل الري . فوضعوا له كتاب « القني » الذي صار دليل الزراع
فيما بعد . كما انه اوصى عماله بحفظ مصالح الفلاحين لان « الله يطعمنا
بايديهم ويرحمنا بدعائهم ويمنع الاساءة اليهم » . واهتم بنشر التعليم
بين الطبقات الواطئة ، مما يدل على مدى عطفه عليهم .

أما صلوات الطاهريين ببني العباس ، فكانت حسنة على العموم
وكانوا يدفعون جزية سنوية الى الخلفاء بصورة منتظمة^(١) . وبقوا انصاراً

(١) بلغ مقدار الجزية السنوية التي يدفعها الطاهريون (٣٨٠٠٠٠٠٠٠٠)
درهم سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م من وارد (٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠) على قول قدامة . انظر
ابن خردادبة أيضاً ص ٣٨ وقدامه ص ٢٥٠ واليعقوبي — البهتان .

مخلصين للعباسيين بحكم ظروفيهم ومصالحهم . فقد حكموا (حكماً مستقلاً
عملياً) أهم الولايات (كرمان ، الري ، خراسان ، ما وراء النهر) هذا
بالإضافة الى ان شرطة بغداد وولاياتها كانت بيدهم^(١) . وقد رفع المنصب
الأخير من قدرهم كثيراً حتى ان محمداً لعب دوراً هاماً في النزاع بين
المستعين والمعتز (٢٥١ هـ / ٨٥٦ م) . وقد وافق دور قوتهم وسيطرتهم
(زمن عبدالله بن طاهر) عهد قوة الخلافة ، كما كان دور ضعفهم وانحطاطهم
موافقاً لدور تضعف الخلافة .

وقد حملت الظروف بني طاهر على التعاون مع الخلافة احياناً فلما ادعى
محمد بن القاسم العلوي الامامة في خراسان ، طارده عبدالله وأسرته وأرسله
الى المعتصم سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م . ولما ثار المازيار بن قارن في طبرستان
تعاون المعتصم وعبدالله بن طاهر على ضربه . ولاننسى ان كون الطاهريين
سنة جعل مصالحهم الدينية تتفق ومصالح العباسيين . ففي مقاومتهم
المستمرة للعلويين في طبرستان وللخوارج في سجستان كانوا يخدمون
القضية العباسية وقضيتهم في آن واحد لأن القضاء على حركات الدينية
في بلادهم كان ضرورة سياسية . هذا الى ان العباسيين كانوا يقدرون
خدمات الطاهريين و يقر بونهم . فنجدهم على الأكثر يأخذون جانبهم
في النزاع مع الصفارين و يبقون شرطة بغداد في ايديهم (على الاغلب)
حتى سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م .

(٢) كان محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بين ٢٣٧ و ٢٥٣ .

وفي الاخير نقول ان الطاهريين رغم تمتعهم بحكم ولاياتهم
بشكل وراثي واستقرار مركزهم الا انه لا يمكن اعتبارهم مستقلين تماماً
عن بغداد .

أهم المراجع

- Barthold - Turkestan p. 207 - 9, p. 210-13.
Siddiqi - Caliphate and kingship in Medieval persia.
Islamic culture 1935 p. 571 et seq.
E.I. - Tahirids (Barthold); Tahir b. al-Husain (Barthold).
Abdullah b. Tahir (Zittersteen)
Lane-poole - Muhammadan Dynasties p. 128.

أهم المصادر :

الطبري . ابن حلكان . ابن خرداذبه . قدامة . اليعقوبي
ابن طيفور .

ب - الصفارون

— ١ —

كانت سجستان ولاية تابعة للطاهريين ، وكان سكانها شديدي
الشكيمة مما ساعد على انتشار المذهب الخارجي بينهم . ولم يستطع
الطاهريون اخضاعهم بل على العكس ازدادت فعاليتهم بضعف هؤلاء .
وأصبح الخوارج مصدراً للفوضى والاضطراب في البلاد . فتشكلت
فرق من المتطوعة لحماية السكان من عبثهم ومن بين صفوف المتطوعة
هذه ظهرت السلالة الصفارية .

كان يعقوب بن الليث (بن معدل) واخوته من بلدة (قرنين) على
فرسخ من (زرنج) عاصمة سجستان . وكان يعقوب يشتغل عند أحد الصغارين
كصانع ليس غير وبأجرة قدرها (١٥) درهماً في الشهر . أما اخوه عمرو
فكان نجاراً او مكاراً . ثم انخرطوا في سلك المتطوعة واستطاعوا جمع
بعض الاتباع حولهم وحسبك أن تعلم انهم اشتركوا في احدي فرق
« الغزاة » وعلى رأسها درهم بن نصر بن صالح .

وقد اقلق الغزاة والي سجستان حتى اضطر لانخلي عنها . فصار درهم
الحاكم الحقيقي ، وعين يعقوب حاكماً (لبست) ، ولكن مآثر هذا
وشخصيته غطت على درهم بنظر الجبش ، فنخلى له عن الرئاسة (الاحد
٦ محرم ٢٤٧ هـ / ٢٢ / ٥ مارت (٨٦ م) .

وطد يعقوب نفوذه في سجستان واخضع الخوارج ونشر الامن
والسلام في البلاد لغمان للمواصلات والاستقرار . ثم بسط نفوذه على وادي
كابل والسند ومكران وأخير أفتح (سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م) ديرات وبوشنج .
ثم استولى على كرمان سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م وقد كان المعز اعطاها له ولواله
فارس (علي بن حسن) في نفس الوقت ليوقع الخصومة بينهما . فدحر
يعقوب خصمه وأخذ فارس (مؤقتاً) بالاضافة الى كرمان . وارسل الى
الخليفة بعض الهدايا مؤكداً ولائه .

وفي مارت سنة ٢٥٧ هـ | ٨٧١ م ارسل يعقوب وفداً الى الخليفة

مع بعض الهدايا للمفاوضة على بعض الولايات . وكان الموفق يود تشجيع يعقوب للتوسع شرقاً مستهدفاً ابعاده عن جواره . فلما اراد يعقوب سنة ٨٧١ م فتح فارس من جديد وصلته رسالة بتوليته على بلخ والاراضي الشرقية حتى الهند بالاضافة الى كرمان وسجستان . وفعلا ضم يعقوب (ان لم يكن فعل ذلك من قبل) ولاية بلخ واستولى على غزنه و كابل . ولما لاحظ ضعف محمد بن طاهر ، قرر فتح خراسان ، ولم يعد حجة لذلك . إذ ادعى ان محمداً بن طاهر الجأ احد اعدائه . فدخل نيسابور في ٢٠ آب سنة ٨٧٣ م / ٢٦٠ هـ واسر محمداً بن طاهر .

ويعطي غرديزي رواية ممتدة عن المفاوضة بين محمد وبين يعقوب قبل فتح نيسابور ، اذ كتب محمداً الى خصمه ، ان اتيت بعهد من الخليفة فاطمه . لاسلم البلاد اليك ، والا فارجم . فانتضى يعقوب سيفه من تحت سجادته وقال : « هذا عهدي وهذا الوأى » . ثم كتب للخليفة مبيناً انه انما فعل ذلك لطاب الخراسانيين ، لانهم ملوا الفوضى الناتجة عن ضعف محمد . وكرض لولائه للخلافة ارسل رأس خارجي تمكن مدة ثلاثين سنة ان يدعو نفسه امير المؤمنين (بجوار هيرات) . وفي السنة التالية دحر الحسن بن زيد امير طبرستان قرب (سارى) ولكنه لم يستطع فتح المنطقة لبرودة ولصعوبة المواصلات واعقب هذا بيعت رسالة الى الخليفة مبيناً له فيها انه كسر الخارجيين من العلويين وانه اسر ستين من آل علي .

(٣) ولكن نفوذ الطاهريين كان قوياً في بغداد ، مما جعل

الخليفة ينجاز الى جانب محمد بن طاهر . ففي سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م جمع
حجاج الولايات الشرقية وقرأ عليهم منشوراً صرح فيه بان يعقوب
مغتصب وخارج على الدولة . فما كان هذا التصريح الا ليحث الصفار
على الاستمرار في مشاريعه . فسار الى فارس (صيف سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م)
وهزم واليها ثم تقدم الى الاهواز ، ودخل (رامهرمز) فاضطربت بغداد
وحاولت استرضاءه بمختلف الوسائل . فدعى الموفق تجار الولايات
الشرقية وتلا عليهم عهد تولية يعقوب على خراسان وطبرستان وجرجان
والري وفارس وشرطة بغداد . وارسل اليه سفارته . ولكن يعقوب الذي
فقد كل احترام واجلال للخليفة رفض طلب الخليفة واجاب بكل وقاحة
انه سيقدر في بغداد نفسها ما يريد .

تقدم يعقوب في منظمة ميسان ، فقابله الموفق (يصحبه الخليفة
وعليه بردة الرسول وفي يده القضيبة) عند دير العاقول (٥٠ ميلاً من
بغداد) ودارت على يعقوب الدائرة . (الاحد ٢١ رجب ٢٦٢ هـ ٨
نيسان ٨٧٦ م) وانفذ محمد بن طاهر من الاسر ، وعين من جديد والياً
على خراسان ولسكنها كانت ولاية صورية فلم يترك ابن طاهر بغداد .
انسحب يعقوب الى جند يسابور ولسكنه تردد في الهجوم ثانية .
وحاول الموفق التفاهم معه لانه كان مهتداً من قبل الزنج . فرفض يعقوب .
ومات يوم ١٥ شوال سنة ٢٦٥ هـ / ٩ حزيران ٨٧٩ م بعد ان نجح في
تثبيت سلطانه في جنوب ايران فقط .

كان يعقوب جذبياً قديراً ، ذا شخصية جبارة ، محبوباً من

جنده ولم يحاول اختلاق الحيل الشرعية لتبرير اعماله ، بل اعتبر السيف
أساس حقه . ووجه جل اهتمامه لتكوين جيش مطيع له ، والحصول على
المال الضروري لاتمام حروبه . فاثقل ولاياته بالضرائب ، ولجأ احياناً
الى مصادرة أموال بعض المترين .

وكان يقرر الامور بنفسه ، ولكنه لم يظهر مقدرة في الادارة إذ لم
يربط ولاياته بنظام موحد . وبقي في حياته الخاصة جندياً بسيط الذوق
يرتدي ملابس القطن ويجاس على الأرض وينام ورأسه على الدرع، إلا انه
كان يظهر الابهة في الحفلات .

أما ميوله فليست واضحة . فمن المؤرخين (القزويني ونظام الملك)
من يعتبره شيعياً . ولكن يظهر انه جمع حوله كل المتدمرين من
الطبقات الواطنة .

— ٤ —

بايع الجند لعمر و (٢٦٥ — ٥٢٨٧ / ٨٢٩ — ٩٠٠ م) بعد
اخيه فجرح للسلم مراعاة للظروف ، وصالح الخليفة . فعين والياً على خراسان
وفارس ، واصفهان ، وسجستان ، وكرمان والسند وحاكماً عسكرياً
لبغداد وسامراء . وبذلك اصبح الحاكم الشرعي (بنظر الفقهاء والمتطوعة)
لهذه الولايات^(١) وتمكن من اخضاع فارس سنة ٨٨١ وخراسان سنة ٨٨٢

(١) وهناك ما يدل على انه حاول التفاهم مع الطاهريين . فبين عبيد الله
بن عبد الله بن ظاهر ائباً عنه في بغداد . ولكن احد الثوار في خراسان فتح
نيسابور سنة ٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م ودعا لارجاع الطاهريين اصحاب الحق الشرعي
وخطب باسمهم فاقسه هذا علاقة عمرو بالطاهريين .

بعد القضاء على الثورات فيها .

ثم ساءت علاقته ببغداد . إذ اراد الموفق . (بعد ضرب الزنج)
استرجاع فارس وفاوض عمرو في ذلك ولكن دون جدوى . وفي سنة
٢٧١ هـ / ٨٨٥ م جمع المعتمد حجاج خراسان وقرأ عليهم كتاباً باقالة
عمرو من ولايته ثم أمر بلعنه على المنابر . وبعد سنتين فتح الموفق فارس وهزم
عمرو بن الليث . ولكن الموفق كان يعرف قوة الصفارين . فعاد توليته
سنة ٨٨٩ على كل ولاياته (حتى فارس) ثم نجاه عن منصبه في شباط
سنة ٢٧٦ هـ / ٨٩٠ م .

• جاء المعتضد سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م الى الحكم فاعترف بعمرو نهائياً .
حاكماً شرعياً لخراسان . وارسل اليه العهد مع لواء اظهره عمرو في صحن
داره بنيسابور ثلاثة ايام ليراه الناس .

— ٥ —

وطمع عمرو في بلاد ما وراء النهر ، وانكن مركز السامانيين فيها
كان قوياً . أما الخليفة فاضطر بطلب من عمرو ان يقرأ على الحجاج
الخراسانيين (شباط سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م) بياناً بعزل اسماعيل بن احمد
الساماني عن ما وراء النهر وتولية عمرو محله . ثم ارسل رسولا يحمل الهدايا
والعهد الى نيسابور . فلما وضع العهد بين يدي عمرو قال : « ما هذا ؟ »
فقال الرسول « هذا الذي سألته » فقال عمرو « وما اصنع به ، فان اسماعيل
بن احمد لا يسلم الى ذلك الا بمائة الف سيف ! » فقال « انت سألته

فشمر الآن لتتولي العمل في ناحيته»

وفي ربيع سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م حطم جيش عمرو قرب بلدخ ،
وأسر عمرو نفسه ثم أرسل الى بغداد ، فسر الخليفة بذلك . ثم قتل
(نيسان سنة ٩٠٢) والخليفة على فراش الموت . ولعل حكومة بغداد
كانت تشجع اسماعيل سرّاً على المقاومة .

— ٦ —

كانت سلطة عمرو تستند الى السيف . ولذا اهتم بضمّان الموارد
الكافية لحكومته . وكانت عنده ثلاثة بيوت للاموال : الاول وارده
من الخراج والضرائب الاخرى ومنه نفقات الجيش . والثاني وارده من
الضياع والاملاك الخاصة ومنه تصرف نفقات البلاط . أما الثالث
فوارده من المكوس والاحداث والمصادرات ، ومنه كانت تدفع الهدايا
للمخلصين المقربين . وقد ضبط رعيته بواسطة نظام الجاسوسية القوي
الذي كان يتبعه .

— ٧ —

طبق الصفارون مبادئ العدل والمساواة بين اتباعهم ، فأدى
ذلك الى تأييد الطبقات الفقيرة في سجستان لهم . كما أرضى كبرياء
السجستانيين القومي كون الزعيم من بينهم .

ودعا الصفارون للخليفة ، لقوة نفوذه الديني ، وطلبوا جلب رضاه
الجماهير . فنجد مثلاً ان العلماء والمتطوعة لم يعترفوا بشرعية ولاية عمرو

الاربعاء وصول عهد الخليفة اليه . لذا استمر الصفارون يذكرون اسم
الخليفة في الخطبة وحلى النقود حتى بعد قطع علاقتهم ببغداد .

ومع ذلك حاول الصفارون تحديد سلطة الخليفة ، رغم كونها
اسمية . فكان يعقوب اول من ادخل اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ،
وعمره اول من نقش اسمه على الدنانير (بينما حرم الطاهريون من ذلك)
• ويظهر انهم لم يدفعوا جزية منتظمة للخلافة .

والصفارون اول من هاجم سلطة العباسيين في ايران ، وحاول
انقاص سلطتهم الدنيوية الى ادنى حد . ومع ان عمراً ويعقوب لم يحققا كل
مطامحهما إلا انها نجحا في التأكيد على حق الامراء التابعين ليشاركوا الخليفة
في شأري السلطان - الخطبة والسكة . وانشأوا سنة عدم دفع جزية منتظمة
لحكومة بغداد . وما أخذوه غصباً سمحت به الخلافة طوعاً لمن أتى بعدهم .
كان الصفارون سنة ، ولهذا كانوا حلفاء بغداد الطبيعيين ضد العلويين
والخوارج .

أهم المراجع

Bartholdy - turkestan

Siddiqi - Caliphate and Kingship in Medieval Persia .
I. C. 1936. P. 97 off.

Noldeke - Sketches from Eastern History.

E. I. - Art "Saffarids"

Lane-pool : Muhammadan Dynasties .

الطبري ، المنتظم لابن الجوزي ، ابن خلدون .

السامانيون

٢٦١ — ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ — ٩٩٩ م

— ١

اصلهم من عائلة زردشتية نبيلة في بلخ . اسلم جدهم (سامان خدات) على يد الوالي الاموي اسد بن عبد الله القسري وسمي ابنه اسداً . وقد سطع نجم ابناء اسد في خلافة المأمون ، فعينهم والي خراسان غسان بن عباد (٨١٩ — ٨٢١) — حسب رغبة الخليفة لبعض الولايات . فكان نوح على سمرقند واحمد على فرغانه ، ويحيى على الشاش والياس على هيرات . ثم توفي الياس ففقدوا هيرات ، ولكنهم حافظوا على سلطنتهم في ما وراء النهر .

وعمر أحمد أكثر الاخوة فصار اليه حكم سمرقند وفرغانه والشاش وقسماً من الصغد وبعض المدن التركية (سنة ٨٥٥ م) . وبوفاته سنة ٨٦٤ م أصبح ابنه نصر رئيساً للعائلة واتخذ سمرقند مركزاً له .

وفي سنة ٨٧٤ م غم السامانيون بخارا إذ اضطرب فيها الوضع وصارت غرضاً للطامعين فدعا اهلها نصر الساماني ، فارسل اخاه اسماعيل واسند اليه حكمها بالنيابة عنه (٢٥ حزيران ٨٧٤) . وفي السنة التالية (٨٧٥) حصل نصر على عهد من الخليفة المعتمد بولاية ما وراء النهر بكاملها .

واستطاع اسماعيل ان يقضي على عصابات اللصوص التي كانت

تتشكل من الفلاحين المتدربين ، وان يسترضي النبلاء دون ان يعتمد عليهم . فلما قوي مركزه دب الشك في تصرفاته الى اخيه نصر وأدى ذلك اخيراً الى نزاع طويل انتهى سنة ٨٨٨م بأسر نصر ، فعامله اسماعيل بكل احترام وخاطبه كرئيس لا كأسير ثم رجع الى سمرقند وبقي يحكمها كرئيس اسمي للعائلة حتى وافته المنية في ٢١ آب ٨٩٢ .

— ٢ —

ولما توفي نصر اوصى ان يخلفه اخوه اسماعيل . وفي السنة التالية جاء عهد الخليفة بتولية هذا على بلاد ما وراء النهر . وفي نفس الوقت قضى اسماعيل على امارة اشروسنه وضمها الى ولايته . واصبحت خراسان ولاية تابعة له بعد ان قضى على عمرو بن الليث . ثم هزم محمد بن زبد الدلوي في طبرستان وأستولى على بلاده .

— ٣ —

لم يظهر بعد اسماعيل أمير قدير ، ولكن متانة الادارة السامانية ، وتوطد حكمهم في ما وراء النهر خاصة ، مكثهم من المحافظة على ملكهم مدة مائة سنة .

ومما يسترعي الانتباه قبل انحلال سلطان السامانيين ، ان نصرا (اثاني) حفيد احمد اتهم بمبول اسماعيلية ، فاضطر لان يتنازل تجاه مؤامرة الحرس ضده لأبنه نوح سنة ٩٤٣م . ومنذ ولاية نوح أخذت بوادر الانحلال تظهر في الاسرة السامانية واخذ نجمهم بالافول ، لضعف الامراء

ولتعاظم نفوذ الجرس التركي (الذي اكثرت منه السامانيون فصاروا يتلاعبون بالامراء ويتدخلون بالسياسة، واسقطوا هيبة الوزارة واهميتها) لاختلال الادارة واضطراب الامور المالية حتى أصبحت الخزينة تشكو الافلاس المزمن .

وتقلص حكم السامانيين بتأثير الثورات الداخلية التي كان لمطامع الحرس التركي اليد الطولى فيها ، وازدهور البويهيين في الغرب والقرخانيين (الذين تزعموا القبائل التركية بين فرغانة وحدود الصين) في الشرق وانشأ الب تكيين - أحد بقوا - السامانيين - امارة مستقلة في غزنة سنة ٩٦٢م . وفي سنة ٩٧٧ أصبح سبكتكين (مرلى الب تكيين) أمير غزنة . وظهر سبكتكين ولاءه للسامانيين ، ولذا اخذوا يستعينون به في اخماد الثورات الداخلية . وعندما أخذ ثورة خطرة سنة ٩٩٤ عينوا ابنه محمود آلولاية خراسان .

الا ان الخطر العظيم كان من جانب القرخانيين الذين هاجموا اراضي السامانيين سنة ٩٩٦ ، فاستنجد هؤلاء بسبكتكين ، ووفق هذا الامير الى عقد صلح مع القرخانيين على ان تكون سهول قطوان هي المنطقة الفاصلة بين املاك الاثنين . وكنتيجة لهذه النجدة صار لسبكتكين نفوذ عظيم ، وانتقلت جميع الاراضي جنوب نهر جيحون الى يده دون ان يكون للسامانيين نفوذ فيها .

ومع ان السامانيين هاجموا خراسان بعد وفاة سبكتكين (سنة

(٩٩٧) حين انشغال محمود بشؤون غزنه ، إلا ان هذا استغل خيانة الجيش الساماني لأميره ، فحمل على الجيش الساماني ودحره في مايس سنة ٩٩٩ وفتح خراسان .

وأخيراً دخل الترك القرخانيون بخارى في ٢٣ تشرين الأول سنة ٩٩٩ وقضوا على السامانيين .

— ٤ —

ومن المهم ان نتعرف على العلاقة بين الخليفة والسامانيين في الفترة التي سبقت فتح البويهيين للعراق (سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥) . فليس هناك ما يدل على ان السامانيين دفعوا جزية منتظمة للخليفة منذ انتصارهم على عمرو . وهذا يظهر اُ كيداً سنة ٣٠٦ هـ من خلو قائمة عني بن عيسى من أية اشارة الى وارد من خراسان وما وراء النهر .

ومنح الخليفة السامانيين حق ذكر اسمهم في الخطبة كما نقش هؤلاء الامراء اسماءهم على الدنانير بجانب اسم الخليفة (وهذا رمز الاستقلال السياسي) .

ولما كان السامانيون على المذهب السني ، كانوا بحاجة الى عهود تولية من الخلفاء كي يصبح حكمهم شرعياً بت نظر الناس . فكان الخليفة مصدر السلطة شرعياً ولكن السامانيين كانوا اصحاب السلطة عملياً . فلم تكن للخليفة يد في تولية الامراء وعزلهم .

وكانت عهود التولية تحتوي على كثير من الواجبات الدينية

والسياسية التي يوصي الخليفة الامراء بتنفيذها^(١) فكان ينتظر من السامانيين مثلاً ضرب اهل البدع ، واعلان الجهاد وتسهيل امور الحج . ولما دخل الترك بلاد ماوراء النهر سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م أعلن اسماعيل الجهاد ضدهم ، وتمكن بواسطة المتطوعة من القضاء عليهم تقريباً ، وأرسل يبشر الخليفة بذلك . ولا شك ان وقوف السامانيين ضد المذاهب غير السنية كان في مصلحتهم السياسية . ولهذا طارد نوح بن نصر الثاني الاسماعيلية في مملكته واضطهد انصارها وصادر املاكهم وقمع حركتهم الظاهرة .

كانت علاقة السامانيين بالخليفة حسنة ، أساسها التفاهم والثقة المتبادلة . حتى ان الوزير علي بن عيسى اقترح على المقتدر الذهاب الى خراسان عندما هدد القرامطة بغداد .

— ٥ —

ولكون السامانيين من النبلاء لم يستطيعوا تمثيل النزعات الشعبية كما مثلها ابو مسلم . ولكنهم كانوا يهتمون بحماية الزراع والفلاحين من ارهاق النبلاء الاقطاعيين ليضمنوا السلام والرفاه في البلاد وليوطنوا حكمهم . وهذا يمكن اعتباره حكماً « مستبداً عادلاً » في وقت واحد . ويمكن ارجاع مبدأ النهضة الفارسية الفعلي الى هذا الدور . فقد

(١) راجع رسائل الصابي

ادعى السامانيون انهم من نسل (بهرام جوبين) الزعيم الساساني الذي هرب الى الترك سنة ٥٩١ م . وكانت اللغة الفارسية هي الرسمية في عهد معظم امراءهم . وافق العلماء بجواز الصلاة باللغة الفارسية . وشجع السامانيون الشعراء الفرس حتى ان بعضهم صرح بأراء لا تتفق وروح الاسلام فالشاعر الرودي السمرقندي يقول : « لا معنى لتولية الوجه نحو القبلة والقلب منجذب الى القدسية المجوسية » . وصرح (الدقيقي) - الذي كان أول من حاول نظم الاساطير الايرانية - بعلاقته بالزرادشية فيقول : « اختار اربعة اشياء من كل الخير والشر في الدنيا : شفة (الحبيب) بلون الياقوت ، وزمزمة العود ، والخرقة القانية ، ودين زرادشت » . وفي زمنهم ترجم تفسير الطبري الى الفارسية .

اهم المراجع .

Barthoid - Turkestan

Siddiqi - Caliphatic and king ship I. C. 1936 p. 103
off.

Lane-pool = muhammadan Dynasties

انظر سلسلة الامراء : ص ١٣٢ و ١٣٣ .

E. I. - Art. "Samanids."

E. G. Browne- A Literary History of persia Vol I.

الطبري . ابن الاثير . رسائل الصابي . مسكوبه . بارتولد - الحضارة

الاسلامية .

الاسماعيلية والقرامطة

— ١ —

زلزل العالم الاسلامي بحركة متشعبة النواحي — دينية ، اجتماعية ، فلسفية ، سياسية هددت اسس حضارته ولعبت دوراً مهماً في تاريخه . تلك هي الحركة الاسماعيلية التي بدأت في القرن الثاني للهجرة بتمازج عدة فرق من الغلاة . ولعل بعضها كان من أصل فارسي ، كما ان فيها اصولاً سريانية وغنوصية .

على ان الحركة الاسماعيلية لم تتخذ شكلاً واحداً ، ولا اقتضرت على اسم معين ، بل ظهرت باشكال وصور متعددة في نظرياتها وتنظيماتها . فكانت دائبة على ضم فرق جديدة الى صفوفها ، وازافة آراء جديدة الى مذهبها . وزيادة على ذلك كانت تتجزء الى شعب متناحرة في الغالب . وقد استطاعت ان تنظم وتوجه السخط الاجتماعي والديني في البلاد الاسلامية باتخاذها حق العلويين الشرعي في الحكم وسيلة للدعاية السياسية ، وبمزجها الداخلي لمبادئ من جميع الاديان والفلسفات ، مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني ، وباستغلالها التدمير الاجتماعي ، والاقتصادي ، وبتنظيماتها الدقيقة كجزء أساسي من فعاليتها^(١) .

ولاشك في ان وضع الخلافة كان مساعداً على انتشار هذه الحركة
فهناك ضعف العباسيين السياسي وتقلص سلطتهم ، الى جانب خيبة أمل
الناس فيهم لأن حكمهم لم يحقق السعادة والسلام الموعودين . وهناك تدمير
الطوائف من العناصر غير العربية من حكم العرب ومن سيادة دينهم
ومحاولتها التخلص من الكابوس الاجنبي السياسي الروحي . وهناك
انتشار الفلسفة اليونانية التي قوت الشك وفتحت باباً لمقاومة الدين
وهناك قلة ثقافة الطبقة العامة وتسرب الخرافات اليهم مما سهل عليهم قبول
أي مبدأ . وهناك التبدل الاقتصادي الجديد الناتج عن انتقال المجتمع
من طور زراعي الى تجاري ، والذي أدى الى الاتحاد بين مصالح الاغنياء
العرب وغيرهم من جهة وبين مصالح الفقراء من موالي وعرب على اساس
اقتصادي . وهناك بذور الغلو التي لعبت دورها في الدعوة العباسية ،
ولكن حيويتها الكامنة اكتسبت شكلاً واتجاهاً جديدين عن طريق
خبرتها المكتسبة من صلتها بالمجتمع ومن فشلها المتكرر منذ مجيء
العباسيين (١) .

ادرك رجال الحركة هذه الظروف فاستغلوها بشكل عجيب
وسنقتصر في بحثنا هذا على عرض موجز للحركة ، مراعين في ذلك تبيان
بعض مظاهرها الهامة .

ترجع بذور الحركة الى الغلو ، والى بيئة الكوفة التي التقت فيها

المذاهب من كل نوع . والغلو كان يحمل في ثناياه الثورة الاجتماعية ، فهو ستار كل ساخط وتحت لوائه انضم كل متبدم بالمجتمع القائم وبنظامه^(١) . ومع ان يصعب تحديد مبدأ لهذه الحركة ، ومع شعورنا بانها متممة للحركات الثورية السابقة كالحركة الخرمية ، وانها نتيجة تظافر تيارات وظروف اجتماعية معقدة ، الا اننا نلاحظ ان اولياتها ظهرت في حياة جعفر الصادق وفي الكوفة . وتجمع اكثر المصادر على ان ابا الخطاب كان اول منظم لحركة لها صفة باطنية واضحة .

كان ابو الخطاب من اتباع الصادق ، ثم غلا في ادعائه ، فنسب الى الصادق قوى آلهية ، وأدعى النبوة وانه خليفة الصادق . وبشر بمباديء غريبة كالاباحة والتنوير (او تكرار الحلول) . واليه ينسب المبدأ الاسماعيلي في الامام الناطق والصامت^(٢) . وقال بالتأويل فلا غرو ان تبرأ الصادق منه . ولاكنه نجح في تكوين فرقة تسمى الخطابية ومركزها الكوفة . وقد قتل في سنة ١٣٨ / ٧٥٥^(٣) .

ويؤكد كثير من المصادر على الصلة بين الخطابية والاسماعيلية في تبين ان ميمون القداح واتباعه هم تلاميذ ابي الخطاب ، وان حركة

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ١٨ - ١٩ ، وص ١٥

(٢) البغدادي ص ٢٣٦ ، الاشعري - مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٠ ، Casanova - Lo Doctrine Secrete des Fatimides d' Egypte, p. 19, n. 1. Coiro 1910.

(٣) Lewis p. 32-3 ، الكشي - معرفة الرجال ص ١٨٨ وما بعده ، النوبختي - فرق الشيعة ص ٦٩ - ٧١ ، الشهرستاني ص ١٣٦ .

ميمون وابنه عبدالله (واليهما ينسب تكوين الحركة الاسماعيلية) هي الحركة الخطابية نفسها. وتعترف كتب الاسماعيلية الاولى و بعض كتب النصيرية بدور ابي الخطاب وتعتبره منسئ المذهب الاسماعيلي (١).

وقد تبرأ جعفر الصادق من ابنه اسماعيل كما تبرأ من ابي الخطاب ، ويروى انه فعل ذلك لاستهتار اسماعيل بالشراب . ولكن هناك ما يشير الى سبب اخطر من ذلك وهو وجود صلة بين اسماعيل والخطابية . روى الكشي ان الصادق قال للمفضل بن عمر الجعفي ، وهو خطابي : « يا كافر يا مشرك مالك ولا بني يعني اسماعيل بن جعفر . وكان منقطعاً اليه يقول فيه مع الخطابية » . وقال الصادق لاسماعيل « ايت الفضل وقل له يا كافر يا مشرك . ما تريد الى ابني ؟ تريد ان تقتله ؟ » (٢) ومن هذا نرى وجود صلة قوية بين اسماعيل ودوائر الغلاة الثوريين وان اباه تبرأ منه لهذه العلاقة . ويؤيد ذلك الصلة الوثيقة بين محمد بن اسماعيل وميمون القداح وابنه عبدالله والأخيران من اتباع ابي الخطاب . وتوفي اسماعيل قبل والده بعد ان التفت حوله جماعة من الاتباع . ثم انقسم اتباع اسماعيل بعد وفاة الصادق (سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م) الى طائفتين :

آ — فرقة قالت بامامة اسماعيل بن جعفر بعد ابيه « وانكرت موت اسماعيل في حياة ابيه وقالوا كان ذلك على جهة التلميس من ابيه على الناس

لانه خاف فغيبه عنهم .. وانه هو القائم .. وهذه الفرقة هي الاسماعيلية
الخالصة » .

ب — فرقة قالت بامامة محمد بن اسماعيل بهد والده « ولا يجوز
غير ذلك لانها (الامامة) لا تنتقل من اخ الى اخ » . وهذه تدعى المباركية
نسبة الى المبارك مولى اسماعيل . واليهم انضم قسم من الخطابية . ومن
هذه الفرقة تشعب القرامطة .^(١)

ويذكر المجلسي فرقة ثالثة من الاسماعيلية تقول بأن الصادق
عهد بالامامة الى محمد ابن اسماعيل رأساً . وهو يتفق مع النوبختي في ان
القرامطة من المباركية .^(٢) ويبين الامام الزيدي المتوكلي (٥٣٢ - ٥٦٦ هـ)
ان الاسماعيلية يتكونون من الخطابية والمباركية^(٣) .

ومن هذا تظهر اهمية المبارك . فاليه ينسب تنظيم الفرقة الاسماعيلية
واجتماعها حول محمد بن اسماعيل . وهذه الفرقة باستيعابها القسم الاكبر من
الخطابية والفرق الاسماعيلية الاخرى كونت الحركة الاسماعيلية الكبرى
التي قامت بدور مهم في التاريخ الاسلامي .^(٤)

وينسب الدور الاكبر في تنظيم الحركة الاسماعيلية وفي وضع
مبادئها الى عبدالله بن ميمون القداح . وهو ذو شخصية احاطتها الروايات
بضباب من الاضطراب والابهام .

(١) النوبختي - فرق الشيعة ص ٦٨ - ٧٢ . (٢) المجلسي - بحار الانوار

ج ٩ ص ١٧٥ . (٣) انظر Lewis p. 41 . (٤) نفس المصدر والصفحة .

يخبرنا ابن رزام^(١) بان عبدالله القداح كان واسع الاطلاع في جميع المذاهب والاديان وانه ادعى معرفة الغيب واستعمل الحمام لنقل الاخبار بسرعة . كما انه وضع نظام التنشئة على سبع درجات في الدعوة . اما اصله فمن (قورج العباس) في الاهواز ، ولكنه سكن (عسكر مكرم) فخرج منها الى ساباط ابي نوح وفيها اكتشف الناس زيف ادعائه . واخرجه الشيعة والمعتزلة الى البصرة حيث التجأ الى عقيل ابن ابي طالب ودعا لمحمد بن اسماعيل . وكان يصحبه في طريقه الى البصرة احد رجاله وهو الحسين الاهوازي . ثم طارده الحكومة في البصرة فهرب مع الاهوازي الى (سامية) وبقى مختفياً فيها حتى وفاته . وكان يرسل الدعاة من محبته الى العراق لبث دعوته واقتفى اولاده اثره في توجيه الدعوة بعد وفاته حتى نجح أحدهم في انشاء الدولة الفاطمية في شمالي افريقية . ويؤكد مؤرخو العرب وبعض المتشرقين (مثل De sacy , De Goerje) وجود دافع سياسي لدى عبدالله بن ميمون وهو رغبته في القضاء على سلطان العرب وعلى الدين الاسلامي الذي جلب اليهم تلك السلطة وارجاع مجدايران مرة ثانية^(٢) .

(١) نجد روايته في الفهرست والاتعاظ للمقرزي ، والنويري وقد كتب ابن رزام حوالي ٣٦٥ هـ . ويرى ماسنيون ان المؤرخين الذين وضعوا نظرية السنة عن القرامطة والفاطميين هما محمد بن رزام الطائي (صاحب ديوان المظالم سنة ٣٢٩ هـ ببغداد) ومحمد اخو محسن بن العابد وهو علوي من دمشق توفي سنة ٣٧٥ . E. I. vol II p. 768 . (٢) بنفرد Browne (ج ١ ص ٧٠٤) بالقول بان العنصر السياسي مبالغ فيه ويرى ان المذهب الاسماعيلي يرجع في اصوله الى مبادئ متأصلة في ايران وات تلك الروح الفارسية في المذهب هي التي اثارته اهتمام عبدالله وليس التعب للفرس .

ويسمى ايفانوف مجموع الروايات عن عبدالله القداح بـ « اسطورة القداح » ويرى انها من اصل متأخر ، ويرجح انها من النصف الثاني للقرن الرابع الهجري وانها من اختراع ان رزام ، ثم انتشرت من كتابه في كل مكان .^(١)

ثم يناقش دور القداح ، ويبين ان عبدالله بن ممون لم يقم بدور ما في الحوادث التاريخية ، وانه وان كان على صلة بالخطابية وبالغلاة الآخرين الا انه لا توجد اية اشارة الى مشار كته لهم في آرائهم او التبشير بآراء أخرى .^(٢) ثم ينفي النظرية التقليدية التي مضمونها ان القداح اراد ان يقوض الاسلام فاستغل الشعور الشيعي عند الجماهير وكون المذهب القرمطي المؤدى الى الاتحاد واستغل اسم اسماعيل بن جعفر في اثاره حركة شعبية قوية نقلت الملك إلى حد احفاده باسم المهدي .^(٣)

ثم يفسر نشوء تلك « الاسطورة » بان العقل في القرون الوسطى لم يكن يفكر بالتطور او بالعمل المجتمع للأجيال ، وانه لم يدرك التدرج المعقد الذي انتج المذهب الاسماعيلي المنظم . ويبين ان المذهب كان وثيق الصلة في شكله وجوهره بنجاح الحركة السياسية وتوسعها وغاياتها السياسية^(٤) . وهكذا ينفي ايفانوف اثر عبدالله بن ممون في الحركة الاسماعيلية ويرى ان الروايات نسبت اليه تطور الحركة خلال اجيال ويخمن وفاته بين

١٦٠ - ١٨٠ هـ

Ibid p. 128 (٢) Ivanov-Rise of The Fatimids p. 172 (١)

Ibid p. XIX-XX (٤) Ibid p. 128-130 (٣)

ومع اني وافق ايفانوف في عدم الاطمئنان الى التطرف والتناقض
الموجود في الروايات بشأن القداح ، وفي لومه للباحثين على اهمال كتب
الاسماعيلية الا اني ارى في رايه تطرفاً وثورة على الروايات التي تؤكد
دور القداح . ولذا اراني اميل الى قبول نتائج لويس في الموضوع بعد ان
ناقش مختلف اصناف الروايات . وقد توصل الويس بشأن القداحين الى
ما يأتي .

كان ميمون وابنه عبدالله من اتباع الصادق المحترمين . وفي
وقت ما اتصل ميمون بالغلاة الذين كان يتزعمهم ابو الخطاب (واسماعيل)
فقام بدور يذكّر في تكوين مباديء تلك الفرقة وتنظيم دعوتها . وبعد
مقتل ابي الخطاب ، صارت اليه الرئاسة ، وقام بتربية محمد بن اسماعيل ،
فنشأه على مذهب الباطن . اما عبدالله بن ميمون فتخرج على والده ،
وتتقف وصار الحجّة بعد وفاته . وقد توفي عبدالله في اوائل القرن الثالث
الهجري . (١)

اذن فقد كان لعبدالله بن ميمون دور مهم في اوائل الدعوة
الاسماعيلية ، وهذا ما جعل المؤرخين - شأنهم كثير من الادوار التاريخية -
ينسبون اليه تطورات ظهرت بعده . ومما ساعد على ذلك ، كما يظهر ،
ان عبدالله اخرج الدعوة من نطاقها الضيق ، وبث لها الدعاة في انحاء
الشرق الادنى ، فاعتقد بعضهم أنه هو مكوّنهم .

٣ - وعلى كل حال ، فقد بدأ المؤرخون بالكتابة عن الحركة الاسماعيلية حين اخذت تهدد الوضع القائم . ويمكن ادراك خطورتها واتساع رقعتها من الفناء نظرة الى فروعها المختلفة . فمن القابها «الاسماعيلية، والباطنية، والقرامطة، والسبعية، والتعليمية» وهذه الاسماء شبه مترادفات تؤكد شعبه او مظهرها للحركة العامة . فالقرامطة الذين روعوا الخلافة في العراق والبحرين في القرن الرابع ، والحركة الاسماعيلية في اليمن ، والحركة الفاطمية في شمالي افريقيا والانسكو بيديين — اخوان الصفا — الذين حاولوا نشر المعارف والفلسفة بشكل مبسطا بين الجماهير والحشاشين المرعبين في سورية وايران في القرنين الخامس والسادس كلهم فروع للحركة نفسها .

ومع انه « كانت لهم دعوة في كل زمان ، ومقالة جديدة بكل لسان »^(١) الا ان ذلك لا يمنع من ان تكون لهم مبادئ عامة مشتركة ، سنكتفي بسرد بعضها مما كان له الأثر الفعال في حركتهم .

فاهمها مبدأ الباطن . وكان له الدور الرئيس في نشر الدعوة بين جماعات مختلفة المذاهب والأديان . فيقول الشهرستاني : « اشهر القابهم الباطنية . وانما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بان لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا »^(٢) . ويقول الديلمي انهم انما لقبوا بالباطنية « لانهم ينسبون لكل ظاهر باطنا ويقولون الظاهر بمنزلة القشور والباطن

(١) الشهرستاني ٢ : ٢٩ . (٢) نفس المصدر .

بتزلة اللب»^(١). أما البغدادي فيقول: « وتأولوا آيات القرآن وسنن
النبي (ع) على موافقة اسامهم »^(٢). ويرى بن الجوزي « انهم ادعوا
لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر ، وانها
توهم الاغبياء صوراً وتفهم الفطناء رموزاً واشارات الى حقائق خفية ،
وان من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر ، ومن ارتقى الى علم
الباطن انحط عنه التكليف واستراح من اعبائه ... قالوا والجهال بذلك
هم المرادون »^(٣) واخيراً يذكر التوبختي انهم « زعموا ان جميع الاشياء
التي فرضها الله تعالى على عباده وسنها نبيه (ص) وأمرها لها ظاهر
وباطن . وان جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة
امثال مضروبة ومحتما معان هي بطونها وعليها العمل وفيها النجاة »^(٤).

وهكذا كانت النصوص المقدسة لا تفقه بمعناها المفهوم (الظاهر) وانما كان
يفهم منها انها رموز الى معان خفية (باطنية) . وان المعنى الظاهر للعبادة
والجهال ، ومن تمسك به لاقى صنوف العذاب والعناء ، ومن ادرك الباطن
لقي السعادة في الدارين وعاش عيشة راضية . ولذلك فيجب تأويل النصوص
ومعرفة دخيلتها لكي تفهم الشرائع فهماً صحيحاً . ويرى مؤرخو الفرق ان
الغرض من التأكيدي على الباطن هو ابطال الشرائع والانسلاخ من الدين^(٥) .
ونحن نرى ان غايتهم الأساسية سياسة اجتماعية ، وان تطبيق طريقة

(١) الديلمي ٢٢ . (٢) البغدادي ٢٦٩ . (٣) ابن الجوزي ٥ : ١١٤

(٤) التوبختي : ٧٥ (٥) ابن الجوزي ٥ : ١١٤ ، الديلمي ٢١ ، البغدادي

التأويل كان خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان
لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة .
والكن الباطن لا يعرفه « إلا قليل من الخواص »^(١) فهذا النفر القليل
يستقى معلوماته عن الباطن من مصدر مقدس واحد « يرجع إليه في جميع
العلوم ولا يلتفت إلى العقل أصلاً » وذلك هو الامام . فـ « للشرائع باطن
لا يعرفه إلا الامام » الذي يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقيقة
كل شيء .^(٢) فالشريعة اذن ، معرفة الامام والاستئناس به مع الباطن .
ولذلك اتفق الاسماعيلية على انه لابد في كل عصر من امام معصوم يرجع
إليه^(٣) « ليهدي الناس إلى سواء السبيل ويجب ان نتذكر ان الامام
لا ينزل عليه وحي ، بل يتلقى علمه عن النبي (ص) لانه خليفته^(٤) .

ويظهر ان الاسماعيلية اكنفوا أول أمرهم بالقول بامامة اسماعيل
وابنه محمد ، ولكن نظرهم تطورت وأصبحت شاملة يتضح فيها اطلاعهم
على الأديان المختلفة ورضيتهم في جمع انصارها تحت رايتهم ، فقد قسموا
تاريخ البشرية إلى حلقات نبوة عددها سبع . إذ قالوا ان « العقل الكلي »
يتجسد بين حين وآخر في شخص نبي (الناطق) وكل نبي يخلفه سبعة أئمة
(الامام = الصامت) ، ارلهم يدعى الاساس وهو الملازم الحميم للناطق
ومستودع علمه ، وكل نبي (أي عند كل تجسد جديد) يعلم الناس

(١) الديلمي ١٧ . (٢) الديلمي ص ٦ . (٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

الحقائق الروحية اللازمة لهدايتهم بشكل اكمل كما يقتضي تطور انهم
البشري . وآخر حلقة نبوة هي دورة محمد بن اسماعيل (القائم) وفيها
ظهر لأول مرة علم الباطن أو حقيقة نواميس الانبياء . فمحمد بن اسماعيل
هو خاتم النبيين (١)

جاء في كتاب اسماعيلي سري « وكان محمد بن اسماعيل متمم الدور
الأول المنتهية اليه غاية الشرائع المحتومة به المشتمل على مراتب حدودها ،
المحيط بعلومهم ، وهو القائم بالقوة صاحب الكشف الأول » وانه « ناسخ
شريعة صاحب الدور السادس (اي محمد) ببيان معانيها .. واظهار
باطنها المبطن فيها » . وقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عن محمد بن
اسماعيل انه « سابع الرسل من آدم . وختم به عالم الطبائع ، وعطل بقيامه
ظاهر شريعة محمد » . ويشرح سيدنا ادريس ذلك قائلاً « عطل بقيامه
ظاهر شريعة محمد لما كان لمعانيها مبدئاً ولا سراها كاشفاً ومجلياً » . (٢)

(١) انظر النوبختي ص ٧٤ ، وبراون ج اص ٤٠٩ . والدورة السادسة :
النبي (الناطق) محمد . الاساس - علي ، يخلفه الحسن ، الحسين ، علي زين العابدين ،
محمد الباقر ، جعفر الصادق ، واسماعيل .
الدورة السابعة : الناطق - محمد بن اسماعيل . والائمة - عبدالله بن محمد ،
احمد بن محمد ، الحسين بن احمد ، علي بن الحسين (القائم) ، المنصور ،
المعز ، العزيز .

اما الدورات السابقة فهي دورات (١) آدم (٢) نوح (٣) ابراهيم (٤)
موسى (٥) عيسى انظر المقرزي ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، وبروان ج اص
٤٠٩ - ٤١٠ عن النويري و Lewis p. 72 .
(٢) زهر المعاني لسيدنا ادريس (٥٨٧٢هـ) في ايفا نوف ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٧ .

والأئمة لا يكونون ظاهرين جميعاً بل يستتر قسم منهم بتأثير الظروف . ولهذا نجد سلسلة من الأئمة المستورين بين محمد بن اسماعيل وبين ظهور الفاطميين .^(١) وإذا كان الامام مستوراً فلا بد ان تكون حجته ودعائه ظاهرين « ليبشروا بدعوته . »^(٢)

ويرى لويس ان هذا الاختفاء مع وجود فكرة الابوة والبنوة الروحية عند الاسماعيلية كان مدعاة لتكون سلسلتين من الأئمة في تلك الفترة (بين بن اسماعيل وعبيدالله المهدي) الأئمة المستودعين والأئمة المستقرين فالامام المستقر هو الامام الحقيقي وله حق نقل الامامة لاولاده . اما الامام المستودع فهو ابن الامام الروحي وحجته وعنده اسرار الامام ، ولكنه لا يحق له نقل الامامة لاولاده . ففي وقت الخطر يجوز للامام (المستقر) ان يفوض لحجته القاب الامامة ووظائفها بينما يبقى هو مستوراً . والغاية من هذا التفويض توجيه الحركة ومعرفة حقيقة الرأي العام دون ان يتعرض المستقر للخطر^(٣) . وعلى ضوء هذه النظرية يرى لويس ان بعض القداحين (من نسل ميمون القداح) قاموا بوظيفة أئمة مستودعين في اوقات الخطر .^(٤) كما ان ذكر وياه واولاده قاموا بالدور نفسه^(٥) .

ولا بأس في ايراد استنتاجه الأخير وهو ان سعيداً عبيدالله المهدي آخر أئمة فترة الخطر وأول الخلفاء الفاطميين كان قداحياً وانه

(١) الشهرستاني ج ٢ ص ٥ (٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٨ (٣)

Lewis p. 50 (٤) نفس المصدر (٥) نفس المصدر ص ٧٣ - ٤

عند وفاته لم يخلفه ابنه بل الإمام المستقر الذي اشتغل سعيد له ، وهو أبو القاسم محمد القائم (من نسل محمد بن اسماعيل ^(١) .

وهنا يجابهننا رد ايقانوف على نظرية لويس ، فهو يؤكد أن المهدي فاطمي وينفي صحة نظرية لويس بانيارده على ثلاثة اسس :

(١) ينتقد لويس على استناده في بناء نظريته الى خطأ في نص نسخة « غاية الموالييد » التي اعتمد عليها ، ودون ان يبين الخطأ يذهب الى الشك في دقة غاية الموالييد فيدعي ان ما فيه هو محاولة للتوفيق بين اسطورة القداح وصحة نسب الفاطميين ^(٢) .

(٢) يلوم لويس على الاعتماد على روايات الدرر والخرافية لتأييد نظريته ، وبراها غير جدرة بالقبول .

(٣) يبين ان فكرة الامام المستقر والمستودع ترجع الى وقت متأخر حين صار انتقال الامامة من الأب الى الابن بصورة ميكانيكية أمراً مقبولاً . ويدعي ان هذا التقسيم الى امام مستقر ومستودع لم تكن اليه حاجة إذ يمكن الاستنتاج غالباً من الكتب الاسماعيلية الاولى بأن المبدأ المتبع هو ان الصغير لا يمكن ان يكون اماماً ^(٣) .

(٦) نفس المصدر ص ٥١ . يستند لويس في نظريته هذه الى كتاب اسماعيلي مهم وهو غاية الموالييد تأليف سيدنا (هكذا) الخطاب . وقد نشر النص الذي اعتمد عليه في ذيل كتابه (ص ١٠٩) كما نشره ايقانوف من مخطوطات اخرى في كتابه Rise of the Fatimids (ص ٣٦-٧ من النصوص العربية) ونظراً لاهمية النص ، فسنقله واضعين نص لويس بحجبا ايقانوف (ص ١٤٠-١٤١ من هذا الكتاب) . (٢) Ibid pp. 45-9 (٣) . Ivanov, op.cit. p. 153

وأخيراً يقول ان كتب الاسماعيلية المذهبية والسرية تجمع
وتؤكد انه لا يمكن ان تنتقل الامامة الى أي شخص ليس من
عترة فاطمة (١)

ولا يمكننا الوقوف ساكتين أمام هذا التضارب . ومع اننا بليتنا
بقلة المراجع (ومن يكلف نفسه عناء البحث في بغداد يقدر ذلك)
الا ان بيان الرأي لازم .

نص ابنانوف

وذلك ما روي عن الامام جعفر
بن محمد الصادق (ع) المصدق
الامين في تسليمه الامر الى
ولده اسماعيل بن جعفر وغيبة
اسماعيل وولده محمد بن اسماعيل
في حد الطفولية ، ولم تكن الامامة
ترجع القهقري منه كما لم ترجع من
غيره . فادع حجته المنصوبة بين
يديه مقامه لولده واقامه ستراً عليه
وقدمه بين يديه واستكفله اياه
الى بلوغه اشده (س) .
فلما بلغ اشده تسلم وديعته ،

نص لوبس

« وذلك ما روي عن الامام
جعفر الصادق (ص) في تسليمه
الامر الى ولده اسماعيل (ص)
وغيبة اسماعيل وولده محمد بن
اسماعيل في حد الطفولة ولم تكن
الامامة ترجع القهقري منه كما لم ترجع
من غيره . فادع حجته المنصوبة
بين يديه ميمون القداح مقامه
لولده واقامه ستراً عليه وقدمه
بين يديه ، واستكفله اياه الى
بلوغه اشده . ولما بلغ اشده تسلم
وديعته ، ثم جرى الامر في عقبه

تتمة نص نص لويسن

خلفاً عن سلف حتى انتهى الأمر
به الى علي بن الحسين بن احمد
بن محمد بن اسماعيل . . . بن علي
ابن ابي طالب . وكان على يديه
طلوع الشمس وذلك انه لما ظن النور
باسقاً باليمن وبلاد المغرب سار
ولي الله في ارضه علي بن الحسين
يريد بلاد المغرب حتى كان في
بعض طريقه من الشام واظهر
الغيبة واستخلف حجته سعيد
الخير الملقب بالمهدي (ع) فثبتت
قواعد الدعوة . . . ولما حضرت
المهدي النقلة سلم الوديعة الى
مستقرها وتسلمها محمد بن علي
القائم بأمر الله وجرت في عقبه
حتى انتهت الامامة الى مستقرها
ومعدنها ، وأطمأنت بموضعها
وموطنها .

تتمة نص ابقانوف

ثم جرى الامر في عقبه خلفاً عن
سلف حتى انتهى الامر به الى علي
ابن الحسين بن احمد بن عبد الله
بن محمد بن اسماعيل
وذلك انه لما ظهر النور باليمن
وببلاد المغرب ، سار ولي الله
في ارضه علي بن الحسين (ص) يريد
بلاد المغرب حتى كان في بعض
طريقه فاظهر الغيبة واستخلف
حجته سعيد الملقب بالمهدي (س)
فثبتت قواعد الدعوة . . . فلما
حضرت المهدي النقلة سلم الوديعة
الى مستقرها وتسلمها محمد بن علي
القائم بأمر الله تعالى وجرت الامامة
في عقبه (س) حتى انتهت الامامة
الى مستقرها ومعدنها واطمأنت
بموضعها .

فأنا ووافق ايفانوف على ان المصادر الدرزية لا يمكن الوثوق بها وانها مملوءة
بالمتناقضات فيما يخص علاقة القداحين بالفاطميين كما ان فيها آراء لم تكن
موجودة في الدعوة الاسماعيلية الاصلية. ^(١) ولكنني مع ذلك لا اطمئن الى مناقشته.
فهو يشير الى خطأ في نص غاية الموالييد الذي اعتمد عليه لويس.

ولكن مقارنة هذا النص بالنص الذي نشره ايفانوف (انظر ص ١٤٠-١٤١ من
هذا الكتاب) تدل على ان المعنى واحد. ثم يناقش ايفانوف كتاب غاية
الموالييد منطوقيا بعد ان يقول انه لا يوجد ما ينفيه او يؤيده ^(٢) فيبدأ بنفي نسبته
الى سيدنا (هكذا) الخطاب (+ ٥٠٣٣هـ) دون ان يبين سبباً تاريخياً ^(٣) بل يذهب
ابعد من ذلك فيحاول نسبته الى سيدنا (هكذا) ادريس (٥٨٧٢هـ/١١٦٨م)
دون تبين سبب ليدعي ان الكتاب كتب في زمن متأخر وبذلك يقلل
من قيمته في معرفة اول الدعوة ولانه يعرف ان سيدنا ادريس في كتابه «زهر
المعاني» أي ما جاء في غاية الموالييد وعندئذ يعتبر الروايتين من وضع شخص
واحد. وواضح ان هذه فرضيات لا يمكن قبولها دون سند. هذا بالاضافة
الى وجود بعض الاختلاف في التفاصيل بين الروايتين ^(٤).

ولذلك فنحن نرى في زهر المعاني تأييداً لفكرة المستقر
والمستودع. فادريس يصرح بان الامام الحسين اقام المهدي اماماً «ستراً»
على ولي الله ولده القائم من بعده» ويعتبر المهدي «حامل أمانة الله ووديعته

(١) انظر Ivanov, op. cit p. 146-155 (٢) Ibid p. 57 (٣)

Ibid p. 56 (٤) قارن النصوص الاسماعيلية في كتاب ايفانوف ص ٣٦ -

ومسلمها الى القائم بأمر الله ولده المنتدب اليه بتعليمه وافادته ^(١) ويقول
لما توطدت قوانين الدعوة الهادية .. بالمهدية .. سلم الامام المهدي بالله الى
وارثه القائم رتبته وأدى اليه وديعته وأمانته ^(٢) .

أما قول ايفانوف بأن فكرة المستقر والمستودع لم تظهر إلا في
وقت متأخر لعدم وجود الحاجة اليها ، ففيه نظر ، فلدينا الآن كتاب
سماعيلي سرري (من النصف الاول للقرن السادس) ^(٣) يتحدث عن
لامام المستقر والمستودع كشيء معروف . كما ان الحاجة في فترة الخطر
فترة الأئمة للمستورين - كانت ماسة الى تفويض اسم الامامة الى
مخص ليمكن سبر قوة الدعوة وتنظيمها دون ان يعرض الامام الاولوي
عنه للخطر .

أما ادعاؤه بان كتب الاسماعيلية تجمع على عدم جواز انتقال
لامامة لغير فاطمي فغير صحيح ، فقد جاء في كتاب اسماعيلي « ان المستقرين
م الأئمة صلوات الله عليهم وأحدأ بعد واحد ومولوداً عقب والد من
ساحب الجثة الابداعية (يعني آدم) الى انقضاء الدين ، لا انقطاع لذلك
بد الدهر . والمستوعون يكونون من الذرية ومن غير الذرية علي قدر
ما توجهه الازمنة وتقتضيه سياسة صاحب وقت كل مستودع من

(١) ايفانوف نصوص ص ٦٧ (٢) نفس المصدر ص ٧١ ٣ مؤلف

الكتاب مجهول واسكنه كتب في خلافة الطيب ٥٢٤-٥٤٤ هـ انظر « اربعة

كتب اسماعيلية » باعثناء شعرومان من غوتنغن ١٩٤٣ ص ١١٥ .

حدود أمة الزمان (س) . « (١) . وهكذا نرى ان مناقشة ايفانوف لا تخلو من الضعف .

ومن هذا تظهر خطورة نظريات الاسماعيلية في الامامة ودورها الهام في تطور الحركة ونجاحها واتجاهها السياسي .

واعل الاسماعيلية ينفردون عن تقدمهم بتبلور فكرة الامام المستور وبالتظيم الدقيق لدعوتهم . ولكن علينا ان نتذكر ان جذور الحركة مغمورة في الغلو ، وانها ظهرت في عصر انتشار الفلسفة اليونانية . فالأثر الفارسي قوي فيها حتى ان الاستاذ براون يعيره الاهمية الكبرى (٢) .

اما المؤرخون المسلمون فيؤكدون اهمية دور « الثنوية والمجوس » في الحركة ويعتبرونهم عنصراً رئيسياً في نشوئها (٣) . فالبغدادي يقول « وذكر اصحاب التواريخ ان الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين اسلافهم » (٤) ويقول أيضاً « لا نجد على ظهر الارض مجوسياً إلا وهو مواد لهم (للباطنية) منتظر لظهورهم على الديار ، يظنون ان اللات يعود اليهم بذلك » (٥) ويتحدث ابن النديم عن زيدان او (دندان) وهو اهوازي بذل المال بسخاء

(١) اربعة كتب اسماعيلية . باعتماد شروتمان . غوتغن ١٩٤٣ ص ١١٥

(٢) براون ج ١ ص ٣١١ و ص ٤٠٧ . ٣ انظر المقرئري ج ٤ ص ١٩ — ٢٠

ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٠ ، الديلمي ص ٥ للدوري . العصر العباسي

الاول ص ٨٣ — ٨٥ . ٤ البغدادي ص ٢٦٩ ، (٥) نفس المصدر

لنشر الدعوة الاسماعيلية (١) فيقول انه كان « متفلسفاً حاذقاً بعلم
النجوم شعوبياً شديداً الغيظ من دولة الاسلام . كان يزعم انه وجد في الحكم
النجمي انتقال دولة الاسلام الى دولة الفرس ودينهم الذي هو المجوسية » (٢)

ويحاول مؤرخوا الفرق اظهار المذهب الاسماعيلي كذهب ثنوي .
فيقول اليعقوبي : « وذكر زعماء الباطنية في كتبهم ان الآله خلق النفس
فالآله هو الأول والنفس هو الثاني وهما مديرا هذا العالم وسموها الأول
والثاني ، وربما سموها العقل والنفس . . وقولهم ان الأول والثاني يدبران
العالم هو بعينه قول المجوس باضافة الحوادث الى صانعين : احدهما قديم
والآخر محدث . إلا ان الباطنية عبرت عن الصانعين الأول والثاني وعبر
المجوس عنها بيزدان واهرمين » (٣)

وقد انقسم الباحثون تجاه هذه المسألة ، فالبعض يقبل نظرية مؤرخي
الفرق (٤) والبعض يرفضها

فماسنيون يعتقد ان رعب السنة لسرعة انتشار المباديء القرظية وتوسعها
في اكثر مراكز الاسلام جعل مؤرخي الفرق يرون فيها حركة معادية
للإسلام ، ناشئة عن دين اجنبي — المزدائية ، المزدكية (خرمية) ،
المانوية — وعن عداة عنصري كحركة ايرانية ضد العرب (٥)

(١) انظر Lewis. p. 69 - 71 (٢) ابن النديم ص ٢٧٦ (٣) اليعقوبي

ص ٤٦٩ (٤) مثل دي ساي ، ودي خوية وكيارد (٥) vol II. p. 770

. Massignon, E. I.

ويرى ايفانوف ان الحركة الاسماعيلية هي نتيجة تطور منطقي مستقيم لمباني الاسلام الاولي^(١). وانها تمثل تدمير الناس ضد العباسيين والكره الشديد لعائلتهم^(٢) وانها كانت ضد فكرة العنصرية ، بل انها تدعو الى جمع الشعوب تحت امة واحدة هي راية الاسلام^(٣).

ولكننا ان لاحظنا تطرفا في تهم مؤرخي الفرق للحركة الاسماعيلية فليس معنى ذلك انها خالية من الصحة . فمما لا شك فيه ان هناك صلة وثيقة بين آراء الاسماعيلية والآراء التي تتمثل في الحركات الدينية في ايران كالراوندية والخرمية والبابكية^(٤). ففكرة التأويل مانوية في الأصل^(٥). وفكرة البنوة الروحية معروفة عند الكيسانية^(٦). والآراء في الحلول والرجعة والتناسخ معروفة لدى جميع الغلاة^(٧) وفكرة ابداع الامامة الى شخص ، معروفة عند بعض فرق الغلاة قبل الاسماعيلية^(٨). ثم ان الحركة الاسماعيلية استفادت كثيراً من برنامج الخرمية الاجتماعي مع بعض التعديلات التي اقتضتها الخبرة المكتسبة وتبدل الظروف ، وانها تكون حلقة هامة في نمو المباديء المزدكية التي تطورت بظهور الاسلام

(١) Ibid p. 132 (٢) vanov , opsk. cit. p. XVII

(٣) Ibid p. XVII (٤) الدوري - العصر العباسي الاول ص ٣٦ - ٧

ص ٨٤ - ٥) Browne, vol. I. P. 139 ويرى كل من ايفانوف

وماسنيون انها اسلامية دون ان يوضحا ذلك . انظر E. I. VOL. II.

و Ivanov. P. XVII (٦) اخبار بني العباس (خط)

و Lewis p. 28 - ٢٨ (٧) الشهرستاني ج ٢ ص ١٠ - ١١ ، ويرى براون

انها اراء كامنه في للترية الايرانية وانها تظهر كلما اثبت ج ١ ص ١١

٣ Lewis P. 50 (٨)

واكتسبت ثوباً اسلامياً، فظهرت في الحرمية وفي البابكية، وثم في الاسماعيلية.
وقد ادرك المؤرخون المسلمون ذلك حتى قالوا، ان الزدكية والحرمية
والبابكية والاسماعيلية حركة واحدة. ^(١) ويذكر ابن الجوزي ان من
اسمائهم الزدكية « وان ذلك لانتسابهم الى مزدك صاحب الثنوية، ولانه
بمذهبهم في السابق والتالي (او العقل والنفس) واستباحة الاموال
والفروج » ^(٢).

ويؤكد المؤرخون على تأثرهم بالفلسفة اليونانية. فيقول الشهرستاني :
« ثم ان الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا
كتبهم على ذلك المنهاج » ^(٣) ويقول الديلمي « ومن وجدوه (الاسماعيلية)
فيلسوفاً فهو منهم ». ^(٤) ويظهر هذا جلياً في رسائل اخوان الصفا الذين كانوا
كما يظهر اسماعيلية حاولوا قلب المجتمع عن طريق نشر الثقافة والفلسفة
بشكل مبسط بين الجمهور . ^(٥)

ويرى ماسينيون ان الحركة الاسماعيلية تتميز من الناحية الثقافية
بانها جعلت اللغة العربية مطاوعة لبعض انتاج الاجانب الفكري وخاصة
الانتاج الهيليني . ويعتقد انهم كالمعتزلة يمثلون اليقضة الاولى للفكر الاسلامي

(١) ابن الجوزي ج ٥ ص ١١ الديلمي ص ٥٥ ، (٢) نظام الملك : سياست

نامه (٣) الشهرستاني ص ١٤٧ من الطبعة الاوربية (٤) الديلمي ص ١٦

وانظر ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٠ والديلمي ص ٥٥ (٥) انظر دائرة المصارف

الاسلامية مادة « اخوان الصفا » ورسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٧ - ٨

والهمداني : اخوان الصفا ص ١٦ ، ص ٢٣ ، ص ٢٦ ، نيكلسون - تاريخ

الادب العربي ص ٣٧١ وايقانوف ص ٢٥٠ - ٢ ، ص ٦٠ ، ص ٦١ ، ص ٦٧

على اثر اتصاله بالعلوم اليونانية . (١)

— ٤ —

ولعل اروع ما في الحركة الاسماعيلية تنظيمها واساليب دعايتها
العجيبة التي تدل على ادراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الاذني وعلى فهم
دقيق لمصادر التدمر عندهم . فقد كانوا يعتمون باختيار دعايتهم كل الاعتناء
ويزودونهم بارشادات مهمة تتفق وروح البيئة التي يدعون فيها .

يقول براون « الداعي شخصية فارسية تماماً بأوصافها واساليبها ،
لم تتغير منذ زمن ابي مسلم حتى اليوم (في البايعة) » (٢) . وكان الداعي
يتظاهر عادة بمهنة معروفة — تجارة ، طبابة ، كحالة — وكانت اولى
غاياته ان يأخذ بألباب من حوله ويحملهم على الاعتقاد الراسخ بتقواه
وصلاحه . وللوصول الى ذلك كان يكثر من الصلاة والصوم واعطاء الصدقات
حتى يكون لنفسه شهرة بالصلاح ويجمع حوله حلقة من المعجبين به . وكان
يهتم كثيراً بمعرفة عقائد سامعيه فيخاطبهم باللهجة المناسبة . ولذا كانت
تلك اللهجة تختلف باختلاف مذهب المدعو او دينه . (٣) فمثلاً يظهر التشيع
امام الشيعة ، ويقول بانتظار المسيح امام اليهود ، والمسيح هو محمد بن
اسماعيل ، وبعضهم الثالث امام المسيحيين ، والسكواكب امام الصابئة ،

(١) Massignon, E. I. vol. II, p. 767 ; p. 771. (٢) براون

ج ١ ص ٤١٠ (٣) الديلمي « ويتكلمون مع الناس على تقدير عقولهم
و درجاتهم . . . ويدخلون على كل فرقة من فرق الامة المسلمة وغيرها من
جهنم » ص ١٥ « ويميلون الى كل قوم بسبب يوافقهم » ابن الجوزي
٤١ : ٥

والنار والنور امام المجوس ، ويقول بقدوم العالم وبابطال النوايس امام
الفلاسفة ، ويسخف العبادة امام اهل المجون^(١) ويؤكد ان الفطنة في
اتباع اللذ وبهذه الوسيلة يخلق جواً من الالفة بينه وبين المدعوين .

ولما كان الناس مختلفين في ذكائهم وفي استعدادهم لقبول المبادي
الاسماعيلية فانهم اتبعوا طريقة التنشيه ، بان جعلوا الدعوة على درجات
يمر بها المدعو حسب قابليته واستعداده . وكانت درجات التنشيه سبعة
ويظهر انها كانت كذلك عند قرامطة العراق . فابن النديم يشير الى أحد
كتب الاسماعيلية الاولى وهو كتاب «البلاغات السبعة» ويوضح درجات
الدخول في الدعوة فيقول «ولهم البلاغات السبعة وهي : كتاب البلاغ
الاول للعامة ، كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلا ، كتاب
البلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة ، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل
في المذهب سنتين ، كتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث
سنين ، كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب اربع سنين ، كتاب
البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الاكبر»^(٢) . ومن هذا
يتبين وجود حد زمني للانتقال من درجة الى درجة في المذهب .

ثم جعلت المراتت تسعا على ما يظهر^(٣) . وفيما يلي نورد موجزا لتلك الدرجات

(١) الديلمي ص ١٥ - ١٦ ، ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٤ - ١١٥

(٢) الفهرست ص ٢٦٨ (٣) المصدر الرئيسي هو النويري ، نهاية الارب ، وهو

خطي وايمكن De Sacy ترجمه في مقدمة كتابه La Religion des Druzes

ثم انظر البغدادي ص ١٨٢ وما بعدها ، والمقريزي ج ٢ ص ٢٢٧ وما

بعدها ، والديلمي ص ٢٥ وما بعدها .

(١) يبدأ الداعي بخذر وتأن في عرض مبادئه ، محاولاً إثارة حب الاستطلاع في نفوس سامعيه ، وبث روح التساؤل فيهم وأن يحملهم على الاعتقاد بحكمته ورجاحة عقله . ومع ذلك فهو مستعد في أية لحظة لأن يتراجع متى لاحظ فيهم بوادر الشك والهياج . فيسأل الداعي من يدعوهم عن بعض « المشكلات وتأويل الآيات ومعاني الأمور الشرعية وعن شيء من الطبيعيات ومن الأمور الغامضة » . ثم يتحدث عن الدين من حيث هو علم مستور ويؤكد المعاني الخفية لأوامره ، ويبين أن التمسك بظواهر الأوامر الدينية يؤدي إلى الضلال كما يبين « أن الآفة التي نزلت بالامة وشتتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلة (هي) ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها » .^(١) فإذا أظهر المدعو رغبة في التعليم ، بدأ الداعي ببعض الشرح ، ثم يقف في وسطه ، مبيناً أن أسرار آلهية كتلك لا يمكن بيانها إلا لمن أقسم بالولاء للإمام (إمام الزمان) ممثل الله المختار على الأرض والمستودع الوحيد لعلم الباطن الذي يعلمه لمن أظهر نفسه جديراً بذلك . وغاية الداعي هي الحصول بالدرجة الأولى على هذا الولاء مؤكداً بقسم غليظ ، ومعبراً عنه بدفع ضريبة للإمام . وفي القسم عهد بالآية يفتشي بالمدعو سر الدعوة ، ولا يساعد أبداً كان من أعدائها ضدها ، ولا يحاول التأمس عليها وأن يكون ناصحاً للاصمعية .^(٢)

(١) المقرزي ج ٢ ص ٢٢٧ (٢) انظر المقرزي ٢ : ٢٢٧ - ٢٢٨ ترى
امثلة من أسئلة الدعاة . وانظر ص ٢٣٤ منه والرايحي ٢٧ - ٢٩ ترى نص القسم .

(٢) يفهم المدعو ان رضا الله لا يكون بمجرد اتباع أوامر الاسلام ، بل يستلزم معرفة معناها الباطن عن « أئمة نصبهم للناس واقامهم لحفظ شريعته » .

(٣) يعلم المدعو ان الأئمة سبعة ، ويفهم شيئاً عن معنى رقم (سبعة) في العوالم الروحية والمادية . وهكذا يفصل بصورة أكيدة عن مذهب الامامية (الاثني عشرية فيما بعد) ويقرر عنده « بان محمد بن اسماعيل عنده علم المستورات و بواطن المعلومات التي لا يمكن ان توجد عند أحد غيره . وان عنده أيضاً علم التأويل ... وعنده سر الله تعالى في وجه تدبيره المكتوم ... وتأويل التأويلات ، وان دعواته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة »^(١) كما يفهم ان بقية الأئمة هم اشخاص اعتياديون .

(٤) يعلم المدعو الادوار النبوية السبعة ، وطبيعة الناطق والاساس ، والأئمة الستة الباقيين (الصامتين) الذين يخلفونه ، وان كل ناطق ينسخ شريعة سلفه ، وان محمداً ليس آخر الانبياء ، كما ان القرآن ليس آخر ما انزله الله ، بل ان محمد بن اسماعيل هو الناطق السابع والآخر ، القائم صاحب الزمان ، الذين انتهى اليه علم الاولين وقام بهلم بواطن الامور الامور وكشفها واليه المرجع في تفسيرها دون غيره ، وعلى جميع الكافة .

اتباعه... لان الهداية في موافقته واتباع الضلال والخيرة في العدول عنه» (١)
(٥) يتعلم المدعو بصورة واسعة معنى الارقام (١٢، ٧) وتطبيق
التأويل . ويتعلم معنى الرقم (١٢) والاعتراف بالحجج الاثني عشر
الذين يسرون دعوة كل امام .

وهؤلاء الحجج موزعون على جزر الارض الاثني عشرة . ويرى
ايفانوف ان الجزر تعني القطع وتفسيرها هنا شعوب الارض الاثني عشر
وهم : العرب ، الترك ، البربر ، الحبش ، الخزر ، الصين ، الديلم (ايران) ،
الهند (شرق افغانستان) ، السند (عامة الهند) ، الصقالية . وهذا
التقسيم يستند احياناً الى اساس جغرافي واحياناً الى اساس اثنوغرافي (٢)

(٦) يعلم المدعو « تفسير معاني شرائع الاسلام : من الصلاة ، والزكاة ،
والحج ، والطهارة ، وغير ذلك من الفرائض باور مخالفة للظاهر » ويقنع
بان مراعاتها ليست بالمهمة بل يمكن نبذها ظهرياً ، لأنها وضعت من
قبل مشرعين حكما لضبط العامة . ثم بحثه الداعي على النظر في كتب
الملاسة ويزين له « الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها » .

(٧) لا يصل هذه الدرجة الا الدعاة الذين يستطيعون فهم طبيعة
المذهب الحقيقية وغايته . وهنا يطلع المدعو على المبدأ الثنوي في « السابق »
(المفيد) و « التالي » (او المستفيد واللاحق) الذي يقصد به هدم عقيدة
المدعو بمبدأ التوحيد .

(٨) هنا يشرح مبدأ «السابق» و«التالي» بشكل يجعل المدعو في زمرة الثنوية . ويعلم المدعو « ان معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير اشياء ينتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوى معاني فلسفيه تنبي عن حقيقة آنية السماء والارض وما يشتمل العالم عليه باسمه من الجواهر والاعراض فتارة رموز يعلقها العالمون وتارة بافصاح يعرفه كل احد . فينتظم بذلك للنبي شريعة يعرفها الناس» (١) ويفهم المدعو بالتأويل معنى القيامة والحشر والثواب والعقاب .

(٩) وفي هذه المرحلة يزول كل اثر للعقائد ، ويصبح الشخص فيلسوفا له الحرية بان يتبع اي مذهب وحده ، او مزجاً من المذاهب (فلسفية ودينية) يناسب ميوله . وروي النويري ان الكثير يتبع مذهب ماني او ابن ديسان او المذهب المجوسي (الزديكي؟) واحياناً مذهب افلاطون وسقراط ، وفي اغلب الاحيان يقتبس بعض الآراء من كل هذه المذاهب ويربطها معاً . (٢)

وتعرف هذه الدرجات بالاسماء التالية :

(١) الزوق والتفرس اي معرفة نفسية المدعو ومدى استعداده لقبول الدعوة (٢) التأنيس (٣) التشكيك اي جر المدعو الى الشك المنظم في

(١) المقر يزي ج ٢ ص ٢٣٣ (٢) Browne Vol. I. P. 410.

ويقول المقر يزي في آخر فصله عن الدعوة « وهذا حاصل علم الداعي والهم في ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره » ج ٢ ص ٢٣٣ .

عقائده . (٤) التعليق اي اخذ القسم (٥) الربط (٦) التدليس
(٧) التأسيس (٨) الخمع (٩) الساخ او المسخ .^(١)

وهكذا يتضح لنا ان جمهور مؤرخي السنة اتهموا الاسماعيلية بانهم
كانوا يريدون سلب الناس عن المذاهب والاديان وخاصة عن الدين الاسلامي
ليتركوا لهم الخيار في اتباع اي مذهب ، وخاصة المذاهب الفلسفية
والمجوسية بروح يصحبها التسامح الديني المطلق . وقد صرح ابن النديم بعدم
اطمئنانه الى معلوماته بعد ان استقفاها من ابن ر ام ،^(٢) بينما اعترف ابن
الجوزي بأنه اخذ معلوماته عن الاسماعيلية ، من اقوام تدينوا بدينهم ثم
بانتم لهم قبائلهم فتركوا مذهبهم .^(٣) وهذا ما يدعو الى الشك في الكثير
مما بروي عن الاسماعيلية .

يرى ماسنيون ان الغرض من التنشي هو ان يبين بان ظاهر كل
المذاهب والاديان يخفي وراءه الباطن نفسه ، وان التنشي ينتهي بتليم
الفلسفة النظرية والتفكير الفلسفي . وهو يعتقد بان الاسماعيلية هيئوا الازهان
لفهم الفلسفة اليونانية ونزلوا الفلاسفة القدماء (افلاطون وفيثاغورس . . .)
منزلة الانبياء . واثاروا جماعتهم لقراءة بعض الكتب الفارسية ككتب
جاماسب) ، ونظروا لاصحابها كانبيا .^(٤)

(١) الديلمي ص ٢٥ ، البغدادي ص ٢٨٠ وما بعدها

(٢) Casanova, opt. cit., P. 10 off. (٢) الفهرست ص ٢٦٤ وص

٢٦٨ (٣) المنتظم ج ٥ ص ١١٧ (٤) E. I., Vol. II P. 770-771

اما ايفانوف فيستنتج من دراسته ا-كتب الاسماعيلية (ولا اشك في انه يتحمس في الدفاع عن هذا المذهب) بان المذهب الاسماعيلي اثاره و غذاه شعور ديني عميق وانه ادق المذاهب توحيداً، وان غايته المثلى هي الانتصار الاخير للدين الاسلامي ، والتوحيد النهائي للبشر في ظل امام واحد من آل الرسول ، فهو وحده القادر على هداية الانسانية المعذبة الى حياة هادئة صحيحة ، وهو يملأ الارض عدلاً ورخاء بعد ان ملئت ظلماً وشقاء . (١)

اما انا فارى ان المذهب الاسماعيلي كان يستهدف قبل كل شيء احداث ثورة اجتماعية ، ويرى في الدين الاسلامي اساءة للنظام القائم ، فحاول بطريقة التأويل والتنشيط توحيد المتذمرين من كل العناصر والاديان في جو من التعاون والحرية الفكرية لتقويض المجتمع واقامة آخر لا استغلال فيه ولا تحكم دين او عنصر .

والان — وبمد هذا العرض المجلد الشامل لحركة الاسماعيلية ننقل الى البحث عن حركة اخرى لها صلة وثيقة بالحركة الاسماعيلية العامة ، تلك هي حركة القرامطة في العراق وبادية الشام ويجب ان نعرف بأن هذه الصلة مضطربة ، كما ان المعلومات عن القرامطة ممقدة وذلك بنتيجة الارتباك في اطلاق هذا الاسم على فرق دينية مختلفة (٢)

(١) Ivanov, op t. cit., P. XVI - XVII (٢)

١- يتفق جمهور المؤرخين على ان حركة القرامطة في العراق وسورية كانت جزء من الدعوة الاسماعيلية .

ولدينا روايتان في مبدأ الدعوة في العراق :

فالرواية الاولى فخواها : انه بعد وفاة عبد الله بن ميمون القداح ارسل ابنه وخلفه احمد ، الداعي حسين الاهوازي فجاء سواد الكوفة يقصد منطقة (قس بهرام) ،^(١) فلقى في طريقه حمدان بن الاشعث الملقب بقرمط ودعاه الى مذهبه ، فاستجاب حمدان بعد ان استوثق منه الداعي بقوله « ان تجعل لي والامام علي نفسك عهد الله وميثاقه الا تخرج سر الامام الذي القيه اليك ، ولا تفشي سري ايضاً » .^(٢) ثم دعا حمدان صاحبه للاقامة في داره ودعوة اهل قريته . فرضي وقام بالامر فتبعه اهل القرية ومكث هو بينهم يعيش من شغله في الحياكة . وكانوا يجاونه كثيراً لانه يصوم النهار ويقوم الليل . ومما زاد في احترامه ان احد اغنياء الكوفة استأجره لحراسة بمره فأدى واجبه بكل امانته . وكان حمدان موضع ثقة الاهوازي ولذلك كشف له عن خططه دون تحفظ . ولما حضرته الوفاة عهد الى حمدان بزئامة الدعوة .^(٣)

اما الرواية الثانية فمؤداها ان اهوازي اقدم سواد الكوفة (منطقة الهرين) ، وكان يظهر النسك والتفشف ويدعو الناس الى امام من اهل

(١) او منطقة الهرين ولعلها منطقة واحدة . (٢) ابن الجوزي ٥ : ١١٣

(٣) De Sacy vol, I, p. Clxxi المقريزي ٢ : ٣٣٤ .

البيت . واشتهر بالأمانة ولا سيما بعد ان استأجره بعض التجار لحراسة
تمرهم . ثم اعتل وبقى مطروحا على الطريق حتى مرضه « رجل يحمل على
اثوار له ، احمر العينين شديد جمرتها . وكان اهل القرية يسمونه كرميته ..
وهو بالنبطية احمر العينين » . (١) ولما أبل دعا اهل القرية الى مذهبه
فجابوه . وكان يأخذ من كل رجل دخل مذهبه دينارا للامام . وعندما
لاحظ انتشار دعوته اختار لها اثني عشر نقيباً من اصحابه ، وفرض على اتباعه
خمسین صلاة كل يوم وليلة فكان ذلك مما يهوقهم عن العمل . ولما لاحظ
رجل يسمى الهيصم تقصير فلاحيه في عملهم وعرف مصدر ذلك قبض على
الاهوازي وسجنه ليقتله في اليوم التالي إلا ان جاريه الهيصم اطلقته سراً
فاعتقد الناس انه اختفى . وبعد مدة ظهر في جهة اخرى وقال للناس انه
لا يستطيع أحد ايداءه ولكنه قرر الرحيل الى الشام خوفاً على نفسه ،
واستخلف حمدان محله . (٢)

ومهما يكن من شيء فالذي يمكن استخلاصه من هاتين الروايتين هو
ان احمد بن عبدالله القداح أرسل داعية الى منطقة الكوفة فنجح في
بث الدعوة فيها . وكان اهم من استجاب له حمدان الملقب بقمرط . فعهد
اليه الداعي برئاسة الدعوة (عند وفاته او عند عودته الى الشام) . ويرى
De Goeje ان الحسين الاهوازي هو ابن عبدالله بن ميمون القداح

(١) الطبري ١١ : ٣٣٨ (٢) الطبري ١١ : ٣٣٨

De Sacy. vol I. p. Clxxvi ، ابن الجوزي ٥ : ١١٢

وانه رجع الى سامية بعد تنظيم الدعوة في العراق . كما يرى ان بدء الدعوة كان حوالي سنة ٢٦١ هـ^(١) . لكننا نميل الى الاعتقاد بان الياهوزي هو أحد اتباع عبدالله بن ميمون المخلصين ارسله أحمد بن عبدالله الى العراق^(٢) .

— ٢ —

ويفهم من المؤرخين ان اصل تسمية القرامطة مأخوذ من «قرمط» لقب حمدان ولا يهمنا اختلاف الكتاب في تفسير معنى اللقب^(٣) .
ولكن ايفانوف لا يرضى بنسبة الحركة الى حمدان قرمط ويحتج على اهل المؤرخين فكرة النمو والتدرج بين الجماهير ، ومحاولة نسبة الحركات الى اشخاص^(٤) . ثم يقول ان «كرامته» او «كرموته» وهي كلمة عراقية جنوبية لم تستعمل في العربية في أية جهة اخرى — تعني الفلاح أو القروي . ثم عربت بعدئذ الى «قرمط» وهي كلمة عربية لها معان مختلفة وان هذا التعريب حصل في اسم زعيم محلي وهو حمدان قرمط فاعتبرت كل الجماعة اتباعه وسميت باسمه ، ولو ان الكثير من افرادها قد لا تكون لهم صلة به^(٥) . وهذا تعليل له وجاهته .

(١) De Goeje P. 31 ; De Sacy, Vol I. P. Clxviii

(٢) المقرئزي ٢ : ٣٣٤ الفهرست ٢٦٥ (٣) انظر ابن الجوزي ٥ ص

١١٢ ، De Goeje p. 197 Sq. ، الطبري ج ١١ ص ٣٣٨ ، راجع ابن

خلدكان ، الصعاح ، شفاء الغليل للحنفاجي (٤) P. 76 (٥) Ivanov P. 69

E. I., Vol. II P. 767

ويظن كسنوفا Casanova ان القرامطة هم في الأصل من
الكيسانية ثم اتحدوا بالاسماعيلية فيما بعد. (١)
أما ايفانوف فيقول بان الروايات الواردة عنهم تشير الى اجتماع
غرب لعناصر دينية منضادة في تكوين المذهب القرمطي . فمثلا نرى
ترك مراسيم العبادة الاسلامية (رفض الظاهر) بجنب التدين الظاهر
في فرض خمسين صلاة يوميا على كل فرد (٢) ، وكذا وجود مجموعة كبيرة
من الأئمة الذين اعترفوا بهم من اسماعيلية وكيسانية ، كما ان بعض
العقائد المنسوبة اليهم تتصل بالكيسانية أو بالخطابية وحتى بأراء
الخوارج (٣) . وهذا لا يستبعد إذا قدرنا المزج الداخلي للعقائد
وهو محتمل في عقائد الجماهير في السواد وخاصة وقد كان بينها في اوقات
مختلفة اتباع لتلك الفرق (٤) .

وعلى كل فلم يكن للقرامطة كيان او اسم حتى يضمهم حمدان قرمط (٥) .

- ٣ -

أما حمدان فلم يكن نبطيا من قرية في سواد الكوفة و « كان يميل
الى الزهد » (٦) . ويظهر انه كان « اكارا بقارا » (٧) ، ويصفه ابن النديم

(١) casanova, oit, cit, P. 3. وهو متأثر بنص كتاب يورده

الطبري ج ١١ ص ٣٣٩ و ينسبه الى القرامطة (٢) انظر الطبري ج ١١ ص ٣٣٨

(٣) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٣٩ ٤ Ivanov p. 69-70 (٥) انظر

الطبري تحت سنة ٢٧٨ ج ١١ ص ٣٣٧ (٦) ابن الجوزي ٥ : ١١٣ . الطبري

١١ : ٢٣٨ (٧) ابن النديم ٢٦٥ . الطبري ١١ : ٣٣٨ . اي انه كان اكارا

يحمل على البقر .

بانه كان داهياً^(١) ويعتقد De Sacy بانه رجل طموح خصب القريحة
اظهر حماساً عظيماً للدعوة^(٢) . ولا شك في انه قام بدور خطير في حركة
القرامطة . ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان الظروف كانت عوناً له وفي
صالحه . فقد كان لحركة الزنج وما اورثته من تخريب وفوضى في جنوبي
العراق أثر حاسم في تسهيل نشر الدعوة في مختلف جهاته . وقد حاول
حمدان التحالف مع صاحب الزنج ، فقابله وقاوضه ، ولكنه اخفق في
ذلك^(٣) . وبعد القضاء على حركة الزنج لم تفكر الحكومة في اتخاذ تدابير
جديدة لقمع حركة القرامطة الناشئة . فيذكر الطبري انه بعد أن فشا أمر
القرامطة بسواد الكوفة وكثروا ، اطلع العامل أحمد بن محمد الطائي (ولي
سنة ٢٦٩ هـ) على أمرهم ففرض على كل منهم ضريبة شخصية قدرها
دينار وحاول بعض الكوفيين تنبيه الحكومة الى خطرهم ، ولكن لم
يعاروا التفاتة^(٤) .

أخذ حمدان مقره في كواذى على مقربة من بغداد ، ليكون على
صلة بالدعوة في ايران وبرئيسه القداحي (الذي عينه الامام) في عسكر
مكرم ، وليرقب مجرى الاحوال في بغداد عن كشب ولعله كان يطمح الى
نشر الدعوة في العاصمة نفسها وربما نجح في ذلك . لحد ما^(٥) . ويجعل ابن
النديم بدء فعاليتها سنة ٢٦١ هـ وقد نجح حمدان فعلاً في نشر دعوته في

(١) ابن النديم ٢٦٥ . ٢ De Sacy vol. I. p. Clxxiv

(٣) الطبري ١١ : ٣٣٨ - ٣٣٩ ٤ نفس المصدر (٥) ابن النديم ١٦٥ .

السواد مستغلا الظروف السيئة التي كانت تتعاوره وغفلة الحكومة .
فكان يأخذ من كل تابع - بعد ان يقسم بين الاخلاص للامام - ديناراً .
ويفرض عليه يوماً خمسين صلاة (١) . ثم عين اثني عشر نقيماً لتنظيم
الدعوة وبثها (٢) . وهذا التنظيم مما يدل على مدى انتشار الحركة ودرجة
تأثيرها باساليب الدعاية العباسية . وقد انضم اليه علاوة على السواديين
بعض العرب ، واتخذ بعضهم دعاة لبث الدعوة بين كثير من القبائل
بنجاح . وهذا مما زاد قوة حزب حمدان (٣) . وكان اكبر رجال حمدان
وساعده الأيمن نسيبه عبدان الذي كان اليه الاشراف المباشر على الدعاة
كما يظهر . ومن بين دعاة الأخير المشهورين ذكرويه الذي ادرك عبدان
مزايه ، فولاه منطقة واسعة من السواد ، كما عين ابا سعيد الجنابي لجنوب
ايران (٤) . وكان لعبدان عدد كبير من الدعاة يذهب كل منهم مرة في
الشهر على الأقل لزيارة منطقتهم . ويظهر ان عبدان كان فتيه الحركة
القرمظية في هذا الدور ومؤلف عدة كتب من كتبها الهامة (٥) .

اظهر حمدان مقدرة فائقة في التنظيم ، فوضع بعض التدابير التي
تكشف لنا عن اهمية العامل الاقتصادي الاجتماعي في الحركة وتلقي
ضوء على سر انتشارها . وقد اشار النويري الى ذلك بشيء من التفصيل
فذكر سلسلة من الضرائب فرضها حمدان بالتدريج . إذ بدأ بأخذ ضريبة

(١) الطبري ١١ : ٣٣٩ (٢) De Goeje P. 27 (٣)

De Sacy P. CLXXXV (٤) De Goeje P. 31 (٥) بذكر ان

بسيطة من جميع الاتباع باسم (الفطر) وقدرها درهم على الرجل او
المرأة أو الطفل ^(١) . وبعد مدة فرض ضريبة الهجرة وهي دينار واحد على
كل بالغ ^(٢) . ولعلها كانت لفرض انشاء دار الهجرة . وكان الاتباع
ملزمين بدفعها بالتضامن يساعد الغني منهم الفقير . ثم فرض ضريبة
البلغة وقدرها سبعة دنانير ^(٣) . يدفعها كل من اراد ان يشارك في « عشاء
المحبة » (Agapi) . وهي اكلة لذينة قال لهم حمدان انها طعام أهل الجنة
أرسله اليه الامام . واخبرهم ان هذه اعظم درجة يدركها الانسان في
العقيدة وان اهل البلغة هم المقربون . وبعد ذلك طلب من الاتباع خمس
اموالهم ^(٤) ، وقام باحصاء دقيق لاهوال اتباعه وامتعتهم حتى ان المرأة
كانت تدفع خمس غزلها . واخيراً فرض عليهم نظام (الالفة) الذي
اراه أول مثل للاشتراكية طبق في الاسلام ^(٥) . ثم نصح اتباعه
بشراء الاسلحة استعداداً للثورة كما يظهر وقد تمت هذه التدابير سنة ٥٢٧ هـ .
وبعد ان تأكد حمدان من سيطرته على اتباعه حلل لهم ترك
الفرائض الدينية وقتل اعدائهم واخبرهم بان الدين معرفة الامام وطاعته
فقط . ثم جمع الدعاة وقرروا اختيار محل ليكون « دار هجرة ينحازون
اليها ويجمعون بها » فاختاروا قرية قرب الكوفة تدعى (مها باد)
ونقلوا اليها الاحجار واحاطوها بسور قوي وانشأوا فيها بناية واسعة ،

(١) وهي الصدقة التي تدفع عند انتهاء شهر رمضان (٢) استنادا الى القرآن
س ١٩ آية ٥٤ (٣) استنادا الى القرآن س ٢٧ آية ٦٥ (٤) استنادا
الى القرآن س ٨ آية ٤٢ (٥) استند في الالفة الى س ٣ آية ٩٨ وس ٨ آية
٦٤ وستشرح في القسم الاخير

فلجأ اليها عدد كبير من الرجال والنساء من مختلف المناطق
وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ (١).

— ٤ —

وفي الوقت نفسه سارت الدعوة بنشاط خارج العراق فبدأت في
اليمن سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م على يد ابن حوشب الذي أرسله احمد بن
عبدالله من العراق . وفي سنة ٢٧٠ هـ أصبحت علنية . وفي سنة ٢٩٣ هـ
عرفت ببغداد انهم غلبوا على « سائر مدن اليمن » (٢).

وأرسل عبدان ابا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الى جنوبي
ايران ، فظهر مقدرة كبيرة ولاقت تعاليمه الاولى نجاحاً كبيراً . فبشر
بان الله غضب على العرب لانهم قتلوا الحسين ، وانه يحب شعب الاكسرة
الذين هم وحدهم ايدوا حقوق الامام وقال بان تعاليم محمد فيها كثير من
الخطأ . ونجح ابو سعيد في تطبيق مبادئه الاشتراكية واشرف بنفسه على
ادارة اموال جماعته (٣) ، ولكن الشرطة اكتشفت فعالياته وصادرت
امواله ، فهرب واختفى . ثم دعاه حمدان الى مقابله في كلواذى واراد
استغلال قابلياته في منطقة اخرى . فزوده الدرهم والتعاليم وأرسله الى
البحرين حيث لاقى نجاحه الأكبر كما سنرى (٤).

(١) Goeje P. 27-31 (المقدمة) De Sacy 100-101 انظر

بندلي جوزي ص ١٢٥ (٢) الطري : ١١ - ٣٩٤ De Sacy P.255 off

(المقدمة) Goeje P. 33 الحمادي ص ٢٢ وما بعدها Ivanov. P

(٣) كان ابو سعيد تاجر طحين ويلاحظ في تعاليمه انها صدى لآمال الفرس

وميولهم . (٤) De Goeje P. 33 34

وفي هذا الحين شعر قرامطة العراق بقوتهم وبدؤا بحركاتهم العسكرية. فيذكر الطبري أنهم تحركوا اول مرة سنة ٢٧٨ هـ ولكن يظهر ان بغداد شعرت آنئذ بخطورتهم لانه لا توجد اشارة الى ثورة فعلية في تلك السنة. (١) وفي سنة ٢٨٤ هـ يرد اول ذكر لثورة قرمطية صغيرة. ومما يجلب الانتباه انه كان لهم اتباع مهمون في العاصمة ذاتها (٢).

ثم رفعوا علم الثورة في جنبلا (بين واسطة والكوفة) في ذي الحجة سنة ٢٨٧ هـ « وقتلوا من المسلمين جمعاً فيهم النساء والصبيان ، واحرقوا المنازل » (٣). وعندئذ انجد المعتضد عامه بدر الذي هاجمهم على غرة منهم « فقتل منهم . . . مقتله عظيمة ثم تركهم خوفاً على السواد ان يخرب إذ كانوا فلاحيه وعماله » (٤). وفي اوائل سنة ٢٨٩ هـ ثاروا مرة اخرى في العراق « وانتشروا في سواد الكوفة » فدحرهم الخليفة ، وأسر أحد رؤسائهم الذي يعرف بأبي الفوارس فقتله (٥). ويذكر المسعودي ان ابا الفوارس وعد بالرجوع بعد اربعين يوماً ، وان العامة كانت تنجمهر لتشهد ذلك حتى فرقهم الشرطة اخيراً (٦) وفي هذه السنة نسمع اول مرة شيئاً عن القرامطة اتباع ذكرويه في الشام .

وهنا تعترضنا مشكلة مهمة وهي تخلي حمدان قرمط وعبدان عن

(١) الطبري ١١ : ٣٣٨ (٢) الطبري ١١ : ٣٦٠ ، (٣) الطبري ١١ : ٣٦٩ .
(٤) الطبري ١١ : ٣٧٠ . (٥) الطبري ١١ : ٣٧٢ ، ابن الاثير ٧ : ١٦٩ .
يذكر محاكمته . (٦) المردي ٤ : ٢٠٢ .

الدعوة وخرجهم على رئيسهم الأكبر. ويفسر النويري ذلك بان حمدان الذي كان على صلة برثيد في سلمية لاحظ تعامير غير مألوفه في رسائله ، تدل على تبدل مهم . فساوره الشك في الامر ، وارسل عبدان ليتحرى الوضع فعرف عبدان ان احمد بن عبدالله قد توفي فخلفه ابنه حسين^(١) ، ولما اجتمع عبدان بالحسين بن احمد سأل عن الامام المدعو له وعن حجة ذلك الامام . فاجاب الحسين مستفسراً باستغراب « ومن هو الامام اذن ؟ » فقال عبدان انه محمد بن اسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي دعا له احمد بن عبدالله بن ميمون وكان حجته فاستنكر القداحي ذلك وقال ان الامام كان والده وانه حل محله الآن . وعندئذ ادرك عبدان حقيقة القداحين وانهم انما خدعوا الناس وارادوا اجتذابهم نحو صفوفهم بان اتخذوا اسم محمد بن اسماعيل ذريعة . ثم اطلع عبدان نسيبه على ما عرف من امر الامام فاشار عليه بجمع الدعوة ، وبين لهم الواقع . ثم امرهم بايقاف الدعوة ، فنفذ امره واوقفت الدعوة في المناطق التابعة له وقطع الدعوة صلتهم بسلمية . ولما لم يستطع ايقافهم في الاماكن الاخرى التي تسربت اليها الدعوة . وبين النويري ان حمدان ترك كلواذي واختفى من مسرح التاريخ وان احد ابناء عبد الله ابن ميمون ومقره الطالقان ، مر بسواد الكوفة وحاول ان يجد حمدان فلم يستطع وقابل عبدان ليرجعه الى الدعوة فاختفق ، فتآمر مع ذكرويه وقتل

١ يظهر ان الحسين بن احمد سمي نفسه الوصي او صاحب الامر اي انه

لنخذ القاب الام

عبدان وكانت هذه الحوادث في سنة ٢٨٦ - ٢٨٧ هـ / ١٨٩٩ - ٩٠٠ م. (١)
ويرى (دي خوية) ان انفصال حمدان وعبدان كان نتيجة لاختلاف
عبيد الله المهدي وداعيته ابي عبد الله الشيعي . اذ شك هذا الداعي في ان
المهدي هو الامام واخذ يتآمر ضده . فقتله المهدي (آخر سنة ٢٩٨ هـ)
وكتب الى اتباعه في المشرق ان عبد الله الشيعي ضل فطره بالسيف .
ويعتقد ان حمدان وعبدان ادركا من هذه الحادثة ان المهدي ليس الارئيس
الدعاة سعيد عبيد الله الذي هرب من ساميه ، واذا فالامام المستور ما هو
الاطورة خدعها ، فانفصلا عن الدعوة وتلا ذلك اختفاء حمدان الغريب
ومقتل عبدان . ويرى (دي خوية) ان مقتل عبدان وربما حمدان كذلك
كان من تدبير عبيد الله المهدي . (٢) . ولكن هذا التعليل يجعل انفصال
حمدان سنة ٢٩٨ هـ في حين ان المصادر تبين ان دور حمدان اتقضى نهائياً
قبل سنة ٢٨٧ هـ وان حركات القرامطة في العراق والشام بين سنة ٢٨٩ -
٢٩٤ هـ كانت بزعامه آل ذكرويه . هذا بالاضافة الى ان قتل الشيعي لا
يمكن من استنتاج ما استنتجه (دي خوية) .

ولا يفانوف فرضية يفترضها وهي انه عند وفاة الحسين بن احمد بن
عبد الله بن محمد بن اسماعيل (٢٦٨ هـ / ٨٨١ م - ٢ م) خلفه اخوه محمد بن
احمد ، اكبر افراد العائلة الاسماعيلية . وبعد وفاته (حوالي ٢٨٣ هـ / ٨٨٦ م)
خلفه في الامامة اكبر ابناء اخيه وهو ابو محمد أخو المهدي . ولكن هذا

(١) De Sacy, Introd. pq. 193-200

(٢) De Goeje q. 66-68

كان معلولاً وغير نشيط فحل محله كما يظهر أخوه الأصغر الطموح عميد الله المهدي فولد ذلك تدمراً في بعض الجهات وادى إلى انفصال حمدان قرمط واختفائه ولعله توفي لأنه كان مسناً . وينسب مقتل عبدان إلى يحيى بن ذكويه الذي كان طموحاً فاصطدم بمبدان وقتله بحجة عدم ولائه للإمام. ^(١) وفي هذا التفسير نقاط مشكوك فيها . منها أنه ينفي وجود الإمامة المستودعة ويفترض أن المهدي علوي ، ويفترض أن السماعيلية تقبل انتقال الإمامة من أخ إلى أخيه . وهذه نقاط فيها نظر .

ولي رأي متواضع إذ كره بحذر . وهو أن انفصال حمدان واتباعه عن الدعوة راجع إلى تباين في المبادئ . فالنوبختي يبين أن القرامطة - جماعة حمدان - كانوا من المباركية ، ثم اختلفوا عنهم بأن قالوا أول الأمر بأن الإمام السابع هو محمد بن اسماعيل ، وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول ^(٢) وكونوا لهم طريقة خاصة بهم و«زعموا أن محمد بن اسماعيل حي لم يمت وأنه في بلاد الروم وأنه القائم المهدي . ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة ويبشر بشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ^(٣) وإذا فالقرامطة كانوا ينتظرون عودة محمد بن اسماعيل ليبشر بالشريعة الأخيرة وبكلمة أخرى أنهم لا يرون في أعمال الدعوة إلا تمهيداً لرجوعه وإذا فلا معنى للإمام المستور عندهم . ويؤيد هذا الرأي ما يقوله النويري عندما يذكر أن عبدان قال للقداحي أن الدعوة لمحمد بن اسماعيل وأن القداحي

(١) Ivanov, opt. cit. p. 59-60 (٢) النوبختي ص ٧٤ .

(٣) نفس المصدر .

هو حجته فقط . واذاً فهذا الاختلاف بين جماعة حمدان وغيرهم هو سبب انفصالهم .

— ٧ —

وعلى اثر انفصال حمدان ، خمدت فعاليات القرامطة في العراق ولكنهم ابدوا نشاطاً في الشام بزعامة ذكرويه بن مهرويه الدبداني . وبين النويري ان ذكرويه هو احد دعاة عبدان (ويقول الطبري « انه كان داعية قرمط »^(١)) . وكان ذكرويه رجلاً قديراً له النفوذ الاعلى في منطقته بالسواد وبعد ان انفصل حمدان حاول أحد ابناء القداح ارجاعه وعبدان الى الصواب فاخفق وعندئذ اسند رئاسة الدعوة الى ذكرويه ولكنه ذكرويه اوضح ان وجود عبدان ونفوذه على القرامطة يحول دون قيامه بالواجب ، ولذلك اتفقا على الفتك به ، فتم لهما ذلك . ولما اطعم اتباع عبدان على دخيلة الامراض اضطربوا واخذوا يبحثون عن ذكرويه لقتله فاخفق^(٢) . ثم بين النويري ان ذكرويه عندما ادرك ان عامة اهل السواد الذين هم خارج حدود منطقته كانوا على الضد منه ، فكر في نشر دعوته بين القبائل في بادية الشام^(٣) ولكن الطبري^(٤) ينسب هذا الاتجاه الى حزم المعتضد وتابع جيوشه اسحق قرامطة العراق ، مما سد المجال امام ذكرويه في السواد .

ويقول الطبري ان ذكرويه اراد « استغواء من قرب من الكوفة »

(١) ج ١١ ص ٣٧٧ (٢) يضع النويري ذلك سنة ١٨٦

(٣) De Sacy, Introd., p. 198-200 انظر ايضاً Ivanov p. 76

(٤) ج ١١ ص ٣٧٨

من اعراب اسد وطي وتميم وغيرهم من قبائل الاعراب « فارس —
اولاده اليهم وادعوا انهم من نسل محمد بن اسماعيل ، وانهم لاجئون اليهم
خوفا من السلطان . » ثم دبوا فيهم بالدعاء الى رأي القرامطة فلم يقبل ذلك
احد منهم اعني من الكابيين الا الفخذ المعروفة ببني العليص بن ضمضم
بن عدي بن جواب خاصة ^(١)

اما كتاب « استتار الامام » — وهو مؤلف اسماعيلي — فله

رواية اخرى يفهم منها :

أ . ان ابا الحسين بن الاسود رئيس دعاة المهدي ^(٢) هو الذي نشر
الدعوة بين القبائل في بادية الشام .

ب . وان عبدان — على ما يظهر — بقي على صلة بسلمية ولو انه
كان على خلاف معها . ^(٣) ويظهر ان رئاسة الدعوة في السواد صارت
لذكرويه بن مهديوه (ابي محمد زكريا بن المهدي الكوفي) ولكنه توفى
عاجلا وخلف ثلاثة ابناء : ابا القاسم وهو الاكبر ، و ابا العباس الحسين ،
و ابا الفضل محمد وهو الاصغر . فحل يحي محل والده . ولكن طموحه سرعان
ما ادى به الى الاصطدام بعبدان ، فقتله بحجة عدم الولاء للامام . فادى
ذلك الى استياء جماعة عبدان وربما الى انشقاق رئيسي بين قرامطة
العراق . ولكي يسترضي الامام المهدي جماعة عبدان عزل يحي ، وعندئذ

(١) الطبري ١١ ص ٣٧٧ — ٨ ، ٢ . كان مركزه في حماة على بعد عشرين

ميلا من سلمية Ibid, p. 59 (٣) Ivanov, p. 77

شعر الاخوة بحيف ، ففاوضوا المهدي لحل المشكل ودامت المفاوضات حوالي سنة فلم يجد نفعاً . وعندئذ ساروا الى سلمية للتفاهم مع المهدي فلم يجدوه هناك لانه كان قد ذهب الى الرملة بعيد سنة ٥٢٨٦-٨٩٩ م واختفى هناك . وكان سبب هربه الى الرملة اكتشاف فعالياته من قبل العباسيين ، وارسال الخليفة قوة لاقبض عليه ، ولكنه اخبر على اجنحة الطيور بعزم الخليفة فهرب .

وربما كان لذهاب يحيى واخوته الى الشام غرض آخر ، وهو التفاهم على خطة القيام ضد العباسيين .

وعلى كل فبعد مدة وجيزة ذهب يحيى الى بنى العليص الذين انضموا الى الدعوة وتسموا بالفاطميين ، واشتغل اخوه الحسين (صاحب الشامة) اداة وصل بينه وبين المهدي في مخبئه ، بينما رجع الاصغر وهو محمد الى الكوفة لينوب عنه في المركز (١) .

ولكتاب الاستتار أهميته الخاصة ، فهو مصدر اممعيلى قديم ولعل صاحبه كان اعرف بخفايا الحركة من الطبري .

لبي البدوي يحيى بحماس وساروا على الفرات وهاجموا فرقة عباسية بقيادة سبك الديلمي مولى المعتضد (آخر سنة ٢٨٩ اكتوبر - نوفمبر ٩٠٢ م) غربى الفرات قرب الرقة فهزموها وقتلوا قائدها ثم هاجموا الرصافة واحرقوا مسجدتها (٢) .

(١) انظر ايفانوف ص ٦٠-٨٠ (٢) الطبري ج ١١ ص ٣٧٨ .

ثم ساروا الى الشام ، فلما وصلت الاخبار الى طنج (عامل هارون
ابن خمارويه على الشام ومؤسس الامارة الاخشيدية فيما بعد) سار
ضدهم بحملة تأديبية صغيرة ، والظاهر ان معلوماته عنهم كانت غير جيدة
فظنهم عصابة من البدو فهزموه هزيمة منكرة ، وهرب الى دمشق . فهاجم
القرامطة دمشق وضيقوا عليها الحصار حتى اشترك العامة في الدفاع عن
مدينتهم . واخيراً جاءت النجدة من مصر ، ودارت معركة حامية بين يحيى
الشيخ وجيوش الطولونيين امام دمشق في جمادى الآخرة ٢٩٠ هـ - مايس
٩٠٣ وانتهت بهزيمة القرامطة وبقتل يحيى الشيخ . وهكذا كان دور
هذا الزعيم قصيراً (١) .

وكان يحيى قد ادعى انه من نسل محمد بن اسماعيل (ابو عبدالله
ابن محمد بن اسماعيل ، او على قول آخر محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل)
وان له آيات « وذكر انه كان اذا اشار بيده الى ناحية من النواحي التي
فيها محاربوه ، انهزم اهل تلك الناحية فاستغوى بذلك الاعراب » (٢)
وادهى « ان ناقته التي يركبها مأمورة وانهم اذا اتبعوها في مسيرها
ظفروا » (٣) .

ثم خلفه اخوه الحسين المشهور بصاحب الشامة لوجود شامة في

(١) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ (٢) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٨٠

(٣) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٧٨ . كان يحيى يقاتل على ناقه فسمي صاحب

الناقة . وكان كما يقول الطبري ١١ : ٢٨٠ « يركب جلا برحاله ، ويلبس

نيابا واسمة يضم بعمة اعرابية ويتلم » .

وجهه « ذكر انهم آيته »^(١) وادعى انه احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل « ودعا الى مثل مادعا اليه اخوه ». فاجابه اكثر اهل البراري وغيرهم من سائر الناس واشتدت شوكته^(٢). وقد حفظ لنا الطبري رسالتين من رسائله يظهر منها انه ادعى الامامة وانتحل لنفسه جميع امتيازات الامام^(٣). ويفهم من الطبري انه « تسمى المهدي »^(٤)، الا ان الخطبة تليت في حمص سنة ٢٩٠ هـ تدل على انه كان يعتبر نفسه ممثل المهدي ومهد الامر له. فقد جاء فيها « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين . اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً ودمر اعداءه . اللهم دمر اعداءه »^(٥).

واظهر الحسين نشاطاً كثيراً ومقدرة عظيمة . وكان المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) قد أمر في رمضان ٢٩٠ / تموز ٩٣٠ باعداد حملة ضد القرامطة وذلك بنتيجة تدمير الناس من فضائع القرامطة . وبلغ عدد افرادها حوالي عشرة آلاف بقيادة ابي الاغر ، ففاجأها القرامطة في

(١) الطبري ج ١١ : ص ٣٧٨ • (٢) نفس المصدر ١١ : ص ٣٨٠ - ٣٨١

(٣) الطبري ج ١١ : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ De Goeje p. 48-49

(٤) ابن الاثير ج ٧ ص ١٧٢ ، الطبري ج ١١ ص ٣٨١ • (٥) نص الخطبة

عن ثابت بن سنان ، انظر لويس ص ١٠٩ • ويقول لويس انها تليت باسم يحيى الشيبخ وعله استقى ذلك من ثابت • وليكن هذا غير صحيح لان حمص فتحت

على يد الحسين كما يذكر الطبري وابن الاثير • ويقتد لي أيضاً ان كلا من هذين المؤرخين يقول بأن الحسين تسمى بالمهدي اعتماداً على هذه الخطبة • انظر

الطبري ج ١١ : ص ٣٨١ ، ابن الاثير ج ٧ ص ١٧٢ • انظر أيضاً مجلة

الآداب بالجامعة المصرية البول ١٩٣٦ ص ٩١ •

وادي بطنان قرب حلب ومحوها (١).

ثم سار الحسين الى دمشق ولكنه لم يدخلها لأن أهلها صالحوه
« على خراج دفعوه اليه » ثم تغلب على حمص وحماة ومعرة النعمان والنهب
والقتل يصحبانه في كل مكان . ثم نكب سامية (مقر القداحين حتى
آنئذ) بصورة خاصة فذبح عامة السكان حتى صبيان الكنتايب (٢)
ويظهر انه اراد قتل عميد الله المهدي وكل من عرفه . (٣) وضح أهل الشام
من فضائعه واستنجدوا بالخليفة الميكتفي ، فجد هذا الى مقاتلته ، وأرسل
الجيوش بقيادة قائد يقظ وهو محمد بن سليمان الكاتب . فسارت هذه القوة
تجاه سامية وقابلت القرامطة على بعد اثني عشر ميلا من حماة . وقدم صاحب
الشامة قواته وبقى وراءها مع خزائنه . وفي ٧ محرم ٢٩١ هـ / ٣٠ نوفمبر
٩٠٣ هـ هزم القرامطة في المعركة . ولما سمع صاحب الشامة هرب مع المدثر
ابن عمه ، والمطوق صاحبه ، وغلام له الى الصحراء وأخذ دليلا وسار يريد
الكوفة ولكن الجوع والتعب على ما يظهر انهكاهم . فقبض عليهم في
دالية ابن طوق على الفرات وهم يحاولون الحصول على المؤنة وجيء بهم الى
بغداد مع الاسرى الآخرين ، فقتلوا بعدما اذيقوا العذاب الأليم (٤) .

ثم جمع ثالث الاخوة ، قوة من القرامطة وقام ببعض الغارات
في جنوبي الشام ، فقتلت منه طبرية خاصة الأمرين ، ثم انسحب الى

(١) Ivanov p. 82-83 (٢) لطبري ١١ : ص ٣٨١ .

انظر استتار الامام مجلة كلية الاداب المذكورة ص ١٠٠ (٣) De Goeje P. 50

استتار الامام ص ١٠٠ (٤) لطبري ١١ : ص ٣٨٣ — ٣٨٦ — ٣٨٩

الصحراء^(١) ويظهر ان المهدي ترك الرملة في طريقه الى شمال افريقية بعد القبض على صاحب الشامة^(٢).

نستطيع ان نعزو اخفاق حركة ابناء ذكرويه الى عوامل متعددة منها انها لم يكن لها الوقت الكافي للتنظيم ، ولعل الحركة بدأت قبل اكتمالها^(٣) ثم ان انصارها كانوا من البدو بالدرجة الاولى ولم يكن هناك تعاون وثيق بين هؤلاء البدو واهل القرى. ثم ان قيادتهم لم تكن ذات كفاية ومقدرة ولم تكن لها خطط منظمة ، حتى انحطت فعاليتها الى غزوات نهب وسلب . كما ان توتر العلاقة بين المهدي وابناء ذكرويه^(٤) وسياسة المهدي السلبية كانت عاملا في تضعيف الحركة. فالمهدي كان يتجنب الخطر من بعد فهرب من سلمية حال تلبد الافق بالغيوم. ويعتقد ايفانوف ان ابتعاده عن حركات ابناء ذكرويه ناتج عن انه لا يمكنه اظهار البدو السفاكين مبشرين بظهور المنتقد . ويرى ان قتل صاحب الشامة لا يقرب المهدي في سلمية انتقام منه لان آل ذكرويه اعتقدوا بانه خانهم . ولا ننسى ان البدو لم يكونوا جيشاً نظامياً ، وقد تهدمت معنوياتهم بعد الاخفاق الاول^(٥).

وعلى كل ، فالمعلومات عن دور ابناء ذكرويه قليلة ومرتبكة جداً . ومما زاد في ارتباكها طموح ابناء ذكرويه وانتسابهم لمحمد بن اسماعيل

(١) نفس المصدر ١١ : ص ٣٨٦ (٢) p.87 Ivanov, opt. cit.

(٣) استتار الامام ص ١٩ وما بعدها (٤) نفس المصدر ص ٩٧-١٠٠

(٥) Ivauov, opt.cit. , p.87-93.

وتكذبو علاقتهم مع المهدي .

وان قبلنا نظرية لويس في الأصل القداحي لعبيد الله المهدي ،
امكن القول بان ابناء ذكرويه حاولوا أخذ محله ونصبوا انفسهم ائمة
مستودعين للامام الفاطمي ، ووجدوا في المهدي خصما لهم ، فحللوا القبض
عليه ومحو أثره .

(٨) ولننظر الى قصة الطبري والنويري عن سير القصة ومنها

نفهم ما يأتي :-

كان ذكرويه يشرف على سير الحوادث من مخبئه ، فخاف ان
تطمع الهزائم معنوية اتباعه فكتب اليهم « واعلمهم ان مما اوحى اليه
ان المعروف بالشيخ واخاه يقتلان ، وان امامه الذي يوحى اليه يظهر
بعدها ويظفر »^(١) كما انه ارسل داعيته ابا غانم الى بادية الشام سنة
٢٩٣ هـ فجمع حوله الاتباع وتمكن من نهب عدة مدن متطرفة (كبصرى
واذعات وطبرية وهيت) . ودعا نفسه بالناصر فجهز الخليفة جيشا
لتأديبه . ولكن الانقسام بين اتباعه اودى بحياته اذ قتله أحد بني كلب
متقربا الى الخليفة^(٢) . وعلى أثر هذه الحادثة دب الشقاق والتخاذل
بين قرامطة الشام^(٣) فارسل ذكرويه داعية له « من اكرة اهل السواد »
يدعي القاسم ابن احمد اخبرهم بغضب ذكرويه « وانهم قد ارتدوا عن

(١) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٠ (٢) نفس المصدر ١١ ص ٣٩٤-٣٩٥

(٣) انظر استتار الامام ص ٩١ .

الدين وان وقت ظهورهم قد حضر وقد بايع له بالكوفة اربعون الف رجل وفي سوادها اربعمائة الف رجل^(١). وطلب اليهم ان يسيروا الى الكوفة ليلحقوا بذكرويه فاجاءوا سنة ٢٩٣ هـ وعندئذ خرج ذكرويه من مخبئه وجاء اليهم . فقال لهم القاسم « هذا صاحبكم وسيدكم ووليكم الذي تنتظرونه »^(٢). ثم انضم الى ذكرويه اتباعه في السواد وكانوا « من عربي ومولى وبنطي »^(٣) وكان القرامطة يجلبون ذكرويه ويسمونه « ولي الله »^(٤) وهو من جهته لم يسمح إلا للقلائل برؤيته^(٥).

وبعد ان نظم ذكرويه قواته هاجم فرقة عباسية قرب الكوفة سنة ٢٩٣ هـ وفي سنة ٢٩٤ هـ هاجم قوافل الحجاج ونهبها وقتل الكثيرين من اهلها^(٦). فارسل المكتفي قائده وصيف بن صوارتكين فانتصر على القرامطة في معركة حاسمة وأسر ذكرويه وهو جريح ، فتوفي في الطريق الى بغداد من جراحه سنة ٢٩٤ هـ وحمل رأسه اليها^(٧).

واكن كتاب « استتار الامام » يبين ان ذكرويه قتل قبل الهجوم على سورية^(٨) ويرى ايفانوف ان مؤرخي السنة نسبوا هذه

(١) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٥ . وامل هذه المباحثات من القاسم كانت وسيلة لتقوية معنوياتهم . ونلاحظ هنا ان الطبري يعترف صراحة بأن ذكرويه كما وا يدعون للبهدي المنتظر . (٢) De Sacy, introd . p.20 عن التوري (٣) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٧ (٤) نقل المصدر والصحيفة (٥) De Goeje p.57 (٦) يقال انه قتل عشرين الفا (٧) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٨ (٨) استتار الامام ص ٩٦ .

الحركة الى ذكرويه ليزيدوا في مجد النصر ، ويرى ان هذا القائد الأخير هو قرمطي آخر (١) .

وكان انتصار صوارتكين ضربة حاسمة لهذا الفرع من القرامطة ولسكنها لم تسنأصلهم بل بقيت منهم شراذم متفرقة (٢) متكئة في بعض الجهات حتى سنة ٣١٦ هـ حينما عاث قرامطة البحرين بسواد الكوفة فتشجعوا واعلنوا الثورة . فاجتمع منهم « بسواد واسط اكثر من عشرة آلاف رجل وكان رئيسهم حريث بن مسعود » . وتجمعت طائفة اخرى بعين النمر ونواحيها « في جميع كثير » بقيادة عيسى بن موسى « وكانوا يدعون الى المهدي » . ووفق عيسى الى احتلال قسم من سواد الكوفة ، بينما بنى حريث في الموقية داراً « سماها دار الهجرة » . ثم عاثوا في جنوبي العراق وعند ذلك سير المقتدر بعض فرق الجيش لاضاء عليهم وكان لها الفوز المبين عليهم ، « وأخذت اعلامهم بيضا مكتوباً عليها : ونريدان نحن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » فكانت هذه الضربة الأخيرة لقرامطة العراق « واضمححل أمر من بالسواد منهم » (٣) .

وختاماً نقول : ان حركة قرامطة العراق والشام باءت بالاخفاق للخلاف بين زعمائها القدامين ، وللتنازع بين الشيوخ الشائرين ، وللمقاومة العنيفة التي لاقوها من الخلفاء العباسيين وخاصة الخليفة العظيم المعتضد .

(١) Ivanov, opt. cit., p. 97. (٢) الطبري ١١ : ٣٩٨

De Sacy p. 209 210, De Goeje p. 56-7 (المقدمة) (٣) ابن

المعنى الاجتماعي الاقتصادي لحركة القرامطة:

تأثرت الحركة القرمطية في العراق بظروف بيئتها الاجتماعية الاقتصادية. فقد كان منظمها الأكبر حمدان قرمط قرويا، عارفا بالمساوي التي كان يشكو منها أهل السواد. ولفهم روح الحركة يجب ملاحظة أمرين:

(١) الجماعات التي انضمت إليها. (٢) المبادئ التي بشرت بها. انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الذين كانوا يثنون من ضغط الجباة، وجشع الملاكين، ومما زاد وضعهم سوءاً ثورة الزنج التي نشرت الدمار في سواد البصرة. يؤيد هذا ما يرويه الطبري من أن الطائي الذي أخذ ثورة سنة ٢٨٩ هـ توقف عن التشكيل بالقرامطة « خوفاً على السواد أن يخرّب إذ كانوا فلاحيه وعماله ». (١) وكذلك انتشرت بين أهل الحرف وعوام المدن الذين كان مستوى معيشتهم واطناً، وكانوا جهلة لا يفهمون الشريعة، ويرون أن أوامرهم أشياء يمكن تركها متى تطلبت المصلحة ذلك. وهذا الجهل جعلهم طعمة سهلة للدعوة القرمطية الماهرة. (٢) ونجحت الدعوة القرمطية كذلك مع قبائل العراق الجنوبي وبادية الشام

(١) الطبري ١١ : ٣٧٠ (٢) القزالي — فضائح الباطنية ص ٥٣ ، ابن

الجوزي ٥ : ١١٧ ، البغدادي ص ١٤١ .

الذين كان فقرهم مضرب المثل (١).

هذه هي أهم الجماعات التي انتشرت بينها الدعوة مع انها كانت عامة . ولا يمكن القول بانها كانت لارجاع مملكة الفرس (٢) لانها ضمت الى صفوفها الفقراء العرب والنبط بينما وقفت الارستقراطية الفارسية على الضد منها (٣).

اما من حيث المبادئ ، فقد هاجم القرامطة الامراء والعلماء وقالوا ان ساعة الخلاص من استعبادهم قريبة . (٤) وظهروا للناس ابطلاً للسلم والرفاه اللذين وعد بهما العباسيون من قبل ولم يحققوها . (٥) وأكدوا أهمية الناحية المادية . يقول الديلمي « ومنهم (القرامطة) رجل اصابه فقر ومسكنه فيطمعونه في سد الخلة وجبر الفاقة » (٦) . ويفهم من النويري ان الحسين الاهوازي قال لحمدان قرمط عندما سأله هذا عن مهمته ما معناه « أمرت ان اروي هذه القرية واغني اهلها ، وان انقذهم ، واضع بيدهم ثروة اسيادهم » (٧) .

(١) البغدادي ١٤٢ ، ابو القاسم من ٩٤ De Sacy p. 170
(٢) المقدمة (٢) البغدادي ١٤١-١٤٢ (٣) الطبري ١١ : ٣٩٧ ،
Lewis-Islamic G.Wilds, E.H.R. 1937, p. 22; p. 100-102
De Geoze (٥) Barthold, m. c. p. 72-77 (٤) الغزالي من ١٠
p. 24 (٦) الديلمي من ٢٠ (٧) De Sacy p. 168 المقدمة) ويروي
ابن الجوزي الجواب كما يلي : « أمرت ان ادعو اهلياً (القرية) من
الجهل الى العلم ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة واستنقذهم
من ورطات ذلك والفقر واملكتهم مالا يستغنون به من التعب والكد
(ابن الجوزي ٥ : ١١٣) .

وقد ذهب القرامطة الى ان الدين سبب استعباد الجماهير وان نبي المسلمين « حرم عليهم الطيبات » وخوفهم باشياء لا تعقل مثل « البعث من القبور ، والحساب والجنة والنار » وكانت نتيجة ذلك ان « ان استعبدهم بذلك عاجلا وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك اموالهم بقوله : لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى .^(١) فكان أمره معهم نقدا وأمرهم معه نسيئة . » قالوا « وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد .. »^(٢) ولم تقتصر نظرتهم هذه على الدين الاسلامي بل شملت بقية الاديان . فقالوا « ان المسمين بالانبياء كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا اصحاب نوااميس ومخاريق احبوا الزعامة على العامة فخدعوهم بنيران نجات واستعبدوهم بشرائهم »^(٣) .

والخلاصة ان القرامطة قالوا بان الانبياء والحكام كانوا سبب استعباد الجماهير وشقائهم ماديا ، وانهم يريدون ارجاع المساواة الاجتماعية وانشاء الرقاه المادي . وقد حاول حمدان تطبيق ذلك بانشاء مجتمع اشتراكي لاتباعه في السواد . ففي سنة ٢٧٦ هـ فرض على اتباعه نظام « الالفه » وبموجبه تجمع اموال القرية في محل واحد ليشارك الجميع في التمتع بها ويختار

١ سورة التوري : ٢٣ (٢) البغدادي ٢٨١ — ٢٨٢

(٣) البغدادى ٢٨٨ .

الداعي من اهل القرية رجلاً ثقة ليتسلم كل ما يملكه اهل القرية من مال ومتاع وحلى ودواب . وهو من ناحيته يكسو العريان ، ويسد حاجات الناس الاخرى حتى لا يبقى فقير بينهم . وكان كل فرد يشتغل بمجد واخلاص ليحتل المركز الذي يليق بخدماته لخير المجموع . فالنساء يأتين بما يحصلن عليه من الغزل ، وحتى الاطفال يساهون الجمل الذي يحصلون عليه من نظارة الحقول ، وليس للشخص أي ملك عدا سيفه وسلاحه . وقد قال حمدان لاتباعه انهم في غنى عن المال لأن الارض لهم^(١) .

ومن هذا يتبين ان حمدان اعتقد انه لا يستطيع ازالة التدمير الاجتماعي الاقتصادي الا بانشاء المساواة المالية . ولذا كان من الضروري قطع دابر الفقر . وخير وسيلة لذلك هي اشتراكية المال . وقد قوبلت تدابيرها بكل حماس ولا سيما انه جعل ما يعطاه للفرد يتناسب وحاجته ، بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع . ولهذا فلانعجب اذا علمنا ان نظام الملك اعتبر الحركة القرمطية استمراراً لحركة مزدك الاشتراكية في العصر الساساني ، تلك الحركة التي كان أساسها « توزيع المال حسب الحاجة »^(٢) .

ولكننا لا ندري كم استمر نظام حمدان . ولعله انحل بانفصاله عن الدعوة الاسماعيلية . إلا ان آرائه الاشتراكية استمرت في البحرين

(١) De Sacy p. 189, Lewis p. 97-98 « المقدمة »

(٢) Lewis p. 96-100 ، عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٩٠ - ١٩١

حيث انشأ الحسن الجنابي (أحد دعاة كما يظهر) دولة شبه اشتراكية (١). كما ان روح تعاليم حمدان لم تختلف باختلافه . فعندما ثار القرامطة سنة ٣١٦ هـ كانت لهم اعلام بيض مكتوب عليها « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » (٢). وهكذا كانوا دائماً يحلمون بقلب النظام الاجتماعي و بانتقال الثروة اليهم يوم الفوز المبين. ونقول ان نزعة القرامطة المادية ورغبتهم في قلب النظام الاجتماعي كانت واضحة عند اخوان الصفا الذين حاولوا قلب المجتمع وانشاء العدل الاجتماعي عن طريق نشر المعارف بين الجماهير وللتأكيد على شرف العمل واهمية اصحاب الحرف (٣).

ملحوظة : هذا الموضوع ملخص عن

Duri-studies on the Economic life of Mesopotamia in the 10 th century. pp. 81-88.

— ٢ —

ويرى ماسنيون ان الحركة القرمطية (او الاسماعيلية) هي التي اوجدت الانقلابات الاسلامية واعطتها ميزات الخاصة التي حافظت عليها الى الان . إذ يقول ان الانقلابات الاسلامية كانت قبل كل شيء سلاحا

(١) لقد تعرضت لذلك في المقدمة ولا ارى ضرورة للبحث عن قرامطة البحرين ، فقد عالج ذلك De Goeje في كتابه Memoire sur les Carmathes du Bahrain, Leide 1886 (٢) القرآن الكريم سورة

٢٨ آية • (٣) Duri p. 88-91

شهره الدعاة القرامطة في كفاحهم لجمع طبقة العمال في العالم الاسلامي
ولتكوين قوة منهم تستطيع قلب نظام الخلافة وكل ما تمثل. وللتوصل
الى استغلال اصحاب الحرف اوجدوا النقابات وسيطروا عليها ، وهكذا
أصبح لها خاصتان : اولا كونها نقابات للحرف ، وثانيا كونها مؤسسات
قرمطية (١) .

وقد فحص لويس الدلائل المؤيدة لهذه النظرية فلاحظ عدة : منها
اهتمام الاسماعيلية العظيم باصحاب الحرف وبالاصناف ، وان اخوان الصفا
خصصوا رسالة في موسوعتهم للعمل واهله ولنبله الذاتي . ثم ان النقابات
كانت مضطهدة في ظل الحكم السني ومقيدة بقبود كثيرة (كما يعتقد)
وخاضعة لمراقبة دقيقة - في حين انها كانت مرفهة عند الفاطميين وتمتع
بامتيازات كثيرة . وهناك أثر الاسماعيلية ، حتى بعد اختفاء دعوتها ، في
تطور النقابات ، ويستشهد لويس برأى كوبريلي بان الاصناف في الاناضول
كانت تحتفظ بنظام متدرج في التنشئة يشبه بدقة النظام الاسماعيلي ، كما ان
دراسة اصناف مختلفة في أنحاء مختلفة من العالم الاسلامي اظهرت آثاراً
مماثلة . واخيراً لاحظ وجود افراد من مذاهب واديان مختلفة بين اعضاء
النقابات ، اذ يقبل اليهودي والمسيحي والمسلم بالشروط نفسها حتى ان
بعضها يغلب فيها غير المسلمين كنقابات اطباء والصاغة .

(١) انظر Massignon-Paisson d'al-Halladj, vol. I. p.

ثم استنتج لويس ان الحركة القرمطية قامت بدور هام في تطور النقابات الاسلامية وترك اثرًا عميقًا خالدًا في حياتها الداخلية ثم اعترف بعدم وجود برهان واضح يبين ان الحركة القرمطية اوجدت النقابات ولكنه يرجح ان الحركة القرمطية بعثت روحا جديدة وتشكيلات جديدة في حركة موجودة من قبل (يقصد حركة النقابات) (١).

وليس هذا محل تفصيل نشأة النقابات الاسلامية ولكني ابين ان الذين بحثوا في الموضوع (٢) لم يستطيعوا معرفة اصول النقابات ، بل عرفوا تلك المؤسسات بعد ظهور فعاليتها على مسرح التاريخ بعد القرن الخامس الهجري بصورة خاصة . وقد أدى بي بحثي الخاص (٣) الى نتائج اذكر بعضها بايجاز : -

تكون التنكثل بين اهل الحرف نتيجة لسوء وضعهم الاقتصادي وانحطاط منزلتهم الاجتماعية منذ القرن الثاني للهجرة . وظهرت بوادره في حركات العيارين والشطار الذين تسلمت منهم حركة الفتوة المشهورة . (٤) ثم ان انتقال المجتمع العباسي من طور زراعي الى طور تجاري بالاضافة الى وضع اهل الحرف في احياء منفصلة خاصة بهم كما في بغداد وسامراء

(١) لويس — النقابات الاسلامية (معرب خطي) (٢) خاصة

ماسنيون ولويس و Taeschner (٣) Duri-studies p. 81-91

(٤) ولا بد لي ان ابين ان عدم فهم المؤرخين لنبل مبادئ العيارين والشطار وتنظيماتهم الداخلية ، وملاحظتهم مظاهر اعمالهم فقط ، جعلتهم يتسولون في الحكم عليهم .

ساعد على زيادة التكتل وعلى تعقيد التنظيم الداخلي عندهم . ولدينا دلائل قاطعة على تكون النقابات قبل ظهور الحركة الاسماعيلية ^(١) .

واذن فقد ظهرت النقابات الاسلامية نتيجة للوضع الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الاسلامي ، ولم تكن موروثه من العالم اليوناني الروماني كما يظن لويس ^(٢) وكانت تلك الاوضاع نفسها مسؤولة لححد كبير عن ظهور الحركة الاسماعيلية فيما بعد . وكان من الطبيعي ان يسعى دعاة الاسماعيلية والقرامطة لاستغلال اهل الحرف وعوام المدن للاستعانة بهم في الكفاح ضد العباسيين ، فنظموا ذلك التدمير مهم وقاموا بدور مهم في تنظيمات اصحاب الحرف وفي اسسها النظرية . ولا بد من بيان ان اصحاب الحرف لم يكونوا دائماً مضطهدين في الدول السنية ، وان الرقابة على الصناعات حتى القرن الخامس الهجري لم تكن الا فنية هدفها منع الغش في المنتوج وفي المعاملات ^(٣) . وان حصل اضطهاد فيما بعد فان

(١) انظر التتويحي — انرج بعد اشدة ج ١ ص ١١٢ — ١١٤ : المسعودي
عن العيارين والشطار ودورهم في انزاع بين الامين والمامون ، القشيري —
الرسالة ص ١٢١ — ١٢٤ ، تليس ابليس لابن الجوزي ص ٣٩٤

(٢) لويس — النقابات

(٣) انظر الماوردي (٤٥٠ هـ) عن الحسبة ، وانظر رسائل الصابي .

ذلك كان بعد تأثر اصناف الحرف بالحركة الاسماعيلية (١).
والخلاصة أن النقابات ظهرت قبل الحركة الاسماعيلية. ولما ظهرت
هذه حاولت ضم تلك الى صفوفها واثرت فيها بدعايتها وقامت بدور
عظيم في تطور مبادئها وتنظيماتها.

(١) انظر عن النقابات والاصناف .

Encyclopedia of Islam - art. SINF ; SHADD
KARMATIANS; Encyclopedia of Social Scie-
nces - art. GUILDS (Muslim)

عصر المقتدر

عصر مقتدر

كان الخليفة المعتمد رجلاً ضعيفاً كثير الانغماس في الترف واللهو، وكان الموفق اخوه الذي اشركه في الحكم معه — قائداً قديراً وسياسياً محنكاً استطاع ان يقبض على زمام الامور وان يجعل اخاه ظلالة له اما موسى بن بغا سيد الحرس فلم يعترض على تسلط الموفق بل قام بخدمته بولاء واخلاص .

نجح الموفق في القضاء على حركة الزنج الخطرة، وانقذ الخلافة من خطر الصفارين حين حال دون تقدم يعقوب عند دير العاقول، واطهر حزمياً وبراعة في الادارة. ولكنه اخفق مع ابن طولون الذي ولي مصر بالنيابة سنة ٢٥٢ هـ والذي سرعان ما نجح في تقوية مركزه حتى صار يخشى انفصاله، فحاول الموفق اخضاعه عسكرياً فخاب. وفي سنة ٢٦٤ هـ ضم ابن طولون سوريا الى مصر ولما شعر هذا بتدبر المعتمد من هيمنة اخيه دعاه اليه الى دمشق، فادى ذلك الى التصادم النهائي بينه وبين الموفق وانسلخت سورية ومصر نهائياً عن جسم الخلافة حتى سنة ٢٧٩ هـ، حين قدم خمارويه بن احمد ولاءه للمعتضد.

وفي سنة ٢٧٨/٨٩٢ م توفي الموفق، فانتقل المعتمد الى بغداد، كما

انتقل السلطان الفعلي الى ابي العباس احمد المعتضد بن الموفق الذي نجح في تنحية ابن عمه عن العهد ثم بويع له بالخلافة عند وفاة عمه .

يوصف المعتضد بالشجاعة ، ومع انه لم يكن موفقاً دائماً في حروبه ، الا انه ورث قوة والده واشتهر بالنشاط والسرعة في اعماله ومع انه كان سريع الغضب الا انه كان شديد العدالة . وكان رقيق العاطفة ، الا انه كان قاسياً في الحق . هذا الى انه كان دقيقاً في محاسبة عماله وذلك شيء يحمد عليه في تلك الظروف المضطربة ، فقد بدأ حكمه ويبت المال خاو ، ومات وفي بيت المال الخاص عشرة ملايين دينار . ويقول المسعودي انه كان مولعاً بالنساء مغرمًا بالبناء .

وقد آتم المعتضد ما بدأ به والده في تقوية كيان الدولة العباسية ، ففضى على الثورات الداخلية ، بان ضرب الاعراب والاكراد الذين كانوا يعيشون في شمالي العراق ووسطه ، وقضى على ثورة الخوارج في الجزيرة ، وانزل بقرامطة العراق ضربات قوية حتى اخمدت حركتهم . واتبع مع الامراء المنفصلين سياسة اللين والمساومة ولم يغفل عن الفرص السائحة لاخضاعتهم . فاستغل الخصومة القائمة بين آل ابي دلف الذين كانوا أشباه مستقامين في منطقة الجبال ، فضم تلك المنطقة ثانية الى الخلافة وشجع الخصومة بين الصفارين والسامانيين ، وبذلك تخلص من الصفارين ، وجعل علاقته بالسامانيين ودية . ونجح في تحسين صلته بالطولونيين ، حتى استطاع في سنة ٢٨٥ هـ ان يضم الى جسم الخلافة غربي الجزيرة

الذي كان تابعا لسورية ، كما خضع له خمارويه نفسه واخذ يدفع له
جزية سنوية .

واهتم المعتضد باصلاح الوضع المالي في العراق ، فاعتنى بتحسين نظام
الري وبحفر القنوات ، وساعد الزراع بتقديم البذور والمعونة اليهم ،
وحاول تحسين طرق الجباة وقام باصلاح مهم وهو تأخير موعد الجباة من
نيسان الى حزيران ليتفق ذلك وموعد نضج الزرع واهتم بحماية الزراع من
عبث الموظفين والجباة .

وبذل جهداً كبيراً لوضع الخزينة على اساس رصين ، بان ضمن السواد
للطائي مقابل كمية من المال تكفي نفقاته اليومية واهتم بتنظيم الضرائب حتى
بلغ وارده حداً لم يصل اليه من قبل احد . ونظم الضرائب في المناطق التي
أخضعها حديثاً ولا سيما في الجبال والجزيرة . وفي عهده انشئ ديوان الدار
ايشرف على الدواوين المختلفة التي تنظر في الامور المالية وتنظيم اعمالها .
وكان للوثام بين القوة الادارية وال جيش اثر يذكر في استرجاع
الخلافة عزها فكان بدر قائد المعتضد يخلص لسيدته ولا يتدخل في السياسة .
جاء المكتفي سنة ٢٨٩ هـ الا انه لم يكن قاسياً قسوة والده فاجتذب

قلوب الناس بهدم السجون التي انشأها المعتضد ولكنه من الناحية الاخرى
لم يكن له حزم والده . فوقع تحت تأثير وزرائه والمقربين اليه خاصة مولاه
فاتك ، وورث عن والده حبه للبناء فقد بنى المعتضد قصر الثريا والفردوس
ووضع اسس قصر التاج فاكمله المكتفي وبنى مسجداً في ساحة البلاط كما

انه ورت عن والده حبه لجمع المال ، فاضاف الى خزينة الدولة في خلافته
القصيرة ما يزيد على اربعة ملايين دينار الى ما جمعه ابوه .
وتراءى للناس ان الخلافة استعادت مجدها واسترجعت عزها ،
فقد قضى المكتفي على ثورات القرامطة في بادية الشام وسورية واخضع
سورية للخلافة ، كما انه استغل الفوضى في مصر ، وتدمر الجيش هناك
فنجح في القضاء على الطولونيين واسترجاع مصر سنة ٢٩٤ هـ ولكن
صحة المكتفي لم تكن حسنة منذ طفولته فتوفي سنة ٢٩٥ هـ ولاحت
سحابة سوداء في سماء الخلافة .

ومن المفيد القاء نظرة على الادارة العامة لنفهم التطورات التي
حصلت في عصر المتقرر . كان الحكم في العصر العباسي اوتوقراطيا
والخليفة مصدر السلطات الا انه كان (نظريا على الأقل) مقيدا بالشرع .
والشريعة تسير كل فعالية دينية او دنيوية مستقمة اصولها من القرآن
والسنة والاجماع ويفسرها الفقهاء القضاة وهم ان يسترشدوا بالسوابق
او يقيسوا عليها (القياس) . ولكن استقلالهم كان مقيدا بكونهم
موظفين احيانا .

وكان الخليفة يمارس سلطته بواسطة الوزير ، وتختلف سلطة الوزير
حسب قوة الخليفة وضعفه وحسب موقف الحرس التركي منه . وعلى كل
فسلطة الوزير مفوضة اليه من الخليفة واذا ما استبد فالعاقبة وخيمة .
ويساعد الوزير في الادارة العامة عدد من الدواوين يرأس الواحد منها

كاتب يعاونه في ذلك عدد من الكتاب الاصاغر . والوزير نفسه عادة من الكتاب كما ان الكتاب يرتقون الى مناصبهم من مناصب الكتاب الاصاغر .

ومن الدواوين المهمة في هذا العصر ديوان الخراج (للواردات) وديوان النفقات (الخرج) يشرف على كل منهما زمام ، وديوان الرسائل ، وديوان التوقيع ، وديوان الجند ، وديوان النظر في الاظالم ، وديوان البريد ، وقد توسع ديوان الخراج حتى صرنا نسمع بعدة دواوين في بغداد تقوم باعماله ، وهي ديوان السواد ، وديوان المشرق وديوان المغرب في عصر القندر .

وكانت التعيينات للولايات من صلاحية الوزير . ولكل ولاية امير ، وعامل (على الخراج) وقاض وقائد وصاحب شرطة وصاحب بريد . وقد تكون تلك الوظائف بيد شخص واحد واحيانا بيد اشخاص متعددين . وكان الوزير يهتم بالدرجة الاولى بالمالية ، ويعنى قبل كل شيء يقضيه جباية الضرائب وانفاقها . وكانت الضرائب تجبي اول الامر من قبل موظفين خاصين ، ثم تلاشت هذه الطريقة بالتدريج وخلفتها طريقة الضمان وبموجبها يتعهد شخص ما بدفع مبلغ معين للخزينة سنويا مقابل السماح له بجباية ما يستطيع من اهل ولايته . واذالم تكن الولاية مهمة بحيث يعين لها امير فالضامن اهم موظفيها وبذلك يتسنى له جميع كميات كبيرة من الهدايا والمرافق .

في هذا الدور نقصت الموارد بتأثير الحروب والفتن ، وانفصال بعض الولايات وازدياد الترف والنفقات ، وقلة الامانة والتدقيق والمحاسبة ، وفساد نظام الري . ومن ثم فلا غرابة ان احدثت ضرائب جديدة غير شرعية -بالاضافة الى الزيادة والفساد في الضرائب القديمة .

ولا بد ان نبين ان العادة في هذا الوقت كانت بأن يختار الوزير الموظفين اصدقاءه ومقربيه ، ولذا فكل طامح الى الوزارة وكل وزير كانت تحيط به عصابة من المؤيدين له تأمل ان تتسلم الوظائف عند استيزاره وتحاول قدر الامكان ان تخلص نفسها من الاضطهاد والمصادرة اللذين كانا تصيبان الوزير المعزول وعصبته . وفي العادة ان يصادر كل موظف معزول يقبض عليه ، على مقدار من المال اذ يؤخذ خطة بذلك ويودع في السجن حتى يدفع قسما من ذلك المال على الاقل . وكان كل طامح الى الوزارة يتعهد للخليفة بانه سيجادل استحصال مقدار من المال من العصابة المنبوذة . وكان ذلك مورداً يحسب له حسابه في اوقات الازمات .

واخيراً نقول ان المنافسة بين الكتاب في هذا الدور وظهور كتاب عباقرة من بين آل الفرات وآل الجراح اديا الى تكون حزبين متنافسين من الكتاب وهما آل الفرات وآل الجراح . وفي وسط هذا التنافس توفي المكتفي . وافتتح عصر المقتدر الذي كان حاسماً لا لأهمية الخليفة بل لضعفه وللظروف المحيطة بالخلافة وللنتائج التي ترتبت

عليها (١) .

— ١ —

جاء المقتدر ليحكم مملكة عادت اليها هيبه الخلافة ، واسترجعت فيها البيروقراطية الادارية اهميتها وفعاليتها ، وتوقف الجيش عن التلاشب بسياستها العامه ، وحصل نوع من التوازن بين مختلف العناصر . الا ان حكمه شهد رجوع الانقسام والتصادم بين العناصر المتنفذة ، وتضعف سلطان الخلافة حتى انتهى بخضوعها لحكم اجنبي .

وهناك ظروف متعددة قامت بدورها في تصديع كيان العباسيين . منها ضعف المقتدر نفسه ووقوعه تحت تأثير الحرم ، وانقسام البيروقراطية على نفسها ، وعودة الجيش الى التدخل في السياسة ، وفعاليات القرامطة . ولذا كان عصر المقتدر جديراً بالبحث بدقة وتفصيل لانه المرحلة الأخيرة في انهيار اسس الخلافة العباسية (٢) .

(١) بعض المراجع :

Bowen-The Life and Times of Ali b. Isa

الطبري . المسعدي . ابن تغربردي . المنتظم لابن الجري . الصابي - الوزراء . البيروني - الاثار الباقية . اثترخي - الفرح بعد الشدة .

(٢) بحث الاستاذ Bower هذا الموضوع في كتابه

Harold Bowen-The Life and Times of "Ali" b. Isa
"the Good Vizier" Cambridge 1928.

معتمداً على المخطوطات والمطبوعات التي لا يتيسر الحصول على قسم كبير منها ولذا استفدنا منه في هذا الفصل ، مع الرجوع الى المصادر الموجودة لدينا وقد خرجنا على الطريقة المؤلفة في سرد الحوادث حسب تسلسلها التاريخي وفضلنا ان نأخذ القوى والتيارات المختلفة ونراعي اثر كل منها من حيث هي وحده خلال هذا العصر

ليتسنى فهم روجه .

ولثلا يجد القارىء صعوبة في تتبع البحث قدمنا قائمة باسماء وزراء
المقتدر وقرات حكمهم .

ابن الفرات (وزارته الاولى) ربيع الاول ٢٩٦ - ٤ من ذي الحجة ٢٩٩
الخاقاني (ابو علي محمد بن عبدالله)
١٠ محرم ٣٠١

علي بن عيسى (وزارته الاولى)
٨ من ذي الحجة ٣٠٤

ابن الفرات (وزارته الثانية)
٢٥ جمادى الاولى ٣٠٦

حامد بن العباس (مع علي بن عيسى) ٢ جمادى الآخرة ٣٠٦ - ٢٠ ربيع الآخر ٣١١

ابن الفرات (وزارته الثالثة)
ربيع الاول ٣١٢

ابو القاسم عبدالله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني
رمضان ٣١٣

الخصيبي
١١ من ذي القعدة ٣١٤

علي ابن عيسى (وزارته الثانية) ٥ صفر ٣١٥ - ١٥ ربيع الاول ٣١٦

ابن مقله
١٥ جمادى الاولى ٣١٨

سليمان بن الحسن بن مخلد
٢٤ رجب ٣١٩

الكلوذاني
٣٠ رمضان ٣١٩

الحسين بن القاسم
ربيع الآخر ٢٢٠

الفضل بن جعفر
٢٦ شوال ٣٣٠

✓ رجعت الوزارة الى اهميتها في تسيير سياسة الدولة . وصار للكتاب
أثر هام في الادارة . واشهر الكتاب في اواخر ايام المكتفي علي بن

عيسى بن داود بن الجراح وعمه محمد بن الجراح ، وابن عبدون ،
وعلي بن الفرات .

وكان الكتاب منقسمين (لاسباب شخصية ولاختلاف في الآراء
السياسية) الى كتلتين : جماعة آل الفرات وعلي رأسها علي بن الفرات
وجماعة آل الجراح وعلي رأسها محمد بن داود . اما وزير المكتفي العباس
ابن الحسن فكان متردداً اول الأمر .

وظهر التضارب جلياً بين الكتلتين بسبب مشكلة العهد . فقد كان
المكتفي يحب حفظ الخلافة في ابناء ابيه واكبرهم المقتدر الا ان الوزير
لم يكن يستحسن تولية المقتدر لصغر سنه . فحاول مرتين قبيل وفاة المكتفي
ان يرشح للخلافة شخصياً من غير ابناء المعتضد (١) . فاثار بذلك شكوك
الخليفة ودفعه الى ان يدعو القضاة ويبين بحضورهم انه يرشح اخاه
المقتدر للخلافة (٢) .

ثم مرض المكتفي مرضه الأخير دون عهد صريح فحصلت مشكلة
العهد للوزير الذي أخذ يستشير رؤساء الكتاب في الأمر فوجدهم مختلفين
في الرأي . فمحمد بن داود وابن عبدون كانا يرشحان عبدالله بن المعتز
اذ (بالإضافة الى المنافع الشخصية) كانا يعهدانه رجلاً قديراً مجرباً ،
ويتوسمان فيه النجاح في السياسة والحرب . اما ابن الفرات فلم يرق له

(١) وفعلاً حاول ذلك مرتين ، وكان اول المرشحين ابن المعتمد والثاني ابن
المعز كل فافق (٢) مسكويه ج ١ ص ٤ عريب (اوربا) ص ٢١ ، ابن الجوزي
المنتظم ج ٥ ص ٦٨ .

تولية خليفة قوي ، ولذلك اقترح ترشيح جعفر بن المعتضد (المقتدر فيما بعد) لانه صغير يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، وهمه ان يعفي من دروسه فاذا كبر يكون الوزير قد حجب نفسه لديه بحيث لا يستغني عنه . ثم بين للوزير سوء معاملتهم لابن المعتز ، وان أقل ما يتوقعونه منه متى صار خليفة هو الاهل (١) .

وفي ليلة وفاة المكتفي جمع العباس بن الحسن الكتاب ليتفقوا على من يولونه الخلافة فأصر كل على رأيه وأيد علي بن عيسى ترشيح ابن المعتز لكبر سنه وتجربته . الا ان العباس مال الى رأي ابن الفرات مع انه استحسّن رأى آل الجراح من قبل (٢) . ولكنه ابدى مخاوفه من ثورة الناس لصغر سن المعتذر فاجاب ابن الفرات بانه يمكن التخلص من كل متذمر بتوزيع ارزاق اضافية للاجند مقدما (٣) . وهكذا بويع المعتذر . ولكن جماعة آل الجراح لم ترض بذلك وقررت بيعة ابن المعتز الذي قبل الفكرة على ألا تسفك الدماء . واعتقد المتآمرون ان اهل بغداد يؤيدونهم كما ان الوزير ازعج رجال الحاشية بكبريائه واسخط اهالي بغداد لعدم سماع مظالمهم . واستطاعوا استمالة بعض الموظفين والقواد وثاروا بعد اربعة شهور وقتلوا الوزير وحاصروا الخليفة في قصره واعلنوا بيعة ابن المعتز وخام المعتذر . وكان هذا مستعداً للتنازل ، الا ان حرسه

(١) انصابي الوزراء ص ١١٤ - ١١٥ ، مسكويه ج ١ ص ٢ - ٣

انصابي ص ١١٦ - ١١٧ ، عريب ص ٢٥ انصابي ص ١١٦ .

وعلى رأسهم مؤنس ثبتوه وقووا عزيمته وصمدوا للتأثرين وفاجئوهم
ومزقوا جمعهم وقتلوا ابن المعتز (١).

— ٢ —

وكان المقتدر مترفا انفق في سنين قليلة ما جمعه ابوه واخوه ، وبذر
كنوز الدولة ، من جواهر وحلى كخاتم هارون الرشيد الذي اشترى
بثلاثمائة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي تزن ثلاثة مثاقيل والتي قدمها
لاحدى حظاياه (٢) . وكان مدة حكمه الطويل يشكو قلة المال . وكان
كثير الانهماك في الشرب حتى صار ذلك من العادات في البلاط (٣) .
ومع ذلك فلم يكن يخلو من بعض المزايا الحسنة ، اذ كان كثير الصوم والصلاة
(في ساعات صحوه) ويرى علي بن عيسى انه كان عاقلا (٤) .

ولعل تربيته وصغر سنه اوقعاه تحت تأثير الحرم ، وبالدرجة الاولى
امه شغب (التي صارت تعرف بالسيدة) ثم قهر ماناتها وخاصة ام موسى
الهاشمية . اما السيدة فكانت اغريقية الأصل وكانت حظية للمعتضد ،
ثم أصبحت في خلافة ابنها اهم شخصية في البلاط . وكان المتندر يعاملها
بمنتهى الاحترام حتى كانت طلباتها تنفذ حتما . وكان تأثيرها بصورة
عامة مضراً ، اذ انها افسدت ابنها بتشجيعه على الانهماك في الملاذ وعلى
التبذير . ولعلها كانت حمقاء وليست خبيثة اذ انها كانت متدينة

(١) عريب ص ٢٨ - ٩ ، مسكويه ج ١ ص ٧ - ٨ ، الصابي ص ٢٣ ،

برين ص ٩٣ (٢) Bowen p. 98 التنبية ٤ ص ٣٢٨ ، الفجري ص ٢٣٤

(٣) نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٤ (٤) Bowen p. 98

انفقت قسماً كبيراً من ثروتها في الاعمال الخيرية (١).

ومن المفيد ان نذكر بعض الامثلة على تدخل الحرم . ففي وزارة ابن الفرات الاولى كانت السيدة تؤكّد لابنها فضل الوزير ونصرته له وتطلب منه ان يثق به ، بينما كانت تطلب من الوزير ان يعامل المقتدر كما يعامل ابنه . وقام الحرم بدور مهم في استيزار الخاقاني ، اذ قدم هذا الى ام ولدثانية للمعتضد مائة الف دينار وطلب منها ان تتوسط لدى الخليفة والسيدة لاستيزاره وخذع الحرم بورعه الكاذب حتى نجح في الحصول على امنيته (٢) . وكان من اسباب سقوط علي بن عيسى في وزارته الاولى ان ام موسى القهرمانه قدمت اليه (وهو في مجلس هام للنظر في امر القرامطة الذين صاروا يهددون بغداد) قائمة بنفقات بسيطة تطلبها السيدة . فوضع القائمة جانبا فغضبت القهرمانه ولم تقبل عذره ، وازعجته فصاح بها ، وبذلك اكتسب عداها . وزاد الطين بلة انها جاءت الى داره قبيل العيد بطلبات ، فاخبرت بانه نائم لا يمكن ازعاجه ، فلم تغتفر ذلك وصارت تسعى عليه (٣) . ولما أخذ ابن الفرات يسعى لوزارته الثانية كان أهم وعوده انه يتعهد بدفع حوالي ثلاثمائة دينار يوعيا في اثناء وزارته للسيدة (٤) .

وبلغ من نفوذ ام موسى القهرمانه انها اتهمت سنة ٣١٠ هـ بانها تسعى لنقل

(١) شرحه ص ١٠٢ التنبيه ص ٣٢٨ (٢) بوين ص ١٠٤-١٠٥ . (٣) شرحه

١٤٨ (٤) مسكوية ج ١ ص ٤٢-٤٤ هلال ص ٣٠-١

الخليفة لأحد أحفاد المتوكل^(١) . وكان من أهم أسباب استيزار الخصبي
انه كان كاتب السيدة ، وان ثمل القهرمانه ذات النفوذ العظيم^(٢) .
كانت تؤيده^(٣) .

— ٤ —

ولترجع الآن الى التيار الرئيس ، وهو دور الوزراء والكتاب
لنرى كيف صدعوا كيان الدولة بدسائسهم وكيف حطموا الماكنة
الادارية بانقسامهم وتخاصمهم . فمع ان عزلهم وتولييتهم كان بيد الخليفة
فانهم غطوا على شخصيته الضعيفة وقاموا بدور أساسي حتى حطمتهم أخيراً
قوة الجيش وعداؤه لهم .

ولما انتهت فتنة ابن المعتز استوزر المقتدر ابا الحسن علي بن الفرات
الكتاب الوحيد الذي لم يشترك فيها فظهر اعتدالا في سياسته اذا كفى
بنفي ابن عبدون الى الاهواز حيث قتل لاتهمه بمؤامرة ضد الخليفة . ونفى
ابن عيسى الى واسط ثم ارسله الى مكة حسب رغبته . اما محمد بن داود
فقتل مع ان ابن الفرات كان يفضل خلاصه . واراد ابن الفرات استرضاء
اعدائه ، فاحرق قائمة وجد فيها أسماء المتآمرين^(٤) .

(١) مسكوية ج ١ ص ٨٣ - ٤ (٢) مما يدل على مدى نفوذها انها كانت «تجلس
لنظر في مظالم الخاصة والعامة وبحضرها الوزير والكتاب والقضاة واهل العلم» انظر
التنبيه والاشراف ص ٣٢٨ - ٣٢٩ . (٣) Pcwen p. 247 - 24٤ (٤) الصابي ص
١١٩ - ١٢٠ مسكويه ج ١ ص ١٤ ، الفخري ٢٤٠ .

ثم حاول ابن الفرات ان يستفيد من من كزه ، وسعى لجمع المال على حساب الدولة والخليفة مع ان دخله قبل الوزارة بلغ مليون دينار سنويا وكان يملك من العين والورق والدور والاثاث ما يساوي عشرة ملايين دينار^(١) ومنح اقاربه واصحابه احسن الوظائف في الدواوين .^(٢) ثم نحى ابن الفرات عن منصب الوزارة لعداء مؤنس له ، ولحصول ازمة مالية ولد سائس الخاقاني الذي اوهم الخليفة ان ابن الفرات يسعى لخلعه ، فقبض عليه ونهبت دوره وولي الخاقاني^(٣) .

كان الخاقاني خبيثا وغير قدير فأخفقت ادارته اخفاقا ذريعا ، واشرك ابنه عبدالله معه ولكنه كان سكيما ولم تكن له المقدرة على الادارة ، وكان نتيجة ذلك ان اهمل الاثنان قراءة الرسائل وتركا الاجابة عنها الى الكتاب فتكدست الاشغال وتوقفت ما كتته الادارة . هذا بالاضافة الى كون الخاقاني وابنه غير امينين فعييد الله كان يبيع الوظائف او يعطي طالب الوظيفة وظيفة مشغولة لقاء مبلغ من المال ومن ظريف ما يحكى في هذا الباب ان هذا الوزير أرسل سبعة عمال في يوم واحد الى منطقة واحدة . كما انه اخفق في النواحي المالية حتى اضطر للاستدانة من الخزينة الخاصة^(٤) .

وخلفه علي بن عيسى فوجد الادارة مرتبكة والخزينة في حالة يرثى لها . فأخذ يشتغل بجد من الفجر حتى صلاة العشاء يوميا . وسار على

(١) الصابي ص ٧٩ ص ١١٦ - ٧ ، ص ١٤٠ ، مسكويه ج ١ ص ١٣ ، عرب ص

٣٧ . (٢) عرب ص ٣٤ ، الصابي ص ١٧٨ . (٣) ١٠٦ - ١٠٧ : B w en p .

٤ شرحه ص ١١٢ - ٣ .

الطريقة المألوفة في تعيين الاقارب والاصدقاء الا انه اكتفى بالتقديرين منهم^(١) . ومع ذلك فقد استخدم بعض انصار ابن الفرات مثل هشام ابن عبدالله في ديوان الدار^(٢) والفضل بن جعفر (ابن اخت ابن الفرات) في نيابة ديوان المشرق^(٣) .

ثم سقط علي بن عيسى لعداء الحاشية التي أضرت بها تدبيره المالية ، ولعداء ام موسي القهرمانة ولد سائس ابن الفرات ضده^(٤) . وجاء ابن الفرات ثانية . ولكن تبذيره وزيادته للرواتب والمخصصات وثورة ابن ابي الساج عامل ارمينية واذريجيان اوقعته في ازمة مالية ، كما انه اوجد في البلاط عصبة تناصبه العداء من الذين استرجع منهم ضياعه (التي صودرت عند عزله كما كانت العادة) . وانضم اليها ابن دقله الذي اعتقد بان الوزير لم يكفئه على اخلاصه له ، ودس الى القنطرة ان الوزير اخفى عنه بعض الاموال . وعندئذ قدم القنطرة الى علي بن عيسى قائمة باسماء الذوات المرشحين للوزارة ، فمال علي الى حامد بن العباس ضامن منطقة واسط الذي كان ثريا وفاضلا^(٥) . وكان حامد من اصل وضع فكان سقاء وكان بائع تمر^(٦) . ولكنه جمع ثروة صائلة وضمن بعض المقاطعات من الحكومة^(٧) .

(١) عريب ص ٤٢ . (٢) وكان آئند كديوان مركزي بالنسبة للدواوين الاخرى . (٣) الصابي ص ٧٩ ، ص ٢٠٨ ، ص ٢٧٩ . (٤) انظر مسكويه ج ١ ص ٤٢-٤٤ ، الصابي ص ٣٠-١ ، ص ٢٨٥-٦٦ ، مسكويه ص ٤٠ عريب ص ٦١ . (٥) بزين ص ١٥٧-٩ . (٦) يقرت معجم الادباء ج ٥ ص ٣٢٥ . (٧) عريب ص ٧٢ .

وفي هذا الحين انتصر ابن ابي الساج على جيش مؤنس ، واتهم
ابن الفرات بممالة ابن ابي الساج الثائر ومن ثم اراد تبرئة نفسه فارسل
قائداً ضد ابن ابي الساج واقترح ارسال الحسين بن حمدان ، ولكن نصراً
الحاجب وشى الى المتتدر بان معنى ذلك ثورة الحسين واتفقه مع ابن ابي
الساج بتشجيع ابن الفرات . فرعب الخليفة وقرر استبزار حامد وامر
بسجن ابن الفرات واتباعه^(١) .

وجاء حامد بأبهة عظيمة من واسط الى بغداد ، ولم يمض يوم على
وصوله حتى ظهر جهله بأداب البلاط وبشؤون الدولة . فغضب المقتدر ،
ولام حاشيته ، فاقترحوا عليه تعيين علي بن عيسى مساعداً لحامد ،
فرضي وطلب من علي ان يكون كاتباً او نائباً لحامد (في الظاهر ، والوزير
على الحقيقة) كما قال نصر الحاجب) وبعد تردد رضي علي^(٢) .

وفعلا تركت السلطة بيد علي حتى انه صار لا يستشير رئيسه في
شيء من امور الدولة ، ولم يبق لحامد سوى سواد الوزارة والظهور في
الحفلات الرسمية^(٣) . ففكره حامد ذلك الوضع وفكر بخطه تعيد له النفوذ
بان طلب ضمان ضرائب السواد والاهواز واصفهان بزيادة اربعمائة الف
دينار سنويا على الضمان الاعتيادي ولكن علياً عارض في ذلك وحذر الخليفة

(١) مسكويه ج ١ ص ٩٦-٨ الصابي ص ٣٢-٣ ، عريب ص ٧٢-٣ ،
بوين ص ١٦١ . (٢) الصابي ص ٣٤٧-٨ عريب ص ٧٣-٤ مروج الذهب
ج ٤ ص ٣٣٣-٤ بوين ص ١٦٤ . (٣) الفخري ص ٢٤٣ ، مسكويه ج ١
ص ٥٩ اثيرج ٨ ص ٣٥ .

من ظلم حامد وأنه بذلك الضمان سيخرب البلاد ، وأنه يتعارض مع سياسته التي تقضي بفرض ضرائب معتدلة لتشجيع العمارة ولارجاع الرفاه . ولكن المقتدر لرغبته في جمع المال لم يفهم سياسة علي واجاب طلب حامد . بعد هذا الحادث اصبحت الحرب علنية بين الاثنين . وحاول علي مضايقة رئيسه بان طلب دفع دراهم الضمان دون تأخير ، حتى اضطر حامد للذهاب الى الاهواز للاشراف على الامور بنفسه ، ثم ارسل من هناك مائتي الف دينار اخرى للخليفة مدعيًا انه لا يريد الا فائدة الدولة ، وأنه ما ضمن تلك المقاطعات الا ليظهر كفايته المالية وليرى عجز علي بن عيسى . فسر الخليفة بذلك واحرج علياً (١) . وعتدئد امر المقتدر بترك الجباية لحامد وخول لعلي مراقبة النفقات فقط .

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت صحة احتجاجات علي . اذا اراد حامد ان يعوض نفسه عن الاضافة التي دفعها ، فسبب رفع اسعار الجبوب في بغداد بان منع استيرادها من المقاطعات فاضر الغلاء الحاصل في سعر الخبز باهالي بغداد وادى بهم الى الشعب . فدعا الخليفة حامدا ليهدىء الحال . فالحقق اخاد الحركة بالقوة ، وهجم الثائرون على قصره وعلى دار نصر امشوري (رئيس الشرطة) واستمرت الاضطرابات ثلاثة ايام حتى ان الجنود تأثروا بروح الشعب وبدعوا يولولون من غلاء الخبز . فانتبه المقتدر للخطر وامر بفتح محازن الجبوب العائدة لحامد وللسيدة ولبعض

الأمراء وبيع الجيوب التي فيها بسعر رخيص و كذلك فرض على التجار
البيع بذلك السعر المنخفض ، ولكن المشكل لم يحل لقلّة الجيوب واتضح
وجوب تقض ضمان حامد ، فامر المقتدر بذلك . وتراجع حامد الى
واسط بعدها الاخفاق واسرع بارسال الجيوب الى بغداد . فاتعظ المقتدر
بما حصل فامر بمنع الضمان لرجال السياسة والجيش .^(١)

وكان عزل علي (وحامد) ناتجاً بالدرجة الاولى عن انقاصه للرواتب
توسلاً للاقتصاد وقاومه الهاشميون خاصة ، وكان ابن الفرات يدس ضده .
وخلع علي ابن الفرات وعلي ابنه المحسن ، فنتبع المحسن الجماعة المعزولة
بكل قسوة وعذب علياً بن عيسى وغرمه ونفاه الى واسط ليتجنب خطره
في بغداد . كما ان والده اتبع سياسة الارهاب مدعيان اعتداله مع اعدائه
في السابق ادى بهم الى محاولة تدهيره .^(٢) وقبض الوالد علي ابن الحواري
وعلي حامد وحصل منهما بالين على كميات كبيرة من الاموال ، فاغتاز
ابنه المحسن وطلب تسليمها اليه لياخذ ما اخفوه من مال ، كما انه اقترح
على الخليفة ان يشترك مع والده في الوزارة فتم له ما اراد برغم غضب واحتجاج
والده . وعذب المحسن هذين الرجلين ثم نفاهما وكان سبب قتلها في
الطريق . وذلك ايضاً بعدد كبير من الكتاب من جماعة علي بن عيسى .
واذفى الولد عن تصرفاته لان الاموال الحاصلة من المصادر كانت

(١) عريب ص ٨٤ ، ص ٨٥ ، مسكويه ج ١ ص ٧٢-٥ هجرة الاصفهاني

ص ١٣٠ ، (٢) الصافي ص ١٠٥ .

كبيرة " ثم صادر ابن الفرات ضياع علي بن عيسى ونفاه الى مكة بعد ان كان في واسط لانه خاف ان يتآمر ضده (٢). ثم اخفق ابن الفرات للسخط العام من قسوة عصبته ، ولانه اثار عداة نصر القشوري ، واغضب مؤنسا فعزل وسجن (٣).

وخلفه ابو القاسم عبيدالله بن ابي علي الخاقاني، وكان المقتدر لا يميل اليه ويقول : « ابوه خرب الدنيا وهو شر من ابيه » ولمكنه عين بتأثير (ثمل) القهرماننة ونصر القشوري ، ومؤنس . ولما سمع ابن الفرات بتعيينه قل : « السلطان نكب وما نكبت انا » (٤) . ومع ذلك فعريب يبين ان ابا القاسم اعتدل وصار مثالا للاستقامة (٥) .

اسرع الوزير الجديد بمحاكمة ابن الفرات والمحسن لمصادرتهما . فعامل الاب باللطف اولا ثم بالعرف ، وعامل المحسن بقسوة متناهية حتى جعله يوقع ورقة يدفع بموجبها ثلاثة ملايين دينار . الا ان المحسن ابتلع الورقة وادعى انه يستطيع دفع مليون دينار فقط . ومال المقتدر الى استعمال اللطف ثانية ، واكن الوزير خاف على نفسه ، و اشار على مؤنس ونصر باستخدام الجيش لمنع ذلك . فشغب الجد ثم تطرفوا بان طلبوا شقيق الاثنين

(١) يقول الاصفهاني ص ١٣٠ انه اخذ من حامد وحده ٠٠٠٠٠٠ ٧٠٠٠٠٠ ٢٧ دينار .

(٢) بوين ص ٢٢٦ - ٧٠٧ ، عريب ١١٣ ، الصابي ١٣٠ - ١ ، ٣٠٧ - ٨ مسكويه

ج ١ ص ١١٣ ، (٣) Bowen p. 237 - 238 ، (٤) مسكويه

١٢٧ ، ١٢٩٦ ، (٥) عريب ١٢٠ .

(٣١٢ هـ ٩٣٤) (١) . وهكذا كلن حسد الوزراء بعضهم بعضاً عاملاً

هأما في تدمير قوتهم وفي افساح المجال لفوضى الجيش .

واظهر ابو القاسم قلة كفاية ، وزاد في الطين بله مرضه بعد قليل ،

وتضعف مركزه على اثر الازمة المالية . وزاد في ضعفه تأمر نصر

الحاجب عليه . فاخذ الخضيبي كاتب السيدة يسعى للوزارة يؤيده نصر

الحاجب وثل القهرمانة (اهم شخصيتين في البلاط بعد مؤنس) وساعده على

ذلك علاقته المتينة بالسيدة فعين وزيراً في رمضان ٣١٣ هـ .

كان الخضيبي مهملًا للاشغال ، منهمكاً في اللهو ، ثملاً في اغلب

الاقوات . فتراكت الاشغال بصورة فظيعة . وصادف اشتداد الازمة

المالية ، وازديار شعب الجيش فادى ذلك الى اسقاطه . واخذ باقتراح

مؤنس في تعيين علي بن عيسى ليصلح الوضع .

جاء علي (٥ صفر ٣١٥ هـ - ١١ نيسان ٩٢٧) فوجد الحالة مضطربة

جداً . فرأى من الضروري اشغال الدواوين في الليل احياناً ، ونشط في

تصفية القضايا المالية (٢) . واستخدم كتاباً قديرين حقاً . فاعطى

الكلواذاني (٣) ديوان السواد ، وعين ابن مقله في ديوان الضياع الخاصة

والمستحدثة وسليمان بن الحسن بن مخلد في ديوان بيت المال ، وعبدالرحمن

ابن عيسى (شقيقه) في ديوان الحرم و ابا زنبور في ديوان الضياع

المصادرة من ابن الفرات ، وفضل بن جعفر في ديوان الشرق . وقد قدر خمسة

(١) Bowen p. 239 - 242 . «٢» شر - ٢٥٧٤ - ٢٥٨١ «٣» وكان

الكلواذاني الكاتب الوحيد الذي اظهر مقدرة فذة في وزارة سلفه .

من هؤلاء الكتاب ان يتولوا الوزارة فيما بعد . وكان علي نفسه يقرأ
التقارير ليل نهار^(١) . وكان مؤنس خير صديق لعلي ، الا ان هذا
استقال لأن المقتدر اربك تدابير المالية حين اضطر لمنح الجيش ارزاقا
اضافية . ومنذ سقوطه (١٥ ربيع الاول ٣١٦ هـ - ٨ مايس ٩٢٥ م)
حتى مقتل المقتدر بقيت الازمة المالية واستبداد الجيش البليتين اللتين
هدتا ما بقي من هيبة الخلافة ونفوذها .

— ٥ —

كان وجود مؤنس ، والازمة المالية ، العاملين الرئيسيين في تدخل
الجيش في السياسة . فمؤنس الذي قضى على فتنة ابن المعتز اصبح صاحب
الحول والطول في البلاط ، واخذ يتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم كما لاحظنا .
وكان الجيش كثيراً ما يشغب مطالباً برواتب متأخرة ، او بارزاق اضافية ،
وكان ذلك يزداد بازدياد ازمة الخزينة . ولكن متانة الادارة نسبياً
ووجود وزراء اقوياء كآبن الفرات في النصف لاول من خلافة المقتدر
قلل من خطر الجيش آنذا .

ولعل اول اصطدام علني بين الجيش والاداره كان في وزارة ابن
الفرات الثالثة . فقد كان مؤنس يبغض ابن الفرات ويكن له كل سوء ،
وصار المحور الذي تحاك فيه الدسائس والمؤامرات . وسعى ابن الفرات

(١) مسكويه ١٤٠ : ١٥١ ، ١٥٢ ، عرب ١٣٠ — ١٣٢ ،

النصابي ٣١٢ — ٣١٢ ابن الاثير ٨ : ٥١ . Bowen P. 258-25

في ابعاده عن بغداد واقترح على الخليفة ارساله الى الرقة بحجة ان بقاءه
في العاصمة يجعله خطراً على السياسة العامة ، واكد على الخليفة وجوب
منع الجيش من التساط على الشؤون العامة . ثم بين للخليفة ان ارسال
مؤنس الى الرقة يسهل جمع ضرائب الولايات الغربية ، كما انه يمكن دفع
رواتب الجيش منها ، وبذلك تتخلص الخزينة من نفقات ثقيلة . فقمع
الخليفة واضطر مؤنس ان يخضع لرغبته (١) . ولكن مؤنسا استدعى الى
العاصمة عند سقوط الوزير .

وكانت لمؤنس يد في تعيين ابي القاسم الخاقاني (٢) . ومن هذا
الوقت تضاءلت هيئة الوزراء لاسيما بعد مقتل ابن الفرات . اذ لم تبق
شخصية تجابه مؤنسا ، وصار هذا يتصرف في الامور كما يشاء ، وصار
رؤساء الجيش يتطاولون على الخليفة ويهددونه في تنفيذ اغراضهم باثارة
الفتنة في الجيش . ولنا على ذلك امثلة كثيرة . فالخصيبي اندر بسوء
تصرف الجيش في اول يوم من تسنمه كرسي الوزارة ، فقد استقبله
الجند بوابل من السهام يطلبون ارزاقهم (٣) وكان استيزار علي المرة
الثانية بالجاح من مؤنس . الا ان الخيالة شغبوا لمدة اسبوع مطالبين
بالأرزاق ، ونهبوا الدور والخوانيت وبعض قصور الخليفة كالثريا .
ولم يهدوا الا بعد تسديد مطالبهم (٤) .

«١» مسكوكات : ١١٥ : ١١٦ — ١١٦ الى ١٢٢ — ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

Bowen p. 229 «٢» Bowen p. 237-239 «٣» شرحه ٢٤٨٨-٢٤٩

«٤» ١ : ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

وبعد ان صد الجيش تقدم القرامطة تجاه بغداد سنة ٣١٦ هـ طلب
الزيادة في الرواتب مكافأة على هذا النصر . فاضطر الخليفة الموافقة على
زيادة دينار لكل جندي . فقتضى بذلك على جهود علي بن عيسى في
الاقتصاد واضطره الى الاستقالة .

وزاد الوضع سوءاً وحراجة حين ساءت العلاقة بين الخليفة
ومؤنس . وسبب ذلك ان المقتدر أراد ارسال مؤنس لصد البيزنطيين
الذين فتحوا سميساط وهدموا المساجد . فدس الى مؤنس ان الخليفة حفر له
حفرة في البلاط ليستقطه فيها عند الوداع . فتوقف مؤنس عن السفر
وبرغم تأكيد الخليفة له بكذب الخبر فان العلاقة اشتدت توتراً بينهما (١) .
وفي وزارة ابن مقلة (سنة ٣١٦ هـ) تخرجت العلاقة بين الخليفة
ومؤنس مرة اخرى بتأثير دسائس ابي الهيجاء ونازوك (٢) إذ دس هذان
الى مؤنس ان الخليفة يريد اسناد قيادة الجيش لهارون بن غريب الخال ،
فغضب واظهر تنكراً للخليفة . إلا ان هذا هدأه وخفف من روعه . وما هي
إلا فترة قصيرة حتي هجم الفرسان المصافية على دار نازوك فظن مؤنس ان
ذلك كان بتدبير الخليفة وانسحب بجيشه الى الشامية . فاضطرب الخليفة
وسأل عن مطالب المتدمرين فاحتجوا عليه بأن اقرباءه يسيطرون عليه

(١) مسكويج: ١٥٩ - ١٦٠ ، ١٦١ عريب ١٣٣ (٢) هارون بن غريب الخال
هو ابن خل الخليفة . وقد اخذ ثورة القرامطة في السواد سنة ٣١٦ هـ . ثم عين
لولاية الجبال بدل ابي الهيجاء الحمداني . كما ان اصحابه تنازعوا مع اصحاب نازوك
القائد . فاتفق ابو الهيجاء ونازوك على الدس ضده .

ويسيرونه ضد مصلحة الدولة . وانه يجب طرد السيدة واختها وكل النساء
من البلاط ، وكذلك طلبوا منه ان يقلل من التبذير في البلاط ، وان
ينفي هرون الى الحدود السورية . فسلم بمطالبهم ولكن نازوك وابا
الهيضاء لم يقتنعا بذلك . وقبل ان يفسحا للخليفة المجال لتنفيذ وعوده بدءا
بالشعب بعد يومين . ثم هجما على البلاط صباح اليوم الرابع عشر من
محرم ٣١٧ هـ / ٢٧ شباط ٩٢٩ م فاخفى المقتدر في القصر حتى المساء ،
ثم ركب زورقا الى دار مؤنس (ولعل ذلك كان حسب خطة مديرة)
ونهب القصر .

وجاء المتآمرون باخ المقتدر لآبيه ونصبوه خليفة بلقب القاهر بالله .
وبعد تعيين نازوك رئيسا للشرطة وحاجبا ، وابقاء ابن مقله وزيرا ، وضع
مؤنس حرسا على القصر ورجع الى داره . ولكن عدم ثقة نازوك
بالمصافيه (فرقة من الحرس) جعله يستبدل بهم رجاله لحراسة القصر فاتفق
المصافيه مع الحجرية (فرقة اخرى من الحرس) وضجوا يطلبون زيادة
الرواتب ، فاعطاهم نازوك المال ، ولكنهم لم يرتاحوا ففي اليوم الثالث
دخلوا البلاط يطلبون ارزاق سنة اضافية . فارسل القاهر نازوك لتهدئتهم
ولكنه كان ثملا فخاف وهرب . إلا ان الجند أدركوه وقتلوه . وهرب
كل من في القصر ، واخفى القاهر وضج الجند خارج دار مؤنس بارجاع
المقتدر . فاعيد الى الخلافة وجددت له البيعة وعفا عن القاهر (١) .

(١) عرب ١٣٩ - ١٤١ ، مسكو ١ ، ١٨٨ - ١٩٩ ،
Bowen P. 284 - 285

ادرك المقتدر بعد هذا الحادث بأنه لا يمكن التهاون بطلبات الجيش
وحاول جدياً جميع المال اللازم لهم . فبدأ يبيع ملابس البلاط وسجاده
وجواهره وبعض الضياع السلطانية ، كما استرجع بعض الاقطاعات التي
اقطعها من قبل ليحصل على المال ، وانشأ ديواناً خاصاً لبيع اراضيهِ .
ولما شعر الجند بان جميع رغباتهم تجاب وجميع طلباتهم تلبى ، اصبح تصرفهم
لا يطاق . فالمصافية نصبوا انفسهم حماة للخليفة وان شئت فقل سادة عليه ،
وخيموا في ساحة القصر ، ورحبوا بالمنخرطين في صفوفهم حتى زاد عددهم
كثيراً . ثم ادخلوا زوجاتهم واطفالهم وحتى معارفهم في الديوان .
واعاقوا سير العدالة بالتساهل في الجرائم وتأخير الاحكام . ثم طالب
رؤساؤهم حق الدخول على الخليفة او الوزير متى ارادوا . والخلاصة
فانهم سيطروا على الدولة سيطرة تامة .

اتضح للمقتدر ان الفوضى ستعم اذا استمرت الحالة ، وان ستكون
العواقب وخيمة ، وان العلاج الوحيد هو اثاره قسم من الجيش ضد الآخر
واثارة الاحقاد والعداوات بين فرقه . فدرت لذلك الخطط ، وصمم
علي ضرب الفرسان بالرجال^(١) . وفي اواخر سنة ٣١٧ هـ ولا سيما
بعد ان روع العالم الاسلامي بفاجعة نهب القرامطة للحجر الاسود جاء
المصافية يطلبون روايتهم فاخبروا ان الرجال أخذوا المال . فثاروا ونهبوا قصر
الوزير ثم اصطدموا بالرجال فانفق الحجرية والرجال على المصافية وناصرهم الاهالي

(١) مسكوية ٢١٢٤٩ ، عريب ١٤٨ ، حمزة الاصفهاني ١٣٣ ، ابن الاثير

أيضاً فنحو المصافية عن اقتصار، ووضعوا السيف في كثير منهم واضرمو النار في بيوت كثير من رؤسائهم (١).

وبقي المقتدر، والرعب يملأ قلبه من الجند الذين كان يخشى ان تحذتهم نفوسهم يوماً ما بجعله . وزاد في قلقه واضطرابه توتر علاقته بمؤنس تلك العلاقة التي كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم . لأن مؤنسا كان ينتظر من المقتدر بعد ان ارجعه الى الخلافة ، ان يستشيرده في كل قضية وكل أمر . وكان يراقب الخليفة على الدوام فكان من الضروري للمقتدر ان يبحث له عن حليف ضد مؤنس فوجد بغيته في ياقوت حاجبه الجديد (الذي كان واليا على فارس) وابنه محمد (٢) . وغدا النزاع بين المقتدر ومؤنس أمراً لا مفر منه . وكان أول نصر للخليفة ، نجاحه في تعيين محمد بن ياقوت رئيساً للشرطة بدل ابي رائق اللذين عينهما مؤنس (٣) ثم عزم المقتدر على صرف ابن مقلة الذي أصبح يخدم مؤنسا في كل شيء وقرر تعيين وزير يخدم مصالحه . فاستغل خروج مؤنس (جمادى الاولى ٣٦٨ هـ) الى عكبرا ودعا الحسين بن القاسم ليقلده الوزارة . فرجع مؤنس مغضبا لهذه الخديعة وطلب الى علي بن عيسى ان يكلم الخليفة في الأمر إلا ان الخليفة أبي ارجاع ابن مقلة لأن ذلك يعتبر اهانة صريحة له . ولكنه (الخليفة) ادرك ان ليس باستطاعته الوقوف ضد مؤنس فرضي بحل

١ مسكوية ١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٤٨، ٢٤٩ . الاصفهاني ١٣٣ — ١٣٤

(٢) عرب ١٣٣، مسكوية ١، ١٤٦، ١٥٧ . (٣) مسكوية ١، ٢٠٢، عرب ١٤٥

وسط . فاقترح علي ابن عيسى ترشيح اخيه عبد الرحمن أو سليمان بن الحسن للوزارة . فمال المقتدر الى سليمان لانه خال الحسين ولانه يكره ابن مقله . واستوزره على ان تكون رئاسة الدواوين لعلي بن عيسى وبذلك يكون علي فاصلا بين الخليفة ومؤنس فكما ان مؤنسا كان لا يعمل ضد علي فكذلك علي لا يكون آله بيده . وقنع علي بهذه التسوية .

وعلى الرغم من كل ذلك اخذت حال الخليفة بالتحسن نسبيا . ويتضح الوضع الجديد وضوحا تاما في معاملة ابن مقله . فعلى اغرمه اجابة لرغبة الخليفة بيما وبخه الوزير لأثارته الفتنة بين الخليفة وقواده . ولكن الغرامة انقصت بطلب من مؤنس وسجن في المحل الذي تخيره مؤنس . وعلى كل فهذه الحلول اوقفت اصطداما لا بد منه (١) .

على ان الامور قد تأزمت والظروف قد ازدادت حرجا في وزارة سليمان بن الحسن واصبح الهياج والفتنة امرين مألوفين فالفرسان الذين قضوا على المصافية شعروا بأهميتهم وهجموا بعد شهر على دار الوزير ، واستمرت الاضطرابات بسبب الرواتب حتى بلغت القمة في صفر ٣١٩هـ / آذار ٩٣١ م بهجوم منظم على القصر . وطلب الثوار لأول مرة عزل ياقوت واقالة ابنه من وظائفهما . (ويظهر ان مؤنسا واتباعه كانت لهم يد في هذا الهجوم) . فمحمد بن ياقوت اسندت اليه الحسبة بالاضافة الى رئاسة الشرطة . فزاد حسد اعدائه ورعبهم لان الحسبة يصحبها رئاسة قسم لا بأس به من

(١) مسكويه ٢٠٣٦١-٢٠٥٠ ، عريب ١٥٠ ، Bowen p. 294

الرجالة . كما ان تولية الحسبة أخذها اعدائه حجة شرعية للتدمير لانه لا يصح لشخص الجمع بين الوظيفتين في آن واحد ، ولا سيما ان الحسبة كانت تسند عادة الى قاض اوقفية . واخترق الثوار القصر فوعد المقتدر باجابة طلباتهم ففرقوا ، ثم بدوا بالشغب مرة ثانية بعد مضي يومين واشترك معهم الاهالي ففتحوا السجون ودامت الفتنة عشرة ايام ، حتى اضطر ابن ياقوت الى الهجوم على الاسواق ، وقتل البري والمجرم ، وبدا تمكن من ارجاع النظام الى نصابه ^(١) . وجمال في خلد المقتدر ان الفتنة قد خمدت ، ولهذا لم ير مانعا من بقاء ياقوت وابنه في مناصبهما .

لم يمض شهران ذاق الخليفة ووزيره فيهما بعض الهدوء والطمانينة حتى ثار الفرسان (اول جمادى الآخرة ٣١٩ هـ / تموز ٩٣١ م) وتعرضت بغداد لمدة اسبوعين لانواع القسوة والسرقعة والنهب . ورفع مؤنس احتجاجا للخليفة وألح على صرف ياقوت وابنه ، فسلم المقتدر بطلبه على مضض . ثم سمع مؤنس بان ياقوتا وابنه يدبران قتله ، فطلب من الخليفة نفيهما من العاصمة فرفض الخليفة واخبر مؤنسا ان باستطاعته ترك بغداد ان لم يرقه الوضع ^(٢) . فاستشاط مؤنس غضبا ونزل بالشامية ، وخابت محاولة المقتدر للتفاهم معه . عند ذلك رأى الخليفة ان من الحكمة اخراج ياقوت وابنه من بغداد . وعلى أثر ذلك رجع مؤنس واستولى على الامور واسند الحجابة لابن رائق .

(١) مسكويه ٢٠٩٦ ، عريب ١٥٦ ، حمزة ١٣٥ — ١٣٦

(٢) Bowen p. 297-298

لكن المقتدر لم يرضخ خضوعاً تاماً، واران ان يظهر ذا حظ من
السلطة ، فصرف سليمان بن الحسن (رجب ٣١٩ / آب ٩٣١ م) واران
استيزار الحسين بن القاسم . ولكن . مؤنساً الحفي تعيين عيد الله الكواذاني
فعين ومعه علي بن عيسى مشرفاً على الدواوين ولكن مدة الكواذاني
كانت قصيرة . فالأزمة المالية وهجمات القرامطة على الكوفة جعلت
الحالة المعاشية صعبة . وزاد وضعه تأزماً هجوم فرقة من الفرسان على داره ،
فلم يستطع دفع مرتباتهم لعدم وصول الوارد من الولايات . فلزم داره
وقدم استقالته (٣٠ رمضان ٣١٩ / ٧ تشرين أول ٩٣١ م) فقبلت .^(١)
ثم قرر المقتدر استيزار الحسين بن القاسم ، والغريب ان مؤنساً وافق على
تعيينه واغرب من ذلك انه رضى بتعيينه علي بن عيسى عن الاشراف على
الدواوين ، فلم يترك له سوى ديوان النظر في المظالم . ولكن الحسين لم
يرتح لتولية علي لذلك الديوان فطلب عزله وتم له ذلك . ثم شعر بخطر
وجوده في بغداد على سلطته فطلب نفيه الى سوريا أو مصر . وعلى الرغم
من تدخل مؤنس فان علياً نفي الى (دبرقني)^(٢) .

وعلى كل حال ، فان مؤنساً شعر بخطأ تعيين الحسين . فقد قوى
حزب الخليفة حتى ان الضعفاء من جماعته كأبني رائق انضموا اليه .
ثم حاول الحسين ضرب الجيش بعضه ببعض . وأثار الرجال المتدمرين

(١) عريب ١٦٠ ، ١٦٤ ، الفخري ٢٤٧ ، مسكويه ١ : ٢١٩ . (٢) مسكويه

ليطلبوا عزل « يلبق » (الذي كان ينوب عن مؤنس المريض آنئذ)
فشكا مؤنس الى الخليفة دسائس الوزير راجياً عزله ونفيه الى عمان فرفض
طلبه . وكان عزل « يلبق » انذاراً لمؤنس بالخطر . فقرر ان ينتقل
بعسكره الى الشامسية وليكنه وجد الحسين قد اكتسب تأييد الرجاله بدفع
روا تبهم فحاول التصالح مع الوزير ولكن رسوله اهين ، فقرر الذهاب
الى البردان (محرم ٣٢٠ هـ / كانون الثاني - شباط ٩٣١ م)^(١) .

في الواقع ان نزوح مؤنس كان نصراً للخليفة ووزيره . فشرف
الوزير بلقب « عميد الدولة » ونقش اسمه مع اسم الخليفة على النقود
ووجد الوزير الفرصة سانحة لمهاجمة انصار مؤنس فاخذ من ابن مقلة عشرين
الف دينار . لكن نفوذه لم يدم ، إذ خلت الخزينة من المال ووجد انه
لا يستطيع دفع نفقات السنة الحالية إلا بجباية ضرائب السنة القادمة
فشغب الجند عليه . كما ان حماس الخليفة له قد اضمحل ، فقبض عليه (في
ربيع الآخر سنة ٣٢٠ هـ / مايس ٩٣٢ م) وعين الفضل بن جعفر محله .^(٢)

وظهر موقف مؤنس ضعيفاً عند تركه بغداد . ولكن الصدف
وبراعته في القيادة وحنكته قوت مر كره . فقد سافر شمالاً ولكنه كان
يعرف ان العمال ، في طريقه ، قد القيت اليهم الاوامر بالقبض عليه ان
امكن ، كما تخلى الكثيرون من اتباعه عنه ، فاراد الالتجاء الى الحمدانيين
في الموصل لصداقته معهم ، ولكنهم مانعوا في مجيئه وطمعوا باسترجاع ثقة
الخليفة ، فلم يعبأ بل سار اليهم وهزم جيشهم (٤ صفر ٣٢٠ هـ - ١٥ شباط

(١) عريب ١٦٥ - ١٦٧ ، مسكويه ١ : ٢٢١ - ٢٢٢ . (٢) عريب

١٧٣ ، مسكويه ١ : ٢٢٦ - ٢٢٨ .

٩٣٣ م) ودخل الموصل^(١). وبعد هذا الانتصار قوى مركزه، اذ رجع
اليه من تركه سابقاً والتحققت به فرق من جيش الخليفة في الثغور.
ولكن الحالة كانت خطيرة في بغداد، ففي ايران كثرت اعتداءات
مرداويج الخارج على الخلافة، كما استمرت الغزوات البيزنطية دون
من يصدها، وكثر اللاجئون من تلك الجهات الى بغداد وسبوا الشعب
والهياج فيها حتى هوجم قصر الوزير مرتين ونهب. كما ان القرامطة ومؤنسا
قطعوا الاقوات عن بغداد من جهتهم فحصلت فيها مجاعة شديدة ووقع
فيها وباء مريع^(٢). ووبخ الخليفة علنا لاهماله مصالح الرعية. وادرك
الفضل وحده الظروف. فمال الى استرضاء مؤنس فارسل اليه رسالة
تلقاها مؤنس بحذر، وتقدم عند حلول الخريف الى بغداد. وسرعان
ما ظهر ان الفضل أرسل رسالة على مسؤوليته الخاصة لأن الخليفة عندما سمع
بقدم مؤنس أرسل جيشا لرده. ولكن جيش الخليفة لم يصمد لمؤنس
بل استمر بالتراجع حتى بغداد. وهناك عسكر الجيشان الواحد قبالة الآخر
في الشامية.

وتلا ذلك انقسام الرأي في البلاط. فهرون بن غريب الخال (الذي كان
متنفذا آنئذ) مال الى رأي الوزير في الصلح حذرا من نتيجة الحرب.
ولكن محمداً بن ياقوت (الذي رجع الى بغداد في غياب مؤنس) وابني
رائق الحوا على الحرب. وتردد المقتدر في الأمر لأنه كان يعيل الى تحدى

مؤنس . ولكن جيشه — كما اوضح هرون — لا يعتمد عليه . وربما
ثار ان لم تدفع اليه الرواتب . وأكد ابن ياقوت ان الجيش اذا اعطي
رواتبه تخلى اتباع مؤنس عنه وانضموا الى جيش الخليفة . ولكن ما العمل
والخزينة خالية . كما ان السيدة ادعت بأنها صرفت كل ما تملك في حرب
القرامطة . ففكر الخليفة بالذهاب الى واسط وجميع الرعايا حوله . وعلى
الرغم من ان الخليفة وافق على اقتراح مؤنس أول الأمر وهو ان خير حل
هو تسوية الخلاف، إلا ان العواطف طغنت عليه فأمر بالحرب وكانت النتيجة
مقتله في ٢٦ شوال ٣٢٠ هـ / ٣٠ كانون الأول ١٣٢ م . وبأراقة دم المقتدر
طغنت الخلافة في الصميم ولم يلتئم جرحها بعد ذلك ^(١) .

— ٦ —

ولنتطرق الآن للموضع المالي لتري كيف اربكته انانية الوزراء ،
لنقدر جهود ذلك الوزير العظيم علي بن عيسى الذي لقب بحق
الوزير الصالح .

كان المقتدر متلاقيا مبذراً ، بدد كل ما جمعه ابوه وأخوه . ^(٢) فضلا
عما جمع في ايامه ، وكان مجموع ذلك سبعة وثمانين مليون دينار « خرج من
ذلك ما ليس يجري مجرى التبذير ... بضعة عشر الف الف دينار ، وبقي
بعد ذلك ما بذر وأتلف نيف وسبعون الف الف دينار » . ^(٣) ومما يجدر

(١) عريب ١٧٤ — ١٨٠ ، مسكويه ١ ، ٢٣٤ — ٢٣٧ ، الفخري ٣١١ ،
المسعودي ٤ : ٢٣٤ ، التنبيه ٣٢٧ (٢) وكان مقدار ذلك ١٤٠٠٠٠٠٠٠
ديناراً ، الصافي ٢٩٢ مسكويه ١ : ٢٣٨ (٣) مسكويه ١ : ٢٣٨ — ٢٤١

بالملاحظة ان هذه المقادير كانت من « بيت مال الخاصة » او بيت مال الخليفة . فكان هناك تمييز بين « بيت المال » او خزينة الدولة وبين بيت مال الخليفة . وكانت موارد الخزينة عظيمة ، مما تغه الضياع السلطانية الوسعة ^(١) ومن المصادرات التي كانت تشمل الوزير المعزول وعصبته ، والتي اصبحت سنة متبعة ومورداً خصباً ، ومن ضرائب المواريث والواردات العامة احياناً ^(٢) وكان هذا البيت خيراً مسنداً لخزينة الدولة (التي اضر بها سوء طرق الجباية ، وزيادة النفقات وكثرة الثورات وحروب القرامطة ، وانفصال بعض الولايات) في اوقات الازمات بواسطة القروض . ولكن اهميته قلت بالتدريج في خلافة المتندر لسوء التدبير وكثرة التبذير . وبذلك ازدادت ازمة بيت المال شدة ، وتعسر الاحتفاظ بالتوازن بين الدخل والمصرف ، وعاد الخليفة يشكو دائماً قلة المال .

ولنعرض قصة الازمة المالية وتطورها بايجاز . فابن الفرات في وزارته الاولى كان يخشي نفوذ مؤنس . ولذلك نجده يخصص مرتبات لافراد الاسرة المالكة ليقوى نفوذه في البلاط كما انه النى الضرائب التي يستقلها الناس ، ولم يفكر كيف تتحمل الخزينة تلك التدابير ^(٣) فلا غرو ان افلست الخزينة حتى انه لم يجد المال الكافي لشراء ما يلزم من الماشية يوم النحر . ولما استنجد بالخزينة الخاصة رفض الخليفة

١ انظر قائمة على بن عيسى في زيدان ٦٢ ، ١١٤ - ١٢٢ (٢) مسكويه

١ : ٢٤٠ - ٢٤١ (٣) مسكويه ١٣ :

اعانته. (١) ويجب ان لا تنسى ان الوزير استغل مركزه لجمع المال لنفسه على حساب الدولة والخليفة (٢).

ثم خلفه الخاقاني ، وكان اسوأ من سلفه . إذ افراط في قبول الرشوات ، وقام ببيع الوظائف لجمع المال لنفسه ولا يخفى أثر ذلك في افساد الوضع المالي وتدهور طرق الجباية . هذا بالاضافة الى انه لم يعمل شيئاً لحل ازمة الخزينة ، بل زاد الوضع سوءاً بسبب حرصه على تقوية مركزه . قذهب الى ابعده مما ذهب اليه ابن الفرات في زيادة رواتب الجيش والكتاب وخدم القصر والحاشية (٣).

وجاء علي بن عيسى فلاحظ ان اضطراب الخزينة ادى الى سقوط الوزيرين السابقين وعلي ذلك فيجب ان يقوم باصلاح عاجل لذلك . وادرك ان سبب الازمة كثرة الصرف وقلة الدخل . اما كثرة الصرف فكانت راجعة الى تبذير الوزيرين من قبله ويشار كهما في ذلك الخليفة . واما قلة الدخل فناتجة عن كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية خلال القرن الثالث الهجري . كما ان نظام الضمان للضرائب كان فيه مجال كبير للعسف لا سيما في اوقات الحرب والفتن حين تضعف الرقابة على العمال والموظفين . وبالاضافة الى ذلك ان الاضطرابات وعسف الضمان ثبطا عزم الفلاحين واديا الى ترك كثير من الاراضي بورا . فكان علي بن

(١) 07 B. w. n P. 10 (٢) الصابي ١١٦، ٧٩ - ١٤٠٦، ١١٧، مسكوية

١٣: ١ ٣ مسكويه: ١: ٥٢٩، عريب ٤١

عيسى معالجة تلك الاوضاع ، والسعي لموازنة الدخل والخرج . فبدأ
 بفارس حيث أدت الاضطرابات الى هجرة عدد كبير من الفلاحين ،
 فاضيف الى ضرائب الباقيين شيء باسم (التكملة) فارهقهم ذلك . ومن
 الجهة الاخرى كانت الاشجار المثمرة معفوة من الضرائب منذ زمن
 المهدي . فالغى التكملة ليخفف عن الفلاحين وسن ضريبة على الاشجار
 المثمرة ليقوى مورد الخزينة . كما انه الغى بعض الضرائب الجائرة كضرائب
 الخور بديار ربيعة ، والمكس (ضرائب التجارة) في مكة ، وضرائب
 المرور (مكوس على نهر الدجيل (الكارون) ^(١) . وحارب الفساد في
 الادارة ، وقرر اصلاحها فاعلن سياسته في منشور أصدره الى العمال ، بين
 فيه انه لا يصرف عاملا دون محامته . ولكنه انذر العمال على سوء
 التصرف ، أو السرقة وما شابه ذلك . فقد جاء في المنشور المذكور
 « وتمكن في نفسك انه لا رخصة عندي ولا هوادة في حق من حقوق أمير
 المؤمنين اغضي عنه ... ولا تقصير في شيء من أمور العمل اصبر لقريب
 أو بعيد عليه . ولا تكون باظهار أثر جميل في ذلك أشد عناية منك
 بانصاف الرعية والعدل عليها ورفع صغير المؤمن وكبيرها عنها » ^(٢) وحاول
 تطهير الادارة من عمال السوء . يقول مسكويه « وقلد (علي) بعد ذلك
 الدواوين جماعة وعزل جماعة وفعل مثل ذلك بالعمال . ونظر الى من تعود
 اقتطاع الاموال السلطانية واقامة مروات نفسه منها وقصر في العماره ، واعتمد

(١) Bowen p. 12.4 (٢) مسكويه ١ : ٣٧

غيره فعزل امثال هؤلاء»^(١) كما حاول وضع حد للرشوة (المرافق) التي كانت سائدة متفشية والتي كانت تسجل احياناً في حسابات الدواوين^(٢). هذا وانه كتب الى العمال ان ينظروا في شكوى المتظلمين من دافعي الضرائب ضد الحياة أو الموظفين الآخرين ليرجع ثقة الناس بعدل الحكومة وجعل جزاء من يحتج باموال الدولة السجن والعقاب الشديد. فكانت النتيجة ان زاد الارتفاع... لأن الخير انتشر بالعدل، وقيل قد رفع الحيف والظلم، فنشط الناس للازدياد في العارة^(٣).

وبلغ من اهتمامه برخاء الرعية ان يصدر الاوامر بأصلاح المساجد والمستشفيات القديمة في انحاء المملكة وبني اخرى جديدة. يقول مسكويه «ثم عمر... البيمارستانات وادر الارزاق لمن ينظر فيها، وازاح علل المرضى والقوام»^(٤). وكان في بغداد اربعة مستشفيات، ولكنها لم تكن كافية. فبنى على مستشفى آخر في محلة الحرية انفق عليه من ماله الخاص^(٥). وانشاء ديوان البر للنظر في اموال الوقوف والصدقات. وكانت هذه تصرف على الحرمين وفي الجهاد ضد البرنطيين^(٦).

وخير تعليق على سياسة علي بن عيسى قول مسكويه «فما من... الدنيا احسن سياسة، ورسم للعمال الرسوم الجميلة وانصف الرعية وازال السنن الجائرة ودبر امر الوزارة والدواوين وسائر امور المملكة بكفاية تامة

(١) مسكويه ١: ٢٨، ٢٩ (انظر الصابي ١٦٨—١٦٩ (٣) مسكويه ١:

٣٠، انظر القصة في كتاب الوزراء ٣٤٥—٣٤٦ (٤) شرحه ١: ٢٨

(٥) Bowen p. 126-7 (٦) شرحه ١٢٩

وعفاف وتصون وديانة ... فبانت بركته على الدنيا وعمر البلاد وتوفر
الارتفاع ، واستقام امر السلطان ، وعادت هيبة الملك وصلح امر الرعية .^(١) «
ثم حاول على تقليل النفقات . فالتفت الى الرواتب فوجدتها عالية
و « اسقط ... اكثر ما زاده الخاقاني في وزارته في دواوين الجند
واقطاعاتهم . وكانت هذه الزيادة قد لحقت القواد وسائر اصناف الجند
ولحقت الخدم والحاشية وجميع الكتاب والمتصرفين وكانت كثيرة .
فلما اسقطها عاداه أكثر الناس وشنعوا عليه بالضيق والشح وقطع
الارزاق ، وانما اضطر الى ذلك لما رأى نفقات السلطان زائدة على
دخله زيادة مفرطة تحوج الى هدم بيوت الاموال و صرفها في نفقات
يستغني عنها »^(٢) .

ولا يجب ان تنسى ان هذا الوزير بذل جهده لتثبيت أسس المالية
على أساس متين ، لحل مشكلة اضطرار الدولة الى الجباية قبل موعدها ،
لتخليصها من صعوبة الاستدانة عند الحاجة . فانشأ أول مصرف رسمي
عرفه الاسلام^(٣) بالاتفاق مع جهدين يهوديين على تسليف الدولة

(١) مسكويه ٢٨:١—٢٩ . (٢) شرحه ١:٢٩ . وكان على تقياً يصرف
اكثر دخله الشخصي في اعمال البر . فقد كان دخله قبل الوزارة ٨٠٠٠٠ دينار
ينفق منها ٥٠٠٠٠ دينار لتلك الاعمال . ومع ان دخله في الوزارة ارتفع الى
٧٠٠٠٠٠ دينار سنويا فان نفقته العائلية زادت ١٠٠٠٠٠ دينار فقط
Powen p. 133 (٣) انظر مجلة الفضاء السنة الثانية العدد الخامس سنة
١٩٤٣ تجد تفاصيل ذلك في مقال الجبهة والصيرفة في العراق في القرن الرابع
الهجري بقلم الدكتور الدوري ص ٥٨١ وما بعدها .

ما تحتاجه من المال لقاء (فائض) معين وسلمهما جباية الاهواز كضمان
كما انه استعمل اعتماد (Credit) هذا المصرف للاقتراض من التجار متى
دعت الضرورة . وقد استمر هذا المصرف في اعماله مدة تزيد على
عشر سنين (١) .

وهكذا نجح علي لحد مشكور في اصلاح الوضع المالي ، وفي موازنة
الدخل والصراف . ولكن سوء سياسة اخلافه وانايتهم افسد آثار
اصلاحاته . فأبن الفرات الذي خلفه في الوزارة انشأ ديواناً خاصاً
(ديوان المرافق) لأخذ جزء من ثروة الموظفين على أساس ارتشائهم
بالاضافة الى ما يحصل من مصادرة علي وانصاره . (٢) ولكنه لم يكن مدبراً
وسرعان ما وجد نفسه في وسط ازمة مالية . فقد تعهد قبيل استيزاره بدفع
الف دينار للمقتدر وخمسمائة دينار للسيدة والأمراء يومياً . كما انه زاد في
الرواتب مرة اخرى . فوجد الخزينة تقصر عن تنفيذ وعوده . وفوق
ذلك كان مبدراً في نفقاته . فقد صرف في الاشهر الاولى من وزارته
كميات كبيرة من المال لاستقبال السفراء البيزنطيين الذين ارسلهم
قسطنطين السابع الى بغداد لعقد الهدنة ولتبادل الاسرى (٣) . كما ان
ثورة ابن ابي الساج والى ارمينيا واذربيجان كلفت الدولة نفقات باهضة
بالاضافة الى ان الثائر احتجج اموال مقاطعته وواردات الرى (٤) . فارتبك

(١) انظر نفس المصدر (٢) مسكوية ١: ٢٤٦-٢٤٢ ، الصابي ٣١-٣٢

٨٦ ، (٣) مسكوية ١: ٥٣-٥٥ ، غريب ٦٣-٦٥ ، الخطيب الفداي: ٤٩

«ط. سالمون» (٤) Bowen p. 155-156

الوضع المالي تارة اخرى وشغب الفرسان يطالبون بنفقاتهم . فاضطر ابن
الفرات الى الاستعانة بالخزينة الخاصة (١) .

ووقع ثقل الضائقة المالية على علي بن عيسى الذي اشرك مع حامد في
الوزارة . فبدأ بعمل تقدير دقيق للوضع المالي ، ونظم جريدته المشهورة
(قائمة الوارد) سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م معتمداً في تقدير الدخل على آخر
سنة مالية تامة (أي سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ — ٩١٧ م) بينما احصى النفقات
على الجاري . فوجد عجزاً يزيد على مليوني دينار سنويا وكان تقديره
لسنة اعتيادية . ولكن النفقات للسنتين الثلاث الاولى من وزارة حامد
لم تكن اعتيادية ، إذ صرفت مبالغ كبيرة للقضاء على ثورة ابن ابي الساج
بينما كلف هجوم الفاطميين على مصر (٣٠٧ هـ / ٩١٩ — ٩٢٠ م) وورد
مصر وسوريا لسنتين (٢) . فاضطر علي للاقتصاد في النفقة ، وبدأ بتخفيف
الرواتب التي زادها ابن الفرات (٣) . فلاقى مقاومة ولا سيما من جانب
الهاشميين (٤) . كما انه اتبع سياسته السابقة نفسها بمنع أخذ المرافق على
انها كانت تعتبر من مصادر الدخل إذ انه اعتقد ان في الغائتها فوائد
مادية ومعنوية .

ولنستمع الى مناظرة ابن الفرات لطبي بن عيسى بعد سقوطه ، قال
ابن الفرات لعلي : « قد اسقطت من ارزاق اولاد القرابة والحرم

(١) شرحه ١٥٣ (٢) مسكويه ١ : ٤٨ — ٤٥٠ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٧

٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ (٣) الصابي ٢٩٦ (٤)

والجواشي والخدم والفرسان الذين كنت اوفهم ارزاقهم في ايامي الاولى
والثانية مدة خمس سنين دبرت فيها المملكة ، وأخذت من ارتفاع الضياع
المالك والاقطاع بعد ما افرد منها للامراء ما يكون مبلغه ومما كنت احمله
الى أمير المؤمنين في وزارتي الثانية (وهو كل شهر خمسة واربعون الف
دينار للمدة المذكورة) الجملة الكبيرة . فاما ان تكون قد احتجنت ذلك
لنفسك أو وضعته لتفريطك . فقال له علي بن عيسى . ما استغلاته من
الضياع ووفرتة من ارزاق من يستغني عنه تمت به عجزا أدخل في
الخرج حتى اعتدل الحال ، ولم امدد يدي الى بيت مال الخاصة . واما
الخمس والاربعون الف دينار التي كنت تحملها من المرافق فاني لم ار ما
رأيتة انت قُط من اطلاق المرافق للعمال بل حظرتها عليهم علما بانها طريق
الى ضياع الحقوق وخراب البلاد ، وظلم الرعية . وانت كنت توصي
الحواشي باخراب بيت المال وتحويل ما في بيت المال الخاص الى مال
العام ^(١) . وهكذا رأى علي في منع الرشا والاعتدال في الضرائب
وسيلة لعارة البلاد وزيادة الدخل . كما ان ضمان حامد للاهواز
واصفهان وما تبعه من مشاكل اقتصادية أدى الى صدور
الأمر بمنع الضمان لرجال السياسة ولضباط الجيش لانهم اقدر
من غيرهم على الظلم ^(٢) . ولم يقم ابن الفرات في وزارته الثالثة بتدبير

(١) الصابي ٢٩١ (٢) عريب ٨٤ — ٨٥ ، مسكويه ١ : ٧٢ — ٧٥

مالي يذكر (١).

وكان من أثر سوء تدابير الخاقاني في وزارته ارتفاع الاسعار لدرجة كبيرة ولم يستطع الحصول على النفقات للجيش (٢) وفي وزارته عين علي بن عيسى بتأثير مؤنس عاملاً على الخراج في سورية ومصر (سنة ٣١٣ هـ) وكان الوضع المالي سيئاً جداً فيها. فحاول تنظيم الجباية في كل من القطرين. وقد أدت تدابيرها في مصر الى بعض التدمير إذ انه فرض الجزية على الرهبان والقساوسة. فاحتجوا الى المقتدر فصدر الأمر باعفائهم (٣).

أما الخصيبي فقد أخفق في ادارته اخفاقاً ذريعاً. وانكى من ذلك انه كان يكثر من تعريم الاغنياء بحجج تافهة ليرضي المقتدر بهدايا يقدمها للخزينة. فلما ضعف هذا المورد سقط (٤).

تم جاء علي بن عيسى في وزارته الثانية فوجد المالية في حالة مؤفة. فحاول تحسين الوضع بان جعل التقارير المالية تعمل اسبوعياً بدل ان تكون شهرية والحسابات تعمل يومياً. ثم انقص الرواتب كثيراً، والغنى الرواتب غير الضرورية. ووجد الكتاب انفسهم يشتغلون ساعات طويلة لقاء اجور

(١) لم تنصف الوزير الخصيبي حين قال: «كان ابن الفرات نافذاً في عمل

الخراج وتبدير البلاد وجباية المال، واقتتاح الاطراف، واليق من علي بن عيسى في سياسة الملك. وكان علي بن عيسى كثير التدين، شديد التصون، غنيفاً عن المال وله مذهب في الترسيل لا يلحق فيه احد ولا ابن الفرات». الصابي - الوزراء ٩٥

(٢) Bowen p. 248-249 (٣) شرحه ٢٥٣ (٤) شرحه ٢٤٦ - ٢٤٨

قليلة . فصار علي مكروها يلقي الشتم والسب من البعض علناً ومع كل ذلك لم يعابهم .^(١) وطلب من المقتدر ان يهتم بحراسة الخزينة الخاصة بعد ان برهن له ان السرقة قامت بدورها في تفرغها ، حيث اظهر له سبحة جوهر ظن المقتدر انها في الخزينة ، بينما وجدها علي في سوق القسطنطينية .^(٢) وبعد شهر من وزارته جامهته مشكلة نفقات الجيش . فقد اضطرب الفرسان مدة اسبوع ، ونهبوا الدور والحوانيت وحتى بعض قصور الخليفة كالتريا ولم يهدوا الا ان وعدم مؤنس باجابة طلباتهم . فوجد علي ان صاحب ديوان الجيش لم يدفع لهم رواتب عدة شهور ، واحتج لنفسه كميات كبيرة منها . وعندئذ صرف علي صاحب الديوان وكتابه وصادرهم على كميات كبيرة . واستطاع ان ينفذ وعد مؤنس ، فسمح له ان يختار المقاطعات التي يعتمد على واردةا لدفع النفقات . وهذا الحادث حمله على اعادة النظر في مرتبات الجيش وارزاقه .^(٣)

وكان سبب استقالته ان الجند طلبوا زيادة مرتباتهم فوافق المقتدر على زيادة دينار واحد لكل جندي^(٤) . ولما عين ابن مقله بعده قال علي : « حدث بحب الرياسة ، ويراعي يومه دون غده ... أليس تدير الخلافة الى قوم مبلغ عقولهم انهم يظنون ان ابن مقله ينهض بما اعجز انا عنه ويستقل بما اتقادي منه ، انا لله وانا اليه راجعون . ذهبت والله الامور »^(٥) .

(١) شرحه ٢٥٧—٢٥٩ (٢) عرب ١٣٠ (٣) مسكويه ١ : ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ حمزة الاسفهانى (٤) Bowen p. 271 (٥) الصابى ٣٥٩—

وفعلا اضطربت الامور بعد استقالة علي ، وأصاب الخزينة عجز
مزمين ، وصارت غير قابلة لأي اصلاح بعده . فسايمان بن الحسن وجد
في بيع الضياع السلطانية مورده الأول لسد النفقات ، ولكن هذا المورد
لم يكف لسد العجز^(١) . والكلواذاني وجد وضعه حرجا جدا فديوان
السواد وبعض الموارد رفعت من اشرافه ، ومنعه مؤنس من تعقب بعض
المدنيين للدولة^(٢) . والتجأ الى الخزينة الخاصة لاقتراض ٧٠.٠٠٠
دينار ، فاغضب المقتدر بذلك واضطر لتقديم استقالته^(٣) .

واخيراً وجد المقتدر في نزاعه الأخير مع مؤنس انه لا يستطيع
دفع نفقات الجيش . ولما استعان بوالدته ادعت انها لا تملك شيئاً ،
وهكذا انهار أساس الدولة المالي ولقي المقتدر حتفه^(٤) .

رعب مؤنس من مقتل الخليفة إذ كان يشعر بان سلطانه مرتبط
بسلطان سيده^(٥) . وأخذ يشعر بان كل من اشترك في تلك الجريمة
سيلاقي خاتمة مريعة^(٦) .

أصبح مؤنس سيد الموقف وتحتم عليه حفظ النظام واختيار خليفة
جديد . فراد مبايعة ابي العباس بن المقتدر ، لتقواه ، وجوده آرائه ولأن
علاقته به كانت حسنة . ولكن جماعته ثنوه عن عزمه ، لانهم ارادوا

(١) Bowen P. 299 (٢) مسكويه ١ : ٢١١ (٣) مسكويه ١ :

٢١٧-٢١٩، ٣١٨، عريب ١٦٤، الفخري ٢٤٧ (٤) Bowen P. 310

(٥) ولذلك افسد الخطة التي ادت الى خلعة في المرة الثانية . برين ٣٢١ .

(٦) مسكويه ١ : ٢٤١ ، عريب ١٨٠

التخلص من تدخل الحرم بعد ان لاقوا الأمرين من تدخل السيدة ،
جدة ابي العباس . واخيراً وقع الاختيار على القاهر فاجلسه مؤنس على
دست الخلافة (١) .

ولكن مؤنسا لم يرتح لهذا الاختيار ، لأن اقاخر كان فقيراً
جداً ، فلم يستطع قبول شروط مؤنس بمنح دراهم البيعة للجيش كما هي
العادة (٢) . كما انه كان يختلف عن المقتدر في كل شيء عدا ادمان الشراب .
فكان شديد الطمع بينما كان المقتدر كريماً . وكانت ثابت الرأي
حقوداً ، قاسياً ، غداراً (٣) . وفي سبيل الحصول على الاموال نسي
حسنة السيدة ، وعذبها بقسوة لدرجة انها ماتت بعد اسابيع قليلة (٤) .
بقي على مؤنس بعد اختيار الخليفة ، انتخاب وزير يرضاه . فقال الى علي
بن عيسى ، ولكن (يلبق) صرفه عن ذلك ، لأن سياسة علي في الاقتصاد
لا تصاح لمعاملة الجيش . فاسندها الى ابن مقله . وفي هذا الدليل الكافي
على ان السلطة قد آلت الى الجيش وأصبح صاحب الحول والطول ،
واليه يرجع ابرام كل كبيرة وصغيرة . ولذلك كان الوضع ينذر بالشر .
لم يكن لأبن مقله هم سوى المحافظة على مركزه . فسعى لجمع الاموال
لأرضاء الجيش واستمالته ، باتباعه سياسة المصادرة على نطاق واسع لاتفه الحجاج
لدرجة انه اغضب مؤنسا اكثر من مرة . (٥)

(١) مسكوية ١ : ٢٣٧ ، ٢٤١ - ٢٤٢ ، عريب ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٢ ،

ابن الاثير ج ٨ : ٧٦ (٢) عريب ١٨٢ (٣) مروح الذهب ٤ : ٢٤٠ الفخري -

طبعة الجارم ص ٢٤٨ (٤) عريب ١٨٣ . Bowen p. 323 (٥) عريب ١٨٥

مسكوية ١ : ٢٤٥ - ٢٤٦

وسرعان ما ساءت العلاقة بين الخليفة والمحيطين به . فان أتباع
المقتدر ظهروا من جديد ومنهم محمد بن ياقوت الذي لاحظ تسلط مؤنس
وانصاره . فحاول التقرب من الخليفة ، وكسب ثقته فوفق الى ذلك ،
فاوجس ابن مقله خيفة من هذا الحادث ، ووشى الى مؤنس بان الخليفة
ومحمد يتآمران ضده . فهرب ابن ياقوت وبقي الخليفة شبه سجين في
قصره ، يحيطه الحرس لئلا يسمح للخليفة بالاتصال بانصاره . وشدت
الرقابة عليه لدرجة ان اواني الطعام كانت تفحص قبل ادخالها .
ضاق القاهر بهذا الوضع ذرعا وحاول التخلص منه . فاستغل
الخصومة الداخلية في الجيش . فمؤنس بتقريبه (يلبق) وابنه علي اغضب
اثنين من كبار انصاره احدهم طريف السبكري . هذا من جهة ومن
الجهة الاخرى كان الساجية غير راضين عن مؤنس لأنه لم يحقق
وعده بزيادة رواتبهم . وعلى الرغم من شدة المراقبة على القصر فقد بدأت
المؤامرة .

ولكن التحريض بدأ من الجهة الثانية ، اذا اكتشف ابن مقله
ان القاهر قرر عزله وتولية محمد بن القاسم (ابي الحسين) محله . وعندئذ
أطخ على اصحابه بعزل القاهر وتولية ابن المكتفي (محمد) الخلافة .
فوافق يلبق وابنه واقسايمين البيعة سرا . واخيراً وافق مؤنس ودبرت
خطة التنفيذ وهي ان يقوم علي بن يلبق بمقابلة الخليفة وسط الليل بحجة ان
ان القرامطة هاجموا الكوفة وانه جاء يطلب تفويضا من الخليفة . وبهذه

الوسيلة يلقي القبض عليه^(١) . إلا ان الخليفة اكتشف المؤامرة ودعا
الساجية الى القصر سرّاً . فاختفى علي بن يلبق واختفى ، ثم جيء به
بعد ايام قلائل فجلد وسجن بعد ان غرم . ثم قبض على يلبق نفسه واودع
السجن مع ابنه وعندئذ ادرك ابن مقلة حراجة الموقف فاختفى هو وكتابه
ثم التفت الخليفة الى مؤنس واراد القبض عليه فارسل يطلب مقابلته
مدعياً بانه (الخليفة) لا يستغنى عن مشاورته وسداد آرائه . وتردد مؤنس
اولاً ثم جاء . فلقى ما لقي يلبق وابنه^(٢) . وصدرت الارادة بقتل الثلاثة
عندما شغب اتباع مؤنس بعد اسابيع يطلبون اطلاقه (شعبان ٥٣٢١ هـ / اب
٩٣٣ م) . وتنفس القاهر الصعداء واراد ان تكون سلطته حقيقية .
فاستوزر محمد بن القاسم ، وقتل ابن المكتفي بفضاعة ولقب نفسه « المنتقم
من اعداء دين الله » ودفع للجيش رواتبه . وبذا تحقق لديه ان سلطته
أصبحت حقيقية^(٣) .

ويظهر ان نشوة الفوز على خصومه انسته الاخطار الباقية . فان
مقلة لا يزال حراً وطريف الذي ساعده على تقوية مركزه عومل ببرودة
ثم سجن كما انه اهل الساجية وعامل رؤساءهم بقسوة لئلا يتحمكوا به^(٤) .
ونحي محمد بن القاسم عن منصبه واستوزر الخصيبي آخذاً برأي طيبه
عيسى ، (ذو الحجة ٥٣٢١ هـ / كانون الاول ٩٣٣ م) . واتبع طرقاً بلغت

(١) Bowen p. 327 - 328 «٢» مسكويه ١ : ٢٥٩ - ٢٦٤

٢٦٦ ، عريب ١٨٦ ، ابن الاثير ج ٨ : ٧٩ - ٨٢ «٣» مسكويه ١ : ٢٦٤ -

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ «٤» ابن الاثير ج ٨ : ٨٢ .

الغاية في القسوة والفضاعة في مصادرات الناس، مما اثارت حنق البغداديين عليه^(١). وكان لزهده في معيشته اثر حسن وقتي، ولا سيما عندما امر بمنع الخمر ونفى المغنيات. ولكن انقلاب الشعور كان عنيفا عندما عرف انه سكير وان اوامره كانت لتقليل سعر الشراب الذي كان مستهتراً به^(٢) وصار ابن مقله ينتهز الفرص للدرس على الخليفة. فلما عرف انه بنى غرفاً تحت الارض في قصره (ادعى الخليفة انها بنيت لتكون حمامات للنساء) اشاع بانها مطابق ليسجن بها الخليفة اعداءه. وقويت الاشاعة عندما سجن القاهر بها بعض القرامطة. واستعمل ابن مقله منجماً ليقتنع احد رؤساء الساجية (سيما) بان القاهر يريد القبض عليه. ثم ان الحرس الحجرية اعداء الساجية، تدمروا من تصرفات القاهر وتفاوضوا مع اعدائهم واتفقوا معهم، ثم اجتمعوا امرهم ٦ جمادي الاولى ٥٣٢٢ ٢٤ نيسان ٩٣٤م واحاطوا بالقصر فجأة. ولما اسرع الوزير والحاجب لتثييه الخليفة للخطر وجده شمالاً. ولم يبق الا بعد فوات الامر فالقى القبض عليه وسجن^(٣). وهكذا ذهب القاهر ضحية طغيان الجيش وتكالب رؤسائه وجشعهم. وجيء بأبي العباس بن المقتدر - وكان سجيناً - فبويع ولقب بالراضي. واجبر القاهر على التنازل عن الخلافة ثم سملت عيناه وبهذا سقط آخر حق من حقوقه.

(١) مسكويه ١، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، (٢) مسكويه ١، ٢٨٤، ٢٨٥

عريب ١٨٣-١٨٥ (٣) Bowen p. 323-324

رغب الرازي في استيزار علي . ولكن هذا اعتذر لضعفه وكبر سنه . فاسندها الى ابن مقله الذي تمكن من اغراء رؤساء الساجية ولا سيما (سيما الشراي) بكمية من المال وتعهد بدفع نصف مليون دينار عطايا للبيعة ^(١) .

وفي هذا الوقت استقل البويهيون في فارس ، وظهر البريديون (واشهرهم ابو عبدالله البريدي ^(٢)) وتمكنوا بواسطة صداقتهم لابن مقله وبجئث اساليبهم من التدرج من جباة عاديين الى حكم يدهم خوزستان يحكمونها حكماً مستقلاً . وكانوا مثلاً للظلم والارهاق في الجباية ^(٣) . وفي هذا الوقت صار لابن رائق مركز مهم . فقد كان من مؤيدي القاهر فكفاه بولاية البصرة . وترضاه ابن مقله بعد اخفاقه في الحصول على الحجابة باسناد قيادة الجيش والشرطة بواسطة اليه . فصار شخصية يقام لها ويقعد ، كما ان الحسين بن ابي الهيجاء الحمداني تنفذ في منطقة الموصل وديار ربيعة لدرجة انه قتل عمه سعيداً الذي ولاه الخليفة على الموصل املاً بالحصول على بعض الدراهم من ديار ربيعة . وتمكن من ارشاء ابن مقله قائد الحملة المرسله لاختصاصه ، وحصل على تولية من الخليفة وفضل المشروع ^(٤) .

«١» مسكو ١٤٠٦٤٠٠٢٩١-٢٩١ . ٢ . سمر الكذلك لان جدم كان صاحب بريد البصرة

(٣) مسكو ١٤٠٦٤٠٠٢٥٤ - ٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣٦ ، ٢٧٤٤ ، ٣٠٣٦٣٠١٤ ،

٣٤٨-٣٣٩٠٣٢١-٣٢٠٦٣١٩ (٤) مسكو ١٤٠٦٣٢٣-٣٢٧٠٣٤٧-٣٤٨

الازمة، بل انه لم يستطع الاستفادة من الموارد التي كانت لديه بصورة كافية، إذ وجدت بعد عزله صكوك لم تصرف. وبقي في الوزارة ثلاثة شهور. ثم استوزر الرازي سليمان بن الحسن. ولكنه ادرك استحالة استمرار الوضع لانفصال الولايات، واخيراً اضطر الخليفة لقبول اقتراح ابن رائق وهو انه يقوم بتجهيز النفقات العامة، ودفع رواتب الجيش ان عهدت اليه القيادة والادارة العامة (١).

لقب ابن رائق امير الامراء، وصار يمهده رئاسة الجيش، وامتدت سلطته بصورة مباشرة على جباية الضرائب وعلى ادارة الحكومة المركزية وغدا اسمه يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة.

(١) اقتراح ابن رائق قبيل سقوط ابن مقلة بانه ان عين وزيراً فانه يتمهد بدفع كل النفقات وعلاوة على ذلك يخصص للخليفة مخصصات كافية. فلم يقبل الخليفة آنذاك بالاقتراح. انظر بوين ٣٢١ - ٣٢٢ ولكن ابن مقلة تخلى الآن عن طلب الوزارة لأنه ادرك تغير الوضع.

البويهويه

الخطبة : —

- (١) مقدمة جغرافية اثنولوجية
- (٢) نشأة البويهيين
أ) مبدأ امرهم وتوسع نفوذهم حتى فتح بغداد
ب) اهلهم
- (٣) سياستهم في العراق
أ) علاقتهم بالخليفة
ب) سياستهم المالية
- (٤) اسباب تدهورهم
أ) الخصومة بين افراد الاسرة المالكة
ب) الجيش واسباب اخرى
- (٥) الاثر الاقتصادي والاجتماعي للبويهيين

البوهرية

أدى توسع الديلم في القرن الرابع الى ان يدخل الجغرافيون تحت كلمة « الديلم » مجموعة الاراضي المحيطة ببحر الخزر والتي تحدها خراسان من الشرق والجبال من الجنوب واذريجان من الغرب . أما بلاد الديلم الأصلية فهي المنطقة الكائنة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر^(١) . ويسكن الديلم الاراضي الجبلية على الجهة الشمالية لجبال البرز بين نهر (سفيد رود) ونهر (شالوس) الذي يصب في البحر على مسافة ١٨٠ كيلو مترا الى الشرق من سفيد رود^(٢) . ولعل الديلمة ينتسبون الى اقوام غير ايرانية كانت تسكن في مناطق بحر قزوين في الزمن القديم وفي العصر العربي كانت لغتهم لهجة ايرانية شمالية تختلف عن الفارسية التي هي لهجة جنوبية وبالأخص لهجة مقاطعة فارس ، ولكن اغلبية الديلم كانوا قد اصبحوا ايرانيين بمعنى الكلمة في العصر الاسلامي^(٣) ويظهر ان الديلمة كانوا ينقسمون اجتماعيا واثولوجيا الى (الاستانية) « الذين يسكنون الاوعار والحصون والجبال من بلاد الديلم » واللاتنجية الذين « يسكنون صحارها والسهل من بلادها »^(٤) .

وكان نظام الديلم الاجتماعي يستند الى سلطة رؤساء العوائل .

(١) المقدسي ٦٣٥٣ حدود العالم ص ١٣٣ و ص ٤٨٤ (٢) Minorsky p.

(٣) Mimorsky p. (٤) ابن حنبل - تفضيل الاثر على سائر الاجناد ص

ثم جاء الحسن الاطروش ففضى على هذا النظام الارستقراطي القديم والذي يرتكز على سلطة الكاتخدا (رب البيت) واستبدله بنظام التعاون بين مختلف طبقات الشعب وبذلك افسح المجال للطبقات الواطئة ان تتقدم^(١) اما دين الديلمة فيشوبه الغموض . فقد تخلت بلادهم الزردشتية ، ولعل المسيحية قد دخلتها ايضاً . والسعودي يصرح بأنه يوجد في الديلم اناس على جهل بكل الاديان المعتبرة^(٢) .

ولقد لاحظ المسلمون عندهم بعض العادات الغربية فالمقدسي يبين انهم يحضرون الزواج بينهم داخل اقبيلة^(٣) .

و كانت منزلة النساء حسنة عندهم . يقوله مسكويه : « وكن يجرى مجرى الرجال في قوة الحزم واصالة الرأي والمشاركة في التدبير »^(٤) . ويتحدث الكتاب عن شدة حزنهم ومبالغتهم في العويل على الاموات^(٥) . ولم يكونوا متحضرين كبقية الايرانيين . « و كانت الفرس تسمي الديلم اكراد طبرستان »^(٦) . وكان البغداديون يحقرونهم ويرونهم جهالاً خشنين . يقول التنوخي « كان الناس يتمثلون اذا ظلموا فيقولون أي شي خبرنا ، في يد الديلم نحن أم في يد الانراك ؟ »^(٧) ويقول المقدسي عن

(١) يقول البيروني عن الحسن انه « اعاد اشراك المردة مع الناس في الكندخداية (٢) مروج الذهب اوربا ج ٩ ص ٤ ، ج ٨ ص ٢٧٩ ٣ المقدسي ص ٣٦٨ - ولديلم رسوم عجيبة لا يروجون الي غيرم (٤) ج ٣ ص ٣١٣ (٥) Tuncsky p.5 ، المقدسي ص ٣٦٩ (٦) حمزة الاصفهاني ص ١٥١ (٧) نشار المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ ، B w n 3 1 5 6

الديلمان « لا ترى لهم لباقة ولا علم ولا ديانة »^(١) . ولكن الديلم
اشتهروا بالشجاعة فالمقدسي يقر بانهم اصحاب « دولة ورجلة وهيبة »^(٢) .
ويشيد صاحب حدود العالم بشجاعتهم وبقبايلتهم الحربية ويبين
انهم يستعملون الدروع والسيوف القصيرة في القتال^(٣) . واشتهروا
بجمال وجوههم وشعورهم^(٤) . وكان عامتهم اكرة وفلاحين^(٥) .

— ٢ —

وقد ساعدت وعورة البلاد على صعوبة اخضاعها وكان الساسانيون
قد جعلوا قزوين الحصن الاكبر ضد الديلمة كما كانت قلعة شالوس
(Tchalus) ذات اهمية كبيرة أيضاً فجعلها المسلمون تقطعي ارتكاز
ضد الديلمة . ولكن هؤلاء لم يظهروا امارات الخضوع ابداً . فلم تكن
للحملات المتعددة التي ارسلت ضدهم نتائج ثابتة . ولم يكن المسلمون
يجهلون جغرافية جبال الديلم جهلاً تاماً . فيروي ان الحجاج احضر
خارطة للديلم واظهرها لرؤساء الديلمة ليبين لهم عبث المقاومة ما دامت
اسرار بلادهم معروفة . ولكنهم نظروا اليها بشيء من عدم الاكتراث
واجابوا بان الخارطة ناقصة إذ لا يرى فيها الفرسان التي
تحرس الجبال^(٦) . وقد بقي سكان الديلم وجيلان وتيمين او زردشتية
حتى قبيل القرن الثالث للهجرة^(٧) . ثم تغلغل الاسلام في الديلم بطريقة

(١) ص ٣٥٥ (٢) شرحه (٣) حدود العالم ص ١٧٣ (٤) المقدسي ٣٦٨

ص ٣٦٠ (٥) نشرارج ص ١٥٧ ، حدود العالم ص ١٧٣ (٦) ابن الفقيه

٢٨٣ ، Minority (٧) Minor: by 306

سلبية ، إذ التجأ اليها بعض العلويين الزيدية (١٧٥ هـ / ٧٩١ م) هرباً من الاضطهاد السياسي فقبولوا حلفاء حتميين ضد خلفاء بغداد .

وبعد سنة ٢٥٠ / ٨٦٤ قام هؤلاء الائمة بدور هام وخلقوا من الديلم مركزاً جديداً المقاومة ، معاديا لبغداد ولامرء خراسان (الذين حاولوا مد نفوذهم على مقاطعات بحر قزوين) على السواء ^(١) . وبالتدريج انتجت الدعاية العلوية ما عجز عنه السلاح وهو تحويل أكتيرة الديلم الى الاسلام على المذهب الزيدي . كما ان الائمة انفسهم قد تدلموا وجعلوا قضية السكان المحليين قضيتهم .

وما دام الديلمة يقاومون دخول الاسلام فان بلادهم كانت تعتبر دار حرب وهذا يجعل المسلمين حق تنظيم الحملات ضدهم للحصول على الرقيق . الا ان الناصر حسن بن علي الاطروش وضع حدا لهذه الاعمال وهدم قلعة شالوس (٣٠٢ / ٩١٤) الموجهة ضد الديلمة .

ولحماية حق الديلمة في المراعي المشتركة التي اراد الطاهريون الاستيلاء عليها ^(٢) تحالف العلويون أول الأمر مع الامراء المحليين (العائلة الجستانية) ^(٣) . ومن الديلم قاد الائمة حملات خلال مناطق بحر قزوين

١ الحسن بن زيد : ٢٥٠ — ٢٧٠ هـ ثم اخو محمد بن زيد : ٢٧٠ — ٢٨٧ هـ

٢ حسن بن علي الاطروش ٣٠١ هـ — ٣٠٤ هـ ، الحسن بن القاسم : ٣٠٤ — ٣١٦ هـ

انظر التفاصيل في هذا الكتاب ص ٧١ — ٧٣

Barthold Turkistan P. 214 Bowen P. 308 انظر الكتاب ص ٧٢

(٣) انظر ابن حسول ص ٣٢ — ٣٣

وهكذا عودوا الديلمة على فكرة التوسع وجعلوهم يشعرون بقوتهم . كما
ان انتشار الاسلام بينهم اثار روح المغامرة فيهم^(١) .

واخيراً نرى العلويين حوالي (٣٠٢ / ٩١٤) يصغون حركتهم
بصبغة شعبية ويثيرون الاهالي ضد الامراء الجستانيين ويتسلمون
السلطة بيدهم^(٢) .

وقد انقسم العلويون على انفسهم بعد وفاة الاطروش لانه استخلف

نسيبه الحسن بن القاسم الداعي الى الحق فاسخط ابناءه .

ونشبت الحرب بين مدعي خلافته ، وكان كل منهم يحاول

استخدام الديلم لشجاعتهم^(٣) فظهرت سلسلة من الشيوخ المحاربين في خدمة

العلويين وتقدمت لبده احتلال ايران الغربية والجنوبية . ومما فسح المجال

لهؤلاء الشيوخ ان الخصيبي دعى ابن ابي الساج سنة ٣١٥ هـ من اذربيجان

لمحاربة القرامطة . فمانع ابن ابي الساج منذراً بالخطر وقد جاء في جوابه

« انا في ثغر اعظم من ثغور الروم وبازاء سد احصن من سد ياجوج

وماجوج وان اخلت به انفتح منه اعظم من امر القرامطة ولم يؤمن ان

يكون سبباً لزوال المملكة في سائر النواحي » . فلم يصغ احد الى إنذاره

وكانت نتيجة ذلك وخيمة^(٤) فظهر من الديلم اولاً ليلي بن نعمان سنة

٣٠٨-٩٢٠ الذي استولى على نيسابور ولكن السامانيين قضوا عليه في

(١) مينورسكي ص ٧-٨ Bowen 306 (٢) Minorsky p 8

(٣) انظر التفاصيل في Bowen p. 307-311 (٤) التنوخي - نشوار

السنة التالية . ثم ظهر في خدمة العلويين قائد شجاع اسمه (ما كان بن
كاكي) الذي فتح آمل وطرد خصمه اسفار بن شيرويه منها . ثم اخذ الري
من السامانيين ، ودخلها مع سيده الداعي . فاستغل اسفار بن شيرويه
فرصة ترك (ما كان) لطبرستان فهاجمها وقتل الداعي مدافعا عن آمل
وطرد ما كان من الري .

وكان اسفار شخصية عسكرية خشنة كما انه « كان لا يدين بملة
الاسلام ^(١) » وقد رمى المؤذن من قمة المنارة في قزوين عند الاذان . ولم
يطل امد انتصاره اذ ان سوء ادارته وظلمه للرعية ادى الى التدمير فقام ضده
قائده مرداويج بن زيار وبالتحالف مع ما كان طرده من الري وهزموه
وقتلوه . ثم اصبح مرداويج ضد ما كان وطرده من طبرستان ^(٢) . وصار بيده
طبرستان وحرخان والري وشمال الجبال واخيراً فتح همدان وهزم جيوش
الخليفة فيها ونهبها ^(٣) .

وكان مرداويج ايرانيا بميوله طموحا . فكان يقول « انا ارد
دولة العجم وابطل ملك العرب » ^(٤) وهو مؤسس السلالة الزيارية التي امتد
نفوذها غربى ايران حتى الاهواز ولكنها استقرت مؤخراً في منطقة
جرجان غرب استراباد . واصل الزياريين من جيلان الا انهم كانوا
اقرباء الديلمة ، وكانت العائلة الزيارية (حتى ٤٢٨-١٠٢٩) اول سلالة

(١) المسعودي ج ٩ ص ٨ ، ص ١٠ ، ٢ . ثم انتقل ما كان الى خدمة السامانيين

وستط اخيراً في ثورة ضد ساداته الجدد سنة ٣٢٩-٩٤١ ، (٣) Bowen 308-311

، Minorovsky p. ٥ ، (٤) المنتظم لأبن الجوزي ٦ ص ٢٦٨

ايرانية ثبتت مركزها غرب السامانيين .

ان تعاقب عدد من الرؤساء الديلمية على المسرح بعد سنة ٩١٠ م يدل على القوة الكامنة في بلاد الديلم ، وهي التي ادت اخيراً الى ظهور اهم سلالة ديلمية وهي السلالة البويهية (١) .

كان مؤسسوا الدولة البويهية الاخوة الثلاثة علي (وهو فيما بعد عماد الدولة) وحسن (ركن الدولة) واحمد (معز الدولة) وابوهم ابو شجاع بويه ومنه اشتق اسم العائلة . وكان صيادا فقيراً على بحر قزوين (٢) ويقطن في قرية كيا كيش (Kiyaklich) في الديلم (٣) . وبعد نجاحهم وضع لهم نسب يتصل بالملك الساساني (بهرام جور) او بوزيره مهر نرسي (٤) ويذكر ابن حنبل ان ابا اسحق الصابي نسبهم في كتابه التاجي الذي كتب لتمجيد البويهيين بامر عضد الدولة وبشرافه الى بني ضبة في العرب (٥) وفي الوقت نفسه الى بهرام جور (٦) .

كان الاخوة الثلاثة جنوداً مغامرين جربوا حظهم في خدمة ما كان

(١) Minorsky p. 9 (٢) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٩ وينسب الى قبيلة شيرزبل آفند Minorsky p. 9 حمزة الاصفهانى يسميها شير ذبل آوند ص ١٥٣
(٣) Mniorsky P. 9 (٤) ابن حنبل ص ٣٥ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة «بويهيون» ، Minorsky p.9 ، Bowen 339 ، المنتظم ينسبهم الى سسابور ذي الاكتاف ج ٦ ص ٢٧٠ (٥) ص ٣٤-٥٦ . ويعلق ابن حنبل قائلاً: «فلول ظلم في الصابي .. ان نسب ذلك الوالي الى نسب مجهول ووقفه موقف مغرور مغفور . تم تنامي ما اوجب له من النسبة العربية حتى نزع به الى الدوحة الفارسية في بهرام جور ومعلوم تبان العرب والعجم في انسابهم ص ٣٥

فارتفع علي الأكبر الاخوة بعقريته الحربية الى مركز هام وعندما دحر ما كان على يد مرداويج وانتقل لخدمة السامانيين اتضح أنه لا يستطيع القيام بنفقات جيش واسع . فطلب الاخوة منه بصراحة ان يسمح لهم بترك خدمته قائلين « الاصلح لك مفارقتنا اياك لتخف عنك مؤنتنا ويقم كلنا على غيرك . فاذا تمكنت عاودناك »^(١) . وانتقلوا الى خدمة مرداويج . وتميز علي بسرعة فولي على كرج سنة ٩٣٢ (بين اصفهان وهمدان) واظهر كياسة في الادارة واجبه سكان المنطقة والعمال المحليون . فثارت شكوك مرداويج وعندئذ راى علي ان من الحكمة ان يجمع ضرائب المنطقة لمدة سنة ويسير جنوبا الى اصفهان . وفكر بدخول خدمة الخليفة ، ولكن والي المنطقة المظفر بن ياقوت رفض ، فاستطاع علي بحذقه الاستيلاء على اصفهان ودحر الوالي^(٢) .

فاغتاض مرداويج وأرسل اخاه واشمكير ضدا لصفهان فراجع علي غربا الى ارجان واحتلها سنة ٣٢١ / ٩٣٣ ثم استطاع ان يحوز نصراً باهراً على والي الخليفة على مقاطعة فارس سنة ٩٣٤ . وفي سنة ٣٢٢ - ٩٣٤ تمكن احمد بن بويه وكان عمره حوالي تسعة عشر عاماً من احتلال كرمان . ومنذ ذلك الحين لم يبق بيد الخلافة الا حدود ايران الغربية ، ففي خراسان كان السامانيون ، وفي الري و اصفهان كان الزياريون وفي الجنوب كان الاخوة البويهيون^(٣) .

(١) مسكويه ج ١ ص ٢٧٧ (٢) كان اتباع الوالي ٤٠٠٠ واتباع علي ٧٠٠ ولكن مرتزقة الوالي كانوا من الديله فانضموا الى علي وخاصة وانه كون له سمعة طيبة ،

فانقصر على خصمه . (٣) Minorsky p. 10 (٣) Minorsky p. 10

ولم يرتح مرداويج بل قرر ضرب علي بن بويه . ولما جهته من جهتين أرسل جيشا الى خوزستان فهزم ياقوتا والي الخليفة ولكن عليا فاوض مرداويج قبل ان يأتي ضده وقدم له الطاعة وأرسل اخاه الحسن كرهينة وأرسل الهدايا فرضي مرداويج .

ولما فتح مرداويج خوزستان بهذه السهولة فكر بمشروع اخطر إذ قرر فتح بغداد والقضاء على الدولة العباسية وانشاء مملكة على الطراز الساساني مركزها طيسفون . و كان يقول « انا ارد دولة العجم وابطل ملك العرب »^(١) ، ولكن حكم مرداويج لم يدم طويلا لانه كان شكس الطبع سيء الاخلاق قاسيا . كما انه بتقريبه الديلم ازعج الاتراك في جيشه فقتله الترك في عيد السدق سنة ٣٢٣ / ٩٣٥ ، وانهارت بموته مشاريعه العظيمة . ورجع الحسن بن بويه الى اخيه^(٢) .

وانتهز البويهيون الفرصة فاحتلوا اصفهان والري . ثم استمر توسعهم نحو الغرب ومنذ سنة ٣٢٦ ، ٩٣٧ دخل احمد الاهواز واحتفظ بها برغم المقاومة التي لاقاها . ثم ازداد طموح البويهيين ، ففي سنة ٣٢٨ ، ٩٣٩ نسمع لأول مرة بان اكبر الاخوة يريد التوجه لفتح العراق . ثم ان الاخ الاصغر احمد هاجم ممتلكات الخليفة خمس مرات بين (٩٤٢ - ٩٤٥) متخللا كل مرة الى ابعد من سابقتها في العراق . وفي العراق انحلت اسرة البريديين في الجنوب (البصرة) ومات امير الامراء

(١) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٨ (٢) Minorsky p.10 Bowenp. 342

توزون بالصرع وتآمر عامل واسط مع احمد بن بويه للتقدم الى العاصمة
والتي كانت تشكو الفوضى وسوء الادارة والازمة المالية . فهرب الاتراك
شمالا عند سماعهم بمقدمه ودخل احمد بن بويه في مخبرات سرية مع الخليفة
ودخل بغداد (دون مقاومة) في ١٧ كانون الثاني سنة ٩٤٦ (١) .

ودخل ابو الحسن احمد بن بويه على الخليفة « وأخذت عليه
البيعة المكتفي واستحلف له باحفاظ الايمان وخواصه وحلف المكتفي
لابي الحسين بن بويه واخويه وكتب بذلك كتابا ووقعت فيه
الشهادة عليهما » .

وخلع الخليفة علي ابي الحسين وطوقه وسوره وتقدله وجعله أمير
الامراء (٢) ولقبه (عز الدولة) ولقب عليا (عماد الدولة) وحسنا
(ركن الدولة) .

— ٣ —

أ) وظهر التبديل كمجرد استبدال أمير بأمير . نعم كان العصر
البويهى متمما لعصر أمير الأمراء في اتجاهاته ، إذ ان البويهيين اتخذوا هذا
اللقب وحلوا محل الامراء السابقين وبقي الخليفة شبعا وساد الاتجاه
العسكري في مؤسسات الدولة (٣) . ولكن بعض الاوضاع الجديدة
جعلت وضع الخلافة ينتقل من سيء الى اسوء . فقد جاء البويهيون على

(١) Minorsky 12 مسكويه ج (٢) ص ٨٤ - ٢٥ المنتظم ج ٦ ص ٣٤٠

(٣) انظر مسكويه ج ١ ص ٣٥٥

رأس جيش اجنبي وانشأوا امارة وراثية وكانوا شيعة زيدية (١) ،
لا يعترفون بحق العباسيين لحكم العالم الاسلامي (٢) . ولم يبق البويهيون
الخلفاء العباسيين الا لاعتبارات سياسية (٣) .

فقد اراد معز الدولة نقل الخلافة لابي الحسن محمد بن يحيى الزيدى
فحذره خواصه من سخط الناس ومخالفتهم لان « عامة الناس في الاقطار ..
قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهم واطاعوهم طاعة الله ورسوله
ورأوهم اولي الامر » (٤) . وينوا له مزية كون الخليفة عباسياً « فانك
اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو امرتهم
بقتله لقتلوه مستحلين دمه » . وينوا له الخطر على مركزه في حالة تعيين
خليفة علوي قائلين « ومتى اجلست بعض العلويين خليفة - كان معك
من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » (٥) ،
وان السلطة ستصبح بيد الخليفة اما هو فسيكون مجرد تابع « اذا بايعته ..
اطاعه الديلمة ووفضوك وقبلو أمرء فيك » (٦) . فاعرض الامير عن عزمه وفضل
ان يستبد في ظل شبح خليفة على ان يكون تابعا لخليفة يستصوب امامته .

(١) يقول ابن حنبل في مسند ٣٢ : « والغالب على الديلمة التشيع فأنهم اهلهم ا على ايدي
الناصرية (وم زيدية) » . (٢) ابن الاثير ٧ ض ١٤٩ (٣) جاء في I . مادة

But for these wild warriors, religious Buwayhids مايلي
questions were of quite subordinate importance.

(٤) البيروني - الجماهير في معرفة الجواهر ض ٢٢-٣٠ (٥) ابن الاثير ج ٧ ض ١٤٩

(٦) مسكوية ج ٢ ض ٨٧ حاشية .

وبمجيء البويهيين انحط مركز الخليفة من سوء الى اسوء وفقد بقية الحرمة والنفوذ التي كانت له في تسيير دفة الدولة . « و كان من اعظم الاسباب في ذلك ان الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة واخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة » ^(١) وسرعان ما ظهرت قلة احترام البويهيين للخلفاء العباسيين فبعد اثني عشر يوما من دخول البويهيين بغداد (الخميس ٢١ جمادى الآخرة ٣٣٤ ٢٩ كانون الثاني ٩٤٦) خلع معز الدولة المستكفي لانه اتهمه بالتآمر مع قواده ضده ، وبمحاولته الاستنجاد بالحمدانيين ، كما انه لم يرض عن قبضه على رئيس الشيعة ^(٢) . وكان الخلع بصورة مزرية اذ تقدم ديلبان الى الخليفة وهو في مجلسه ومعز الدولة حاضر « فجذباه وطره الى الارض ووضع عمامته في عنقه وجراه فنهض حينئذ معز الدولة واضطرب الناس » وساق الديلمان المستكفي بالله الى دار معز الدولة واعتقل فيها ونهبت دار السلطان حتى لم يبق فيها شيء « واحضر معز الدولة ابا القاسم الفضل بن القمندر وخاطبه بالخلافة ولقب المطيع لله » ^(٣) . ولما هاجم ناصر الدولة الحمداني بغداد سنة ٣٣٥ هـ « يخاصم عن الخليفة » سجن معز الدولة الخليفة . فلما اخفقت حملة ناصر الدولة « استحلف (معز الدولة) المطيع لله انه لا يبيعه سوءاً ولا يماليء عليه عدوا ثم ازال التوكيل عنه واعاده الى

(١) ابن الاثير ج ٧ ص ١٤٩ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٨٦
 Nino rskyl2-3 (٣) مسكويه ج ٣ ص ٨٦ - ٨٧ ، المنتظم ج ٦ ص

داره»^(١). وفي ١٩ رمضان سنة ٣٨١/٩٩١ طمع ببناء الدولة باموال الطائع واخذ املاكه^(٢). ونفذ ذلك بطريقة فضيحة اذ زار الخليفة وبينما هو جالس تقدم اصحابه « فجدبوا الطائع بحمائل سيفه من سريره ، وتكاثر الديلم فلف في كسائه وحمل الى بعض الزبازب واصعدلى الخزانة في دار المملكة » ثم خلع^(٣).

وقد كان الخليفة يزار ولا يزور احداً ، الا ان عضد الدولة تجاوز ذلك فعند مجيئه من همدان الى بغداد سنة ٣٧٠ نزل بجسر النهر وان « وطلب من الطائع ان يتلقاه فخرج اليه الطائع . . . وتلقاه »^(٤).

وبمجيء البويهيين انشأت امارة وراثية في قلب الخلافة وبعد ان كان للخليفة في الفترة السابقة وزير وللأمير كاتب انعكس الوضع الآن^(٥) وصار البويهيون يتدخلون حتى في تعيين كاتب الخليفة^(٦) واستأثر البويهيون بالاموال بينما خصصوا للخليفة راتباً . فجعل معز الدولة للمستكفي خمسة آلاف درهم في اليوم^(٧). ثم خفض ذلك عند تعيين المطيع الى ألفي درهم يومياً^(٨). وبعد ان افتتح البصرة سنة ٣٣٦ قطع معز الدولة ذلك الراتب عن الخليفة واعطاه ضياعاً قدر مائتي الف دينار سنوياً^(٩) ، ولكن البويهيين كانوا يتجاوزون احياناً على وارده هذه الضياع حتى تقص واردها الى خمسين الف دينار

(١) المنتظم ج ٦ ص ٣٥٠ (٢) مسكويه ج ٣ ص ٢٠١ (٣) المنتظم ج ٧ ص ١٥٦

(٤) شرحه ج ٧ ص ١٠٢ (٥) ابن الاثير ج ٧ ص ١٤٧ (٦) انظر مترج ١ ص ٢٢

(٧) ابن الاثير ج ٧ ص ١٤٨ (٨) مسكويه ج ٢ ص ٨٧ (٩) مسكويه ج ٢ ص

١٠٨ ، انظر المنتظم ج ٦ ص ٣٥٧

في السنة^(١). ويقول مسكويه « ضياع الخدمة الرسومة بالخلفاء . وقد كانت
(سنة ٣٦٤ هـ) متشذبة قد تحيفها اسباب معز الدولة ثم اسباب بختيار
فمنهم من تغلب على حدودها ومنهم من استقطع الخليفة بعضها . ومنهم من
ضمن منها ما لم ينصفه من نفسه فيه ولم يسهل اخراج يده عنه فرد عضد الدولة
ذلك كله الى حقه »^(٢) وكان الامير احيانا يضطر الخليفة الى ان يعطيه
بعض المال ، كما فعل بختيار سنة ٣٦١ هـ حين طلب اربعمائة الف دينار
بحجة الجهاد ، فاضطر الخليفة الى بيع جواهره واثاثه لاجابة الطلب^(٣) . وكانت
اموال الخليفة احيانا عرضه المصادرة ، كما فعل معز الدولة بالمستكني
وبهاء الدولة بالطائع .

ويتضح زوال سلطة الخليفة من كتاب المطيع سنة ٣٦١ - ٩٧١
الى بختيار حين طلب هذا منه مالا للجهاد مدعيا ان ذلك من واجب
الامام . قال المطيع « الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي والي تدبير
الاموال والرجال . واما الان وليس لي منها الا القوت القاصر عن
كفائي وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج
ولا شيء مما تنظر الائمة فيه . وانما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون
به على منابركم تسكنون به رعاياكم . فان احببتم ان اعتزلت اعتزلت عن هذا
المقدار ايضا وتركتم والامر كله »^(٤) . وفي سنة ٣٨١ هـ كتب القادر
عند تعيينه للخلافة الى بهاء الدولة كتابا جاء فيه « فقد اصبحت سيف امير

(١) المنتظم ج ٦ ص ٣٥٧ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٣٤ ، شرحه ج ٢ ص

٣٠٨ (٤) شرحه ج ٢ ص ٣٠٧

المؤمنين لأعدائه والحاضي دون غيرك بجميل رايه والمستبد بحماية حوزته
ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عنده»^(١). ولم يكتب البويهيون
بأخذ السلطة عمليا بل أخذوها نظريا بان جعلوا الخلفاء يفوضونها اليهم
بصورة رسمية علنية . ففي سنة ٣٦٩ هـ وفي حفل مهيب فوض الطائع
السلطة لعضد الدولة قائلا « قد رأيت ان افوض اليك ما وكل الله
تعالى الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتديرها في
جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي ، فتول ذلك مستخيرا بالله » وانهى
كلامه قائلا « آمرك بما أمرك الله به وانهاك عما نهاك الله عنه وابرأ الي
الله عما سوى ذلك »^(٢).

وفي سنة ٢٨١ هـ اجتمع الاشراف واقضاة والشهود عند القادر
وسمعوا يمينه بالوفاء لبهاء الدولة و« لفظه بتقليده ما وراء بابه مما تقام
فيه الدعوة »^(٣).

ولم يقتنع البويهيون بأخذ السلطة بل شاركوا الخلافة في امتيازاتها
الأخيرة في مشاراتها. فقد كانت الخطبة في بغداد رمز سيادة الخليفة السياسية
فلم يمض ربع قرن حتى اعتصب البويهيون هذا الامتياز وأصبح اسمهم
يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة . بدأ عضد الدولة بذلك سنة ٣٦٩
ثم صار سنة لمن جاء بعده من الامراء^(٤). والخطبة لا مير معناها اعتراف

(١) المنتظم ج ٧ ص ١٥٩ — ١٦٩ ٢ مسكويه ج ٢ ص ٣١٧ — ٣١٨

حاشية ، المنتظم ج ٧ ص ١٠٠ ، قطب الدين الحنفي : الاعلام باعلام بيت الله

الحرام ص ٧٨ (٣) المنتظم ج ٧ ص ١٦٠ (٤) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٦ ، المنتظم

الخليفة بسيادته في بغداد (١) . واغرب من هذا ان عضد الدولة اختلف مع الطائع فحذف اسمه من الخطبة لمدة حوالي شهرين (٢٠ جمادى الاولى - ١٠ رجب سنة ٣٦٤ هـ (٢) .

وصارت السكة وهي الرمز الثاني لسيادة الخليفة بيد البويهيين . فحذفوا لقب أمير المؤمنين واكتفوا بذكر اسم الخليفة على النقود . في حين ان الامير البويهي لم يكتب بذكر اسمه بل اضاف لقبه وكنيته ، واضيف احيانا اسم رئيس العائلة البويهية والقابله ، بل وحتى القاب ولي العهد في بعض الاحيان ، كل ذلك على النقود المسكوكة ببغداد (٣) . وأدى اشرف البويهيين على السكة الى انهم نقشوا عليها احيانا القابا لم يمنحها الخليفة لهم . فمثلا وجد لقب شاهنشاه بجانب اسم عضد الدولة على قطعة نقود ضربت بتاريخ سنة ٣٧٠ هـ مع ان هذا اللقب لم يمنح قبل جلال الدولة . ودراسة النقود في العصر البويهي تبين تذبذب عقرب الساعة بين الامير والخليفة . ففي اماره امراء اقوياء يذكر اسم الخليفة على الخلف فيما يذكر على الوجه في اماره الضعفاء . (٤)

وكان من شارات الخلافة قرع الطبول على ابواب الخليفة في اوقات الصلوات الخمس . فحاول معزز الدولة ان يساهم في هذا الامتياز فاففق ولكن عضد الدولة اجبر الطائع (سنة ٣٦٨) على ان يمنحه حق ضرب الطبول على

(١) Siddiqic-Islami Culture 1936 p. 111-12

(٢) المنتظم ج ٧ ص ٧٦ (٣) مسكويه ج ٢ ص ٨٥ ، Siddiqi p. 112

(٤) Siddiqi p. 113

بابه ببغداد ثلاث مرات يوميا (الغداء والمغرب والعشاء) (١). فحرت العادة بذلك حتى تجاوزها كل من سلطان الدولة وابي كاليجار وجلال الدولة حتى قرعت الطبول لهم خمس مرات يوميا يرغب احتجاج الخليفة (٢). وهكذا سلب البويهيون السلطة من الخلفاء وشاركوهم اول مرة في تاريخ العباسيين في كل شارات الخلافة ومميزاتها. وقد فكر عضد الدولة بمشروع جريء اذ طمع بنقل الخلافة الى البيت البويهى. يقول مسكويه « دبر عضد الدولة (سنة ٣٦٩) ان يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى ». ففعل ذلك وعقد العقد بحضرة الطائع لله بمشهد من اعيان الدولة والقضاة على صداق مائة الف دينار وبنى الامير فيه على ان يرزق ولدا ذكرا منها فيولى العهد وتصير الخلافة في بيت بني بويه . ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة البويهية (٣).

وتجاوز عضد الدولة المألوف في المراسيم ففي سنة ٣٦٧ ركب الى دار الخلافة فلما علم عليه وتوج وطوق وسور « وعقد له « الخليفة » لوائين بيده احدهما مفضض على رسم الامراء والآخر مذهب على رسم ولاية اليهود ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره قبله ممن يجري مجراه وكتب له عهدا وقرأ العهد بحضرة ولم تجر العادة بذلك وانما كانت اليهود تدفع الى الولاية بحضرة الخلفاء ، فاذا اخذه الرجل منهم قال له هذا عهدي اليك فاعمل

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٦ ، المنتظم ج ٧ ص ٩٤ (٢) المنتظم ج ٨ ص ٣٠

(٣) ٢ ص ٢١٤ .

به»^(١) . فويل كان عضد الدولة يحلم بولاية العهد؟ ولا ضرورة لبيان ان جميع خلفاء القرن الرابع كانوا من اختيار البويهيين يولونهم ويعزلونهم حسب ما تمليه مصالحهم .

(ج) ولم يبق للخليفة الا نفوذه الديني فاخذ يتمسك به ويؤكده . فيقول البيروني (الذي كتب في خلافة اقام) ان الدولة والملاك قد انتقل من آل العباس الى آل بويه ، والذي بقي في ايدي العباسية انما هو امر ديني اعتقادي لا ملكي دنياوي كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من امر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دلالة^(٢)

وقد صرح المطيع سنة ٣٦٣ هـ في عهده للطائع بحقيقة مر كره فقال في كتاب التنازل « هذا ما شهد على متضمنه امير المؤمنين افضل المطيع لله حين نظر لدينه ورعيته وشغل بالعلة الدائمة عن ما كان يراعيه من الامور الدينية اللازمة وانقطع افصاحه (ثقل لسانه بفالج اصابه) عن بعض ما يجب لله عز وجل فرأى الاعتزال . . . الخ^(٣)

وليس من باب المصادفة ان تنتشر الاخبار بتدين القادر واكثاره البر والصدقات واتصاله بالزهاد^(٤) . وقد تدخل القادر في أمر العقائد فعمل كتابا في الاصول على مذهب اهل الحديث وكان يقرأ كل جمعة

(١) المنتظم ج ٧ ص ٨٧ (٢) الاثار الباقية ص ١٣٢ (٣) المنتظم

ج ٧ ص ٦٦ (٤) ابو شجاع ص ٣٠٨ ، الفخري ص ٣٩١ ، المنتظم

ج ٧ ص ١٦٥ - ١

في حلقة اصحاب الحديث بجامع المهدي^(١) . وكتب كتابا قرأه على
الاشراف والقضاة والشهود والفقهاء « يتضمن الوعظ وتفضيل مذهب
السنة والطعن على المعتزلة »^(٢) . أليس في هذا دليل على تركيز الخليفة
مجهوده على الدين وشعوره بانه ركنه الأخير ليستند اليه تجاه قوة البويهيين
السياسية ؟ ولهذا كان الموظفون من اصحاب الخطط الدينية تابعين للخليفة
دائماً . فتعيين القضاة كان من امتيازات الخليفة حتى في اضعف حالاته
ولا يجوز للقاضي الحكم اذا لم يفوضه الخليفة . ففي سنة ٩٦١/٣٥٠ ضمن
أحدهم منصب قاضي القضاة بمائتي ألف درهم سنويا فرفض الخليفة تعيينه
أو مقابله حتى في ايام الاستقبال . ولما عزل بعد سنتين رفض خلفه كل
احكامه لانه اشترى وظيفته من الأمير البويهي^(٣) . ولما حاول بهاء
الدولة ان يسند منصب قاضي القضاة لشيخي لم ينجح لأن الخليفة
رفض تعيينه^(٤) .

وكان ائمة المساجد مسؤولين تجاه الخليفة مباشرة وهم عادة
ينفذون أوامره . وكان الائمة يلاحظون ان لا تحدث بدعة ، في
ففي سنة ١٠٢٩ / ٤٢٠ أدخل الشيعة في الكرخ بدعة في الخطبة فعين
الخليفة خطيبا خاصا بالكرخ فرجم وقت الصلاة إلا ان زعماء الشيعة
اعتذروا للخليفة واستأذنوا منه ان تقرأ الخطبة باسمه كالعتاد فسمح

(١) المتظم ج ٨ ص ١٠٩ وج ٧ ص ١٦١ ، مترج ١ ص ٢٣

(٢) المتظم ج ٨ ص ٤٢ (٣) مسكويه ج ٢ ص ١٨٩ ، ص ١٩٦

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٩ .

بذلك^(١) . وهذا يوضح لماذا كان الفقهاء واقضاه والوعاظ يكونون حزبا يؤيد الخليفة ، وقد استعمله الخلفاء في دور ضعف البويهيين وسيلة لتمهيد الامراء وتقييد تصرفاتهم فحين غضب ائمتهم على جلال الدولة لانه لم يؤدب غلامه اعتدى على منرعة للخليفة « أمر سنة ٤٢٦ اقضاه بالامتناع عن الحكم والفقهاء بترك الفتاوي والخطباء بان لا يحضروا املاكا ولا يعقدوا عقداً »^(٢) فاضطر جلال الدولة الى ترضيته^(٣) .

ولذلك قبل رغم من ضعف الخليفة كان نفوذه الديني أثر في الجمهور لانه بقي بالنسبة الى السنة مصدر السلطان ورمز الشريعة . وأخذ الفقهاء يؤكدون انه الرئيس الاعلى للمسلمين كما يتضح ذلك في كتاب الاحكام السلطانية الماوردي الذي أكد السيادة السياسية والدينية للخليفة . وبواسطة هذا النفوذ استرجع الخلفاء بعض سلطاتهم في النصف الاول للقرن الخامس الهجري . ويشير افخري الى هذا الانتعاش ، اذ يذكر عن القادر المتوفي سنة (٤٢٢) « وفي ايامه رجع وقار الدولة العباسية وتمازوتها وأخذت أمورها في اقوة »^(٤) . ويقول عن خلفه القائم « وزاد به وقار الدولة وامت قوتها »^(٥) .

كما ان نفوذ الخليفة الديني بين اضطرار البويهيين برغم طموحهم الى ابقاء السلطة الشرعية للخليفة . إذ كان من اللازم اصدار عهد بالتولية

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٧٩ Siddiqi I. C. p. 128-9 ٢ المنتظم

ج ٨ ص ٨٢ (٣) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٨-١٢٩ (٤) ص ٣٩١-٢

«الطبايع الاوربية» (٥) شرحه ص ٣٩٢

للأمير عند تبدل الخليفة أو الأمير وذلك لإرضاء الرأي العام . فيعقد اجتماع يدعى إليه كبار الموظفين ورجال الحاشية واقواد والفقهاء والقضاة ثم يتقدم الأمير بتواضع واحترام أمام الخليفة ويقبل يده ويضع العهد على رأسه اجلالاً له ، ثم تقرأ محتويات العهد بصوت عمال ويقسم كل من الأمير والخليفة — الاول بالولاء وصدق الطاعة والثاني بالوفاء وخلوص النية ^(١) . وكذلك كان على المتغلبين على الاطراف لتثبيت مركزهم ان يعترفوا نظرياً بسيادة الخليفة ويحصلوا منه على عهد بالتولية ^(٢) . و كان هذا العهد مهما في ترجيح الكفة في حالة النزاع بين أميرين مثلاً ^(٣) . ولكن يلاحظ ان العهود في الدور البويهية كانت تتوقف لحد كبير على رغبة الأمير ولا تصدر دون موافقته . والحقيقة أن اكثر الطامحين كانوا يتقدمون بطلب العهد الى الأمير لا الى الخليفة الذي كان عليه ان يصدر العهد عندئذ ^(٤) .

والخليفة امتياز آخر وهو منح الاقاب واتشريفات و كان يستطيع بواسطة ان يسترضي او يتملق الأمير . ولما كان الامراء مشغوفين بطلب الاقاب الفخمة من الخليفة كان هذا حذراً في اعطائها . وكان يحاول ان يتسخر اللقب المناسب في كل وضع . ففي سنة ٣٦٧ منح عضد الدولة لقباً جديداً وهو تاج الملل ^(٥) . وفي سنة ٣٨١ لقب

(١) مسكويه ج ٣ ص ٨٤ (٢) انظر المنتظم ج ٨ ص ٣٥٠ انظر مسكويه

ج ٢ ص ٣٢٩ (٤) شرحه ج ٢ ص ١٥٦ — ٧ (٥) المنتظم ج ٧ ص ٧٨

القادر بهاء الدولة بغيث الامة^(١) . وفي سنة ٤٢٩ هـ زيد في القاب
جلال الدولة « شاهان شاه الأعظم ملك الملوك » وخطب له بذلك ،
فغضب العامة ورجعوا الخطباء واستفتي الفقهاء في جوازه فاجازه اثنان
وانكره الماوردي المشهور^(٢) ، ولكن القاب استمر استعماله . وفي سنة
٤٣٠ منح جلال الدولة لقب « الملك العزيز »^(٣) . وكان الخلفاء
احياناً يرفضون اعطاء بعض الالقاب ، فلما طلب الأمير ابو كاليجار لقب
« السلطان الأعظم مالك الامم » رفض طلبه^(٤) . ولم يكتب البويهيون
بالقاب الخلفاء بل كانوا يلقبون انفسهم احياناً بالقاب رفض الخليفة
اعطاءها كقب شاهنشاه الذي استعماله عضد الدولة^(٥) .

وهذا النفوذ الديني للخليفة ، واهميته لتهدئة الرأي العام جعل
البويهيين يتظاهرون باحترام عظيم للخلفاء ويبالغون في اظهار ابهة الخلافة
في المناسبات وذلك لارضاء الجماهير . ففي حفلة العهد الى عضد الدولة سنة
٣٦٩ هـ « جلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة وبين
يده مصحف عثمان وعلى كتفه البردة ويده اقضيبي وهو متقلد سيف
النبي (ص) وضربت ستاره بعثها عضد الدولة وسأل ان تكون حجاباً
للطائع حتى لا تقع عليه عين احد من الجند قبله . ودخل
الاتراك والديلم وليس على احد منهم حديد . ووقف الاشراف

(١) شرحه ج ٧ ص ١٦٣ (٢) المنتظم ج ٨ ص ٩٧—٩٨ (٣) شرحه ج ٨ ص ٨٤

ص ٩٩ (٤) شرحه ج ٨ ص ٦٥ (٥) Siddiqi P. I: ٩

وأصحاب المراتب من الجانبين . ثم اذن لعضد الدولة فدخل . ثم رفعت الستارة فقبل عضد الدولة الارض . فارتاع زياد القائد لذلك وقال بالفارسية . ما هذا ايها الملك ؟ اهذا هو الله عز وجل ؟ فالتفت الى عبد العزيز بن يوسف وقال له فهمه فقل له : هذا خليفة الله في الارض . ثم استمر يمشي ويقبل الارض سبع مرات فالتفت الطائع الى خالص الخادم فقال استدنه . فصعد عضد الدولة فقبل الارض دفعتين . فقال له ادن الي ادن الي فدنا وقبل رجله وثى الطائع يمينه عليه وامره فجلس على كرسي بعد ان كرر عليه « اجلس » وهو يستعفي فقال له : اقسمت لتجلس . فقبل الكرسي وجلس ... »^(١) فما اغربها مهزأة سياسية !

ولاسباب سياسية كان البويهيون يصدرون الاوامر المهمة باسم الخليفة وبتوقيعه^(٢) وكذلك كان يطلب منه توقيع المراسلات الهامة مع الولاة^(٣) ، وحتى المقاولات التي تعمل مع اهل الضمان^(٤) . وعلى كل فقد كان الامير يعمل ما يريد ويرسل الوثائق للخليفة لتوقيعها^(٥) .

—٤

السياسة المالية للبويهيين في العراق :

تخرب نظام الري خلال فترة امير الامراء وكثرت البشوق في ضفاف اقنوات فتدهورت الزراعة واصبحت مساحات واسعة من الاراضي

(١) انظر مسكويه ج ٢ ص ٤١٧—٨ حاشية ، تطب الدين الختفي ص ٧٩ ،

المنتظم ج ٧ ص ٩٨—١٠٠ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٤٤ (٣) شرحه ج ٢

ص ١٢٣ (٤) شرحه ج ٢ ص ١٢٩ (٥) Siddiqi P. 12

الخصبة خرابا .

وجاء البويهيون فابدي بعضهم كعز الدولة وعضد الدولة رغبة صادقة لأصلاح نظام الري ولتحسين شؤون الزراعة . ولكن اهمال الآخرين وقلة خبرة البويهيين بصورة عامة بالادارة وسوء تصرفات الجيش اضرت بالسكان وجعلت عصر البويهيين عصر تدهور مالي بالنسبة للعصور السابقة .

اهتم معز الدولة بتخفيف وطأة الخراب في البلاد ويقال انه سأل علي بن عيسى « الدنيا خراب والامور على ما تراه من الانتشار فأشر بما عندك في اصلاح ذلك » فاجاب علي « ومن أول ما نظر به الأمير وقدمه سد هذه البثوق فهي أصل الفساد وخراب » السواد فقال معز الدولة « وقد نذرت لله عند حضوري في هذه الحضرة إلا اقدم شيئاً على ذلك ولو انفقت فيه جميع ما املك » (١) . وفعلا اعتنى معز الدولة بنظام الري ففي سنة ٣٣٤ سد بثق نهر الرقيل . ونظر الى منطقة بادوريا الخصبة (غرب بغداد) ومنطقة النهروانات المهمة فوجد الزراعة فيها مهملة لخراب القنوات . فخرج بنفسه لسد بثق نهر الروبانية في بادوريا والى النهروانات فسد بثقاتها . وكان تأثير ذلك عظيماً فعلى أثره « عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم » (٢) . كما انه كرى صدر (محول)

(١) مسكويه ج ٢ ص ١٠٦ — ٧ حاشية (٢) شرحه ج ٢ ص ١٦٥ ،

ص ١٦١ حاشية ، المنتظم ج ٦ ص ٣٩

نهر الخااص ليسهل دخول الماء اليه ^(١) . واهتم أيضاً بتحسين الزراعة في
السواد حيث خرب كثير من الاراضي بتأثير الحروب والظلم فارسل
سنة ٣٣٤ ابا الفرج بن ابي هشام لتنفيذ ذلك . واعتنى بتنظيم موعد
جباية الخراج وفي سنة ٩٦٢/٣٥١ نقل وزيره الهلبي سنة ٣٥٠ الخراجية
الي سنة ٣٥١ ليتناسب موعد الجباية مع نضوج الحاصل ^(٢) .

ولكن فراغ الخزينة وضرورة تجهيز الأموال والنققات للجيش
وقلة خبرة معز الدولة جرته الي اتباع سياسة زراعية هدامة في السواد .
ويعطي مسكويه وصفا دقيقا وتحليلا ناضجا لهذه السياسة ^(٣) .

ففي سنة ٣٣٤ « اقطع قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان
وضياع المستترين » وحق بيت المال في ضياع الرعية (أى الضرائب
والرسوم عليها) ^(٤) . وكذلك « اقطع أكثر اعمال السواد على حال
خرابه وتقصان ارتفاعه وقبل عودته الي عمارته » . وتأثير الوساطات
والرشوات للوزراء اعطيت الاقطاعات « بعبء (معدلات ايجار) متفاوتة » .
ولما كان الجند لا يهتمهم إلا جمع المال فانهم احتفظوا بالاقطاعات المربحة
وردوا الخاسرة إذ « لما أتت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في

(١) مسكويه ج ٢ ص ١٦٠ حاشية (٢) Duri- Studies p. 4٤ انظر
منشور الهلبي في رسائل الصابي ج ١ ص ٢٠٩-١٦ اتبع المهلبي طريقه اعتبار
كل ٣٣ سنة قمرية تعادل ٣٢ سنة شمسية (٣) هنا يظهر مسكويه تفوقا بجلب
الانتباه على من سبقه من المؤرخين فهو يعني بنواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية
فيحللها وينقد أرها بدقة (٤) مسكويه ج ٢ ص ٩٦

بعضها بزيادة الغلات وتقص في بعضها بالمحطاط الاسعار — وذلك ان الوقت الذي اقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للمحطاط الذي ذكرناه — فتمسك الراجون بما حصل في ايديهم من اقطاعهم ولا يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة (أي لم يمكن أخذ حقوق الخزينة بكاملها) ورد الخاسرون اقطاعاتهم فعوضوا عنها وتممت لهم نقائصها .

كما ان اهتمام الجند بجمع المال دون الاعتناء بتحسين الزراعة ادى حتما الى خراب قسم من الاقطاعات الجيدة . ولذا اتسع الخرق حتي صار الرسم جاريا ان يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون . اما الاقطاعات المرتجعة فانها قلت ... من كان غرضه تناول ما يجده فيها (اي اخذ كل ما يجد) ورفع الحساب ببعضه (اي تقديم حساب الى الخزينة ببعض الوارد) وترك الشروع في عمارتها . ومما زاد الطين بلة ان اقتصر المقطعون على تدبير نوابيهم بفلاحتهم ووكلائهم ، فلا يضبطون ما يجري على ايديهم ولا يهتمون الى وجه تسمير ومصالحة ويقطعون اموالهم بضروب من الفساد . واعتاض اصحابهم مما يذهب من اموالهم بمصادراتهم وبالخيف على معاملتهم» (١) .

فنتج عن هذه السياسة الاقطاعية ان « انصرف عمال المصالح (يقصد بهم موظفي الري) عنها لخروج الاعمال عن يد السلطان ، ووقع الاقتصار في عملها على ان يقدر ما يحتاج اليه لها (للري) ويقسط على

المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبادائها وان ادوها وقعت الحياة فيها فلم
تنصرف الى وجوهها»^(١). فأدى ذلك الى ان «فسدت المشارب وبطلت المصالح
(أى اعمال الرى) وأتت الجوائح على اثناء (الزراع) ورقت (ضعفت)
احوالهم فمن يهارب جبال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح
الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات »^(٢).
واعطيت الاراضي التي لم تقطع بالضمان الى اكابر اقواد والجند من جهة
والى اصحاب الدراريح والمتنفذين من المدنيين من جهة اخرى . فحاول
كل من الطرفين جمع المال بكل وسيلة وتجنب تدخل الدولة، واستغلال
الفلاحين الى اقصى حد . وخير وصف لتصرفهم كتاب المؤرخ
العظيم مسكويه اذ يقول : « فاما اقواد فانهم حرصوا على جمع المال وحياسة
الارباح ودعوى المظالم والتماس الخطائى (التخفيف فى مقدار الضمان)...
وأما اصحاب الدراريح فكانوا اهدى من الجندي الى تغريم السلطان
والحيلة عليه فى كسب الاموال ونظر بعضهم الى بعض فيما تجرى عليه
معاملاتهم وبنلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ... وتوالت السنون عليهم
فتفردوا بنواحيهم وخلوا بمعاملتهم فمن مستغف يصادر ويغير رسمه
وتنقص معاملته على قدر حاله وماله . ومن مانع جانبه فيخفف عنه الرسوم
ويرتفق على ذلك منه بالاموال يتخذ الضامن عضدا فى شدائده وعند
مناظرة سلطانه ويصطم المستضعفين »^(٣) . فجز هذا الوضع الشائن

الولايات والدمار على الزراعة . إذ بطلت حسابات الدواوين وزالت رقابة العمال « فبطل ان يسمع لاحد مظالمة... واقتصر في محاسبة الضمائم على ذكر اصول العقود وما صح منه وبقي من غير تفتيش عماعومت به الرعية واجريت عليه احوالها من جور أو نصفة ومن غير اشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد الى العماره ، وجبايات تحدث على غير رسم (أي جبايات اضافية) ومصادرات ترفع على محض الظلم ، وازافات الى الارتفاع الوارد) بغير عبرة (أي زيادة على المعدل الرسمي للجباية) وحسابات في النفقات لاحقيقة لشيء منها . ومتى تكلم كاتب من الكتاب في شيء من ذلك فكان ذا حال ضمن ونكب واجتبح و قتل وباعه السلطان بالتطيف وان كان ذا خلة ارضي باليسير فانقلب وصار عوناً للخصم ولم يكن بذلك بمعلوم لان سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال « (١) .
والخلاصة فإن معز الدولة اراد اصلاح نظام الري واحياء الاراضي المهمة كما انه اراد تكوين اقطاعات عسكرية ليربط الجند بالارض . فكانت النتيجة خراب نظام الري ودمار الزراعة لعدم تمكن الحكومة من ضبط الجند .

وأثرت سياسة معز الدولة في الخزينة تأثيراً فظيماً إذ كانت الاراضي عماد الخزينة . فتضاءل مواردها بنتيجة سياسته الاقطاعية . هذا بالاضافة الى انفاقه الزائد على الجند إذ « اسرف في تمويلهم وتحويلهم »

فأدى ذلك الى افلاسة . يقول مسكويه : « فتعذر عليه ان يدخر ذخيرة لنوابئه أو ان يستفضل شيئاً من ارتفاع ولم تنزل مؤنته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفاً على خدمته بل يتضاعف تضاعفاً متفاقماً » . وأدى ذلك أخيراً الى شغب الجند وارتباك السياسة الداخلية ^(١) . وكانت حملته على الموصل نتيجة لضائقته المالية وقلقة المحول اليه من النواحي ^(٢) . وانفق معز الدولة قسماً من ماله على البناء . وعلى كل فقد خلف عند وفاته ٤٠٠.٠٠٠ دينار انفقها خلفه بسرعة ^(٣) .

ثم جاء بختيار (عز الدولة) الى الحكم فكان لا يفهم السياسة أو الادارة بل « اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساكين والمغنين والنساء » ^(٤) . ولم يكن يهتم إلا بجمع المال اللازم لترفيه وجنده . ويلخص مسكويه وضعه كما يلي : « وكان لا ينظر في دخل ولا خرج وإنما يلزم وزيره تمشية الامور من حيث لا يعينه ولا ينصره . ولا يمنع أحداً من جنده شيئاً فاذا وقفت اموره قبض على وزيره واستبدل به فلا يلبث الأمر ان يعود من الالتيات والانحلال الى اسوء ما كان » ^(٥) . ولذلك فلا تنتظر سياسة مالية معينة من وزرائه ولا القيام باصلاحات تذكر . بل اتخذوا المصادرة والتعدي على املاك الموظفين والناس وسيلة لجمع المال لارضائه وارضاء جنده .

(١) شرحه ج ٢ ص ٩٩-١٠٠ (٢) شرحه ج ٢ ص ١٧٥ (٣) شرحه ج ٢

ص ٢٣٨ (٤) شرحه ج ٢ ص ٢٣٤ (٥) شرحه ج ٢ ص ٣٠٧

فاستهل وزيره ابو الفضل بن العباس الحكم بتصادرة الحاشية
واسرع في اجباية الخراج وفرق الاتراك على المقاطعات ليحصلوا على
مخصصاتهم . فارضى الجند في تلك السنة (١) . ولكن سرعان ما وجد
الوزير المضاعف في سد النفقات من هذا المورد . فادت الضائقة المالية
ودسائس الحاشية الى سلسلة تبدلات وزارية سريعة . فكل طامح للوزارة
يضمن لبختيار سد النفقات ومصادرة الوزير الموجود على مقدار من المال (٢)
وهذا الوضع كان يدفع الوزير الى جمع المال بكل وسيلة لارضاء سيده
ولاخفاء قسم منه لنوابه . ففي سنة ٣٦١ لاحظ وزيره الفوضى العامة
ونضوب موارد الدخل فأساء التصرف بان «عدل الى طالب الاموال
من الوجوه المذمومة التي تقبح الاحدوثة بها وتحرم ولا تحل في شيء
من الاديان» (٣) وتجاوز الحاشية الى الشعب فاعتمد «على مصادرات الرعية
والتجار والتاويل عليهم بالمحال . وابتدأ باهل الذمة ثم ترقى الى اهل
الملة فاخذ اموال الشهود ووجوه البلد من اهل الستروث السعاة والغمازين
وسماهم العمال واجرى عليهم الارزاق» . فادى ذلك الى اضطراب العامة
والى ارتباك الوضع المالي حتى «بطلت الاسواق وانقطعت المعاش» (٤)

(١) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٧ (٢) انظر شرحه ج ٢ ص ٢٣٧ . هكذا توصل
ابو الفضل للوزارة . ثم نكسب عندما قدم ابو الفرج محمد بن العباس رشوة كبيرة
للقائد التركي سبكتكين ووعده باستخراج تسعة ملايين درهم من ابى الفضل . ثم رجع
ابو الفضل بعد ان ارضى سبكتكين ووعده باستحصال سبعة ملايين درهم من ابى
الفرج (٣) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٧ (٤) شرحه ج ٢ ص ٣٠٨

وسار الوضع المالي من سييء الى اسوأ طيلة ايام بختيار ففي سنة ٣٦٢ جاء ابن مقلة للوزارة بعد ابي الفضل فجمع من المال من مصادرة الوزير السابق وانصاره ما افاده مدة قصيرة . واستمرت الضائقة المالية وهي على اشدها دون ان يفكر بحل لها . فارتكب «من الظلم والغشم» ما غطى على فضائع سلفه «فانقطعت مواد الاموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة»^(١) وهكذا عمت الفوضى المالية لسوء نظر بختيار واهماله الامور^(٢) ولجشع وزرائه وجنده فلاقت البلاد الامرين من حكمه . ولعل البلاد ذاقت بعض الرفاهية على يد عضد الدولة (٣٦٩ — ٣٧٢ هـ ، ٩٧٩ — ٩٨٢ م) فقد كان أقدر البويهيين الذين حكموا العراق وابعدهم نظراً في السياسة والادارة .

بدأ عضد الدولة اصلاحاته الزراعية سنة ٣٦٩ ٩٧٩ وهدف الى أمرين : اصلاح نظام الري — وتنظيم الجباية . ففي منطقة بغداد وجد كثيراً من القنوات التي تروي المدينة والاراضي المحيطة بها كنهري العبارة ونهر مسجد الانباريين ونهر البزازين ونهر الدجاج ونهر القلايين ونهر طابق وميزابها الى دجلة والصرارة ونهر عيسى وقد اندفنت مجاريها فأمر بحفرها واعادة بنائها^(٣) . وكان مهتماً بصورة خاصة باصلاح بئق في النهروان قرب بغداد يدعى بئق السهيلة^(٤) . كذلك كرى كثيراً من

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣١٤ (٢) شرحه ٣ شرحه ج ٢ ص ٤٠٦

(٤) ابو شجاع ص ٦٩

القنوات التي تخربت في السواد وبني القناطر على افواهاها والمسنيات على بعضها لتنظيم مجرى الماء واستعمل في ذلك الجص والآجر والنورة .
وطلب من الرعية الاهتمام بالقنوات والاعتناء بها ووضع الحراس في بعض النقاط الهامة لحراسة القنوات والسدود في الليل والنهار^(١) ووسع نهر بيان الذي يصل دجلة العوراء بالاهواز .

وكذلك اصلىح الجباية ووضع نظاما ثابتا لها . وأخر افتتاح الخراج الى النيروز المعتضدي ليمتفق ونضج الغلات « وكان يؤخذ سلفا قبل ادراك الغلات » وألح على العدل والانصاف في الجباية ف « امضيت للرعية الرسوم الصحيحة وحذفت منها الزيادات والتأويلات وشجع الزراع على عرض مظالمهم ليرجع حقوقهم حتى من المقطعين العسكريين^(٢) . واعنى أيضاً باختيار الامناء للاهتمام باصلاح السواد وتحسين حاله^(٣) .
وقد كانت اصلاحات عضد الدولة ممكنه لقوته التي ارجعت الأمن للبلاد وضبطه للجند ورغبته الصالحة في تحسين الوضع والخبرة التي اكتسبها البويهيون بشؤون العراق .

ولم يذق العراق طعم الرفاهية طويلا إذ عاد الشقاق الى صفوف البويهيين بعده وسادت الفوضى ولم يخلفه أحد له من الوقت والقابلية ما يستطيع به الاستمرار على اصلاحات سلفه . واذا استثنينا سد شق

(١) ابو شجاع ص ٦٩ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٦—٧ (٣) شرحه

النهران سنة ٣٨٥ وحفر قناة موازية لنهر بيان سنة ٣٩٥ فاننا لا نسمع بعد عن عضد الدولة إلا الحديث عن الفقر والخراب وتكرر فيضان دجلة الذي خرب الارض والغلات لعدم تنظيم مياهه^(١) .
ولترجي موقتا أثر الارتباك المالي في اوضاع الداخلي فنعرض له في حينه .

— ٤ —

وان نقلني تبعة الاضطراب المالي والتدهور العام على قلة خبرة البويهيين وحدها ، بل هناك عوامل هدامة كانت تنخر في جسم الدولة البويهية منذ تأسيسها واهمها نظرة البويهيين الى المملكة ، وتكوين جيشهم . وهنا يدفعنا ضيق المجال وخوف الممل الى الايجاز ، فلنوجز اذن آملين ان نفصل في فرصة اخرى .

آ — كان البويهيون في بدء عصرهم يشعرون على ما يظهر بان المملكة هي ملك عائلي يوزع بينهم ولكنهم كانوا يشعرون ايضا برابطة ادية تربطهم ، ولذا كان الكل يعترفون بسيادة كبير العائلة . وقد كان هذا الشعور العائلي قويا في حياة الاخوة الثلاثة على الرغم من توزع الاسرة بين ثلاث مراكز كبرى وهي شيراز والري وبغداد .

كان عماد الدولة رئيس العائلة الاول ، فلما توفي ٣٣٨ / ٩٤٩ - ٩٥٠

(١) Duri-Studies P. 54 بحث السياسة المالية مأخوذ عن رسالة

خلفه في حكم مقاطعة فارس ابن اخيه عضد الدولة (بن ركن الدولة)
بعهد منه . ثم توفي معز الدولة (٩٥٧/٣٥٦) فخلفه ابنه بختيار (عز
الدولة) في حكم كرمان وخوزستان والعراق . وظهر بختيار ميالا للملذات
ومجردا من كل مقدرة . فلم يستطع ضبط جنده . و كان متدمرا من
نفوذ مرتزقة الاترك كما طمع باموالهم . و اراد استئصالهم فقاموا بثورة
ضده و أخذ زعيمهم سبكتكين الساطة بيده في بغداد ، و تزعزع سلطان
البويهيين في العراق .

كما ظهرت بوادر التشيع في الشعور العائلي عند الجيل الجديد
فمعز الدولة اوصى ابنه باطاعة ركن الدولة واستشارته ، و باطاعه عضد
الدولة « لانه اسن منه واقوم بالسياسة » ^(١) ولكن سرعان ما ساء بختيار
التصرف مع ابن عمه ^(٢) فكانت نتائج ذلك غير محمودة .

وعلى كل فقد استنجد بختيار في محنته بركن الدولة وبعضد
الدولة ، وبالاتفاق مع ابيه ذهب عضد الدولة ٩٧٤/٣٦٤ الى بغداد
لاعادة النظام فنجح في ذلك ^(٣) . وفي الوقت نفسه تمكن بدسائسه من
جعل بختيار يستعفي من الحكم ليحتل هو مكانه ^(٤) ورأى عضد الدولة
ضرورة استحصال موافقة والده ، فأرسل رسولين قديرين اليه ليقنعا .
ولكن قوة الشعور العائلي عند عضد الدولة احبطت مساعي

(١) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٥ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٥ (٣) انظر مسكويه

ج ٢ ص ٣٣٠-٣٣٣ (٤) شرحه ج ٢ ص ٣٤٣

والده . إذ غضب أشد الغضب ووبخ ابنه وهدده ، فاضطر عضد الدولة الى ارجاع بختيار الى عرشه ^(١) ولم يجرأ على التقدم ثانياً الى العراق إلا بعد وفاة والده وبعد تحرش بختيار به وعندئذ فتح بغداد سنة ٩٧٧ / ٣٦٧ وأخضع العراق بكامله حتى آمد (ديار بكر) ^(٢) .

وكان ركن الدولة قد عهد لابنه عضد الدولة وولى ابنه فخر الدولة على الجبال ، ومؤيد الدولة على اصفهان على ان يخضعا لآخيها الاكبر . ولكن الشقاق دب بين الاخوة فجرد عضد الدولة اخاه فخر الدولة من ملكه واضطره للهرب الى خراسان .

وكان عصر عضد الدولة المع قرة في السيادة البويهية . وفي زمنه احتلت جيوش البويهيين بلوچستان ومكران وغزت عمان بنجاح . واشتهر هذا الأمير بانشائه العمرانية فبنى قصرًا في شيراز يحتوي على ثلاثمائة قاعة ، جدرانها مغطاة بالفضار الصيني والرخام او مزكشة بالنقوش وانشأ سدا مشهورا في فارس باسم (بند أمير) ، وبني ضريح علي وضريح الحسين في العراق وانشأ مستشفى في بغداد .

واشتهر اخواه مؤيد الدولة وفخر الدولة (ومركزهما الري) بعلاقتهما بالوزير المشهور الكاتب صاحب السماعيل بن عباد (٩٩٥ / ٣٨٥) .

(١) شرحه ج ٢ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ (٢) شرحه ج ٢ ص ٢٦٤ — ٣٧٢ . ٥

٣٧٥ — ٦ ، ٣٧٨ — ٣٨٣ .

وبعد وفاة عضد الدولة اشتعلت الحرب بين ابنائه الثلاثة . فدعى
اشراف الزري فخر الدولة من منفاه ونصبوه أميراً على الجبال وطبرستان
وجرجان . وانتهت الحرب بانتصار بهاء الدولة سنة ٣٨٠ / ٩٩٠ .
وتوفي فخر الدولة سنة ٣٨٧ ٩٩٧ وخلف طفلاً (مجد الدولة) عمره
تسع سنين . فتولت الوصاية عليه امه المعروفة بالسيدة وهي شخصية فعالة
وعاقلة . ولما كبر ابنها وأخذ السلطة بيده ، لم ترض فذهبت الى الأمير
الكردي بدر بن حسنويه وبمعاونة جيوشه احتلت الزري وتسلمت الامور .
وفي زمانها ظهرت في الافق أول سلالة تركية وهي العائلة الغزنوية .
فدعى محمود الغزنوي السيدة الى الخضوع مهدداً اياها بفتح بلادها فاجابته
بان نتيجة الحرب مجهولة ، فان انتصر السلطان عليها لم يكسبه ذلك فخراً
يذكر وان انتصرت هي كان ذلك وصمة ابدية في جبينه . فكف عنها (١) .
وكانت نهاية هذا الفرع البويهبي عند وفاة السيدة سنة ٤١٠ / ١٠١٩
إذ استنجد ابنها مجد الدولة بالسلطان محمود الغزنوي وفي سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩
جاء محمود وضم ممتلكات مجد الدولة نهائياً .
وفي بغداد حكم بهاء الدولة حكماً طويلاً مضطرباً (٣٧٩ - ٤٠٤ / ٩٨٩ -
١٠١٣) بعد ان بسط سلطانه على فارس وكرمان .
وشغلت السنين الأخيرة للأسرة البويهبية بالنزاع بين الاحفاد
وكانت البلاد نهب الفوضى والفتن ، بينما كان الاتراك يعدون انفسهم

اغزو ايران ، اذ تقدم طغرل بك على رأس السلاجقة ودخل بغداد سنة ٤٤٧/١٠٥٥ . وبعث اعلان سلطنته اعاد تثبيت المذهب السني وسجن آخر بويهى وهو الملك الرحيم في قلعة (طبرق) قرب الرى حيث قضى اواخر ايامه . ثم افتتح السلاجقة فارس ووضعوا حداً للحكم البويهى هناك .

وهكذا اختفت فروع الرى وبغداد وشيراز على التعاقب (١) .

ب — سقط البويهيون ضحية غزو اجنبى ، ولكن بالاضافة الى المنازعات الداخلية التي تعمّر سنينهم الأخيرة ، يلزم ذكر سبب داخلى هام كان مستمراً في إضعافهم .

فجيشهم كان يعوزه النظام ، ويحركه الطمع في المال ، فكان عليهم اتباع اية وسيلة ولا سيما اقطاع الارض لارضائه .

ومن الجهة الاخرى ضعف البويهيون والجيش ذاته بالخصومة المستمرة بين عنصريه الرئيسين : الشاة الديلم والخيالة الترك (٢) . فالديلم كانوا يحاربون بهيئة صفوف تكون حائطاً من الدروع الملوثة بالوان زاهية . ولكنهم كانوا محتاجين الى الخيالة وذلك لتقوية هجومهم وهؤلاء كانوا من الترك . وفي الدفاع كان الترك أيضاً مسلحين بصورة اقوى من الديلم (٣) .

(١) انظر E.I. art Buwaihids : Minorsky p. 12-16

(٢) وهناك عناصر اخرى ، فيذكر مسكويه ج ٢ ص ٣٠٠ الخيل والعرب والاكراد والزرط في جيش عضد الدولة . وهناك اشارات الى القفص من جبال كرمان ، والبلوج أيضاً . مسكويه ج ٢ ص ٢٩٨ ، ص ٣٦٨ .

(٣) Minorsky p. 20

ومع وجود المنافسة الطبيعية الناتجة عن التكاليف على الامتيازات
والنفوذ عند الفريقين ، فان سوء سياسة الامراء البويهيين تجاه الجيش
بتقريب أحد الفريقين على حساب الآخر او باثارة بعضهم ضد بعض عمداً
قام بدور هام في تقسيم الجيش على نفسه وعصيانه لامرائه حتى أصبح الخطر
الرئيسي على الامة ومصدر البلاء على الرعية .

وقد بدأ تخليط الامراء البويهيين منذ دخولهم العراق . فبعد ان
كان الشرف والنفوذ للديلم ، أخذ معز الدولة (٣٣٤ | ٩٤٦) يقرب
علمائه الاثراك ويزيد في اقطاعاتهم ويسرف في تمويلهم حتى افرغ
خزائنه « وأدى ذلك على مر السنين الى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من
أموالهم وداخلتهم المنافسة للاثراك من أجل حسن احوالهم . وقادت
الضرورة الى ارتباط الأثراك وزيادة تقربهم والاستظهار بهم على الديلم » .
وكانت النتيجة مضرّة ومربكة إذ « فسد فريقان ، اما الاثراك فبالطمع
والضراوة ، وأما الديلم فبالضر والمسكنة وشرأبوا الى ائمتن ، وصارت
هذه المعاملة لقاحاً وسبباً لوقوع ما وقع فيها » (١)

ولم يمض زمن طويل حتى ظهر سيخط الديلم على معز الدولة .
ففي سنة ٣٤١ ثار (روزبهان الديلمي) في الاهواز ، فلما سار معز الدولة
لتأديبه ، تبين ان عطف الديلمة كان بجانبه ، فشغبوا على معز الدولة
« وواظروا استيلاء كان في نفوسهم عليه .. وكاشفوه وواجهوه بكل ما كره »

وأخذوا يستأمنون الى (روزبهان) . فلما اخمد معز الدولة الثورة بمعونة
ظلمانه الاتراك ازداد الوضع سوء لأن الأمير اسقط الديلم الروزبهانية
« واعرض عن سائر الديلم واقبل على الاتراك واصطنعهم » (١) .

ولم يحاول الأمير ترضية الديلم وازالة حقدهم ، بل تمادى في
تقريب الاتراك . ففي سنة ٣٤٧ « رفع منزلة الاتراك كل طبقة الى ما هو
اعلى منها ففقد جماعة واستحجب جماعة ونقب جماعة » وزاد في اعطيتهم
واقطاعاتهم فأساؤا التصرف وتسكالبوا على جمع المال حتى أنهم اخذوا
يشغلون بالتجارة وظلموا الرعية . وفي الوقت نفسه استمر اهمال
الديلم وابعادهم (٢) .

فتأ كذ العدا بين الترك والديلم حتى أصبحت ازالته غير ممكنة .
ولذا اخطت محاولة بختيار في هذا الاتجاد سنة ٣٥٩ هـ (٣) .

تم قام بختيار بمحاولة هوجاء دفعه اليها افلاس الخزينة وطمعه
في اقطاعات الترك . ففي سنة ٣٦٣ « ادخل يده في اقطاع سبكتكين قائد
الاتراك » وشجعه الديلم على ذلك . فثار الاتراك واستولوا على بغداد
واخرجوا بختيار منها ، حتى اضطر الى الاستنجاد بعضد الدولة
كما ذكرنا (٤) .

(١) شرحه ج ٢ ص ١٦٢-٣ ، ص ١٦٦ . (٢) شرحه ج ٣ ص ١٧٤

(٣) شرحه ج ٢ ص ٢٨٢-٣ . (٤) شرحه ج ٢ ص ١٢٣-٤ ، ٣٢٣-٣٤١

المنتظم ج ٦ ص ٦٨ وفي سنة ٣٨٥ أمر مصطام الدولة بذبح الاتراك في فارس

وعاد بهاء الدولة الى تقريب الاتراك سنة ٣٧٩. لانه وجدهم
 اكثر ولاء من الديلم. (١) فهذا ابن العميد ينصح ابنه « ويشرح له صورة
 الديلم في الحسد والجشع وانه ما ملكهم احد قط الا بترك الزينة وبذل
 ما لا ييطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ولا يتكبر عليهم ولا يكون الا في
 مرتبة اوسطهم حالا . وان من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق
 طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعي على ازالته وترقب
 اوقات الفرة . فيفتكون به في ذلك الوقت » (٢) .

ولكن لما كان المذهب الشيعي اساس سلطان البويهيين فانهم
 لم يمكنهم التخلي عن الديلم مدة طويلة ولا سيما وان الاتراك كانوا سنة
 ولهذا كانوا دائماً امام مشاكل (٣) . وهذا الخلاف المذهبي بين قسبي
 الجيش كثيراً ما أدى الى زيادة الفتن بين اهالي بغداد، إذ كان الترك
 يساعدون السنة، بينما كان الديلم في صف الشيعة (٤) .

وقد أدى ضعف البويهيين بعد بهاء الدولة وجشع الاتراك والديلم
 على السواء الى استبداد الجند في الاستئثار بوارد الاراضي والى الشعب
 المستمر لزيادة التخصصات واسوأ من ذلك تدخلهم المستمر في السياسة العامة
 إذ تراهم في ثورات مستمرة على امرائهم (كما في سنة ٤١٨ هـ ، ٤١٩ هـ ،
 ٤٢٢ هـ ، ٤٢٣ هـ ، ٤٢٤ هـ ، ٤٢٧ هـ ، ٤٤٠ هـ ، ٤٤٦ هـ) يطلبون عزل

(١) ابو شجاع ص ١٥٨ . (٢) مسكويه ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) Minor sky . 21 (٤) انظر المنتظم ج ٦ ص ٦٨ .

هذا الأمير أو تولية ذلك ولا يهدون إلا باعطيات إضافية وبذلك افرغوا
الخزينة ، واضعفوا الامراء ، وفسحوا المجال للعيارين للاخلال بالأمن
ولارهاق الرعية ، حتى اضطرب الأمن وعمت الفوضى وساد الفقر والدمار. (١)

الأثر الاقتصادي والاجتماعي للفتح البويهى

(ملاحظة : البحث موجز ، ولا يتناول إلا بعض النواحي ، لاني فصلت
هذا الموضوع في كتاب آخر) .

صار الفتح البويهى حداً فاصلاً بين قرتين في تاريخ العراق
الاقتصادي فقد أثر في اقتصاديات البلاد الزراعية ، وأضر بالتجارة
وينظام الصيرفة . وأدى الى انحطاط مستوى المعيشة .

قاسى الفلاحون في العصر البويهى من الضرائب العالية ومن قلة
الرقابة على الجباة ومن تدهور نظام الري . إذ استحدثت معز الدولة
سياسة زراعية هدامة ، فقسم الاراضي (كما اسلفت) الى صنفين :
صنف اعطي بالاقطاع الى الجند يتصرفون فيه كما يشاءون فاثقلوا الزراع
بكثرة طلباتهم حتى صادروهم إذا عجز الحاصل (٢) . كما انهم اهملوا
القنوات ، « وترك الاجناد الادمام بمشارب اقرى وتسوية طرقها
فهلك وبطل الكثير منها » (٣) ونزل البلاء بلزراع وضعفت

(١) انظر المنتظم ج ٧ ص ١٦٨ - ٩ ، ج ٧ ص ١٧٢ ، ج ٨ ص ٢١ ،

٢٩ ، ٣٥ ، ٦ - ٥٦ ، ٧ - ٥٩ ، ٦٤ - ٥٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ١٣٦ ،

١٥٩ ، ١٦٠ (٢) ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٠ (٣) شرحه

أحوالهم المعاشية « فمن بين هازب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين
مستريح إلى تسليم ضيعته إلى القمطع » (١) .

وأعطى الصنف الثاني من الأراضي بالضمان ، ففتن الضامنون
في استخراج المال من الزراع بكل وسيلة - فزادوا في الضرائب واستحدثوا
جبايات جديدة ، واكثروا من مصادرة الزراع ، ولم يغنوا بالقنوت أو
باصلاح الزراعة وتحسينها ، ومنعوا الموظفين من التدخل وجعلوا الرعية
تحت رحمة جشعهم وجورهم (٢) .

ولم تسلم الأراضي التي كانت ملكا خاصا ، بل أدى الظلم إلى
انتشار نظام الاجراء احتماء من العسف . وسرعان ما أملاك الاتراك ما للحمية
اليهم « فملكوا... البلاد واستعبدوا الناس واستمر ذلك إلى اليوم (نهاية
القرن الرابع) » (٣) .

ونتج عن اهمال القنوت وسوء توزيع المياه حدوث فيضانات اضررت
بالسواد (٤) كما أدى سوء الوضع الزراعي (بالاضافة إلى الفوضى السياسية
والفتن وصعوبة المواصلات وتعديات الاعراب) إلى تكرار الغلاء والمجاعات
بشكل لا سابق له .

وشمل الشلل الاقتصادي المدن ، فركد الانتاج وانحط مستوى

(١) مسكوكه ج ٢ ص ٩٧ . (٢) شرحه ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩ . (٣) شرحه

ج ٢ ص ١٧٢ ، ص ١٧٥ . (٤) انظر ابن الاثير ج ٩ ص ٣ .

البعيشة فيها . فبغداد العظيمة المشهورة بترفها وعمارتها وجمالها ، تدهورت
حتى قال فيها المقدسي (الذي كتب حوالي سنة ٣٧٥ هـ) (فاما المدينة فخراب ...
وهي كل يوم الى وراء مع كثرة الفساد والفسق وجور السلطان)^(١) .
وكان لسوء الوضع المعاشي في بغداد اسباب اهمها تعديت الجند
ومصادرة الوزراء الرعية ، والمتمن المذهبية والفوضى العامة التي شلت
الحركة الاقتصادية وهجمات العيارين على الدور والحوانيت .
فما ان دخل البويهيون بغداد حتى شعرت بوطأة سادتها الجدد .
اذ انزل معز الدولة اترাকে وديلمه دور الناس « ولم يكن يعرف ببغداد ،
مثل هذا التنزل فصار من هذا اليوم رسماً »^(٢) وصار ذلك عبثاً ثقيلاً على
السكان المدنيين .

و كثيراً ما كان الجند يهجمون على الدور وينهبون الاموال
ويعتدون على السكان . فيقول مسكويه عن الاترك في ايام بختيار « فاما
الترك فتمسحون مقترضون مالا تمكن منه ، متجاوزون حدود العامة
في سفك الدماء والطمع في الاموال والفروج » ويذكر أنهم فتحوا المسجون

(١) احسن التقاسيم ص ٢٠ . وابن هذا مما ورد في قصة ابي القاسم
(التي وقعت حوادثها سنة ٣٠٦ كما بين الكاتب ص ٨٧ ، وليس في اواخر
العصر البويهي كما يظن « ليفي » ص ١٧٨ « بغداد .. جنة الخلد .. بلدة هي الامل
والمنى والغاية القصوى معشوقة السكنى .. يومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء
وشربها مريء .. واسعة الرقعة كان محاسن الدنيا فيها مفروشة وصورة الجنة بها
منقوشة واسطة البلاد وسرتها ووجهتها وغرتها » ص ٢١ . (٢) المنتظم ج ٦
ص ٢٤٩ .

(سنة ٣٦١ هـ) « واطلقوا اهل الدعارة منها »^(١) وفي سنة ٤٠٩ هـ
« انزل (ابن سهلان نائب صمصام الدولة ببغداد) الديلم اطراف
الكرخ وباب البصرة ففعلوا من الفساد ما لم يشاهد مثله »^(٢) وفي سنة
٤١٧ هـ « كثر تسلط الاتراك ببغداد واكثروا مصادرات الناس واخذوا
الاموال حتى انهم قسطوا على الكرخ خاصة مائة الف دينار » ثم وقعت
الحرب بين الجند والعامّة فالتصر الجند ونهبوا المحلات^(٣).

وكان وزراء بختيار يلجؤون الى مصادرات الناس لجمع المال اللازم للنفقات
بعد ان فرغت الخزينة . ففي سنة ٣٦١ هـ شرع الوزير ابو الفضل بمصادرة
« الرعية والتجار والتأويل عليهم بالحال » فبدأ بأهل الذمة وتجاوزهم
الى المسلمين حتى شمل بمصادراته « اموال الشهود ووجوه البلد واهل
الستر » . واستعمل الجواسيس ليتجسسوا على اموال الناس^(٤) . ثم كان
خلفه في الوزارة ، ابن بقية ، أشد منه ظلما وأكثر تطرفا في المصادرات حتى
ارتبك الوضع « وسقطت الهيبة وانبدست العامة واغار بعضها على بعض .
وفشا القتل . . فانقطعت موارد الاموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب
دار المملكة » ونتج عن ذلك وضع وصفه مسكويه بقوله « الرعية
ها لكون والدور خراب والاقوات معدومة والجند متهارجون »^(٥) .
وكان للسياسة المذهبية التي اتبعها البويهيون أثرها في التدمير .

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ ٢ ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٦ ٣ شرح ج ٦

ص ١٢٢ (٤) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٨ (٥) شرح ج ٢ ص ٣١٤ .

رسنين أثرها بعد قليل ، ولنكتف بايراد مثل واحد . ففي سنة ٥٣٦١ هـ
أرسل الوزير حاجبا له لتمهيد فتنه في الكرخ و كان يتعصب للسنية ،
فالقى النار في عدة أما كن من الكرخ « وهي مجمع الشيعة ومعظم التجار »
فاحترقت « وكان عدة من احترق ١٧ر٠٠٠ انسان و ٣٠٠٠٠ كان
وكثير من الدور و ٣٣ مسجداً ومن الاموال ما لا يحصى » (١) .

وكانت الحصومات المذهبية (والبويهيون مسؤولون عنها بالدرجة
الاولى) عاملا فعالا في نشر الفوضى والدمار . إذ انها كبت اهالي
بغداد خسائر جمة في النفوس والاموال ، واحترق في اثنائها عدد من
محلات بغداد . فمثلا احترق الكرخ سنة ٣٦٣ هـ (٢) . وفي سنة ٣٨١
« كثرت الفتن بين العامة ببغداد . وتكرر الحريق في المحال واستمر
الفساد » (٣) وفي سنة ٤٠٧ احترق نهر طابق ودار القطن و كثير من باب
البصرة (٤) . وفي سنة ٤٢٢ تحرب في الفتنة سوق العروس وسوق الصفارين
وسوق الدقاقين وهي في الجانب الغربي (٥) . ثم تجددت الفتنة فاحرق
سوق الخراطين ومدبغة الجلود وسوق القلائين (٦) .

أما أثر العيارين فكان افظع من غيره . ومع اننا نشعر بان بعض
من اشترك في حركاتهم كانوا مدفوعين بحب الغنيمة ، الا انهم كجماعة
يمثلون تكتل طائفة من الطبقة العامة بنتيجة التباين الاقتصادي الطبقي

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٧ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٢٧ (٣) ابن الاثير ج ٩

ص ٣١ (٤) شرحه ج ٩ ص ١٠٢ انظر ايضا ج ٨ ص ١٨٤ ، ج ٩ ص ٢٥

ص ٢٦ ، ص ٣٢ ، ص ٥٨ (٥) المتنظم ج ٨ ص ٥٥ (٦) شرحه ج ٨ ص ٥٥ .

وسوء الوضع المعاشي للعوام والفوضى السياسية^(١). وما حرّكتهم إلا ثورة
ضدّ الاسياد السياسيين وضدّ اسياد المال. وكانت هجماتهم موجهة
بالدرجة الاولى الى بيوت المثريين والاسواق واصحاب الشرط
والشخصيات الكبيرة^(٢).

وكانت للغيارين مبادئ اخلاقية وطريقة يسيرون عليها. وما
حركة الفتوة فيما بعد الا سائلة حرّكتهم. يقول ابن الجوزي انهم
« بسموت طريقتهم الفتوة وربما حلف احدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم
يشرب »^(٣). ومن مبادئهم الاخلاقية ان « الفتي لا يزني ولا يكذب
ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة »^(٤) فالعفة وعدم المجون من الصفات
الاساسية عندهم^(٥) وهم يؤكّدون على الأمانة^(٦).

ومن عناصر فتوتهم الرفق بالفقراء والضعفاء. فالبرجمي العبار
« كان ... فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لامرأة ولا الى من يستسلم
اليه »^(٧) وكان يحمي النساء ولا يسمح بالتعرض لهن^(٨) ويذكر عن
ابن حمدون انه « فيه فتوة وظرف .. لا يفتش امرأة ولا يسلمها »^(٩)

(١) انظر التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٧-٨ (٢) مثلا بيّن ابن
الجوزي ج ٧ ص ١٧٤ انهم طلبوا اصحاب الشرط. ويذكر في حوادث سنة
٣٩٢ هـ انهم « واعدلوا العملات واخذوا الاموال .. واشرف الناس معهم على
خطة صعبة » ج ٧ ص ٢٢٠. انظر ابن الاثير ج ٩ ص ١٥١ (٣) تليس
ابليس ص ٣٩٢ ١٤ شرحه (٥) القشيري - الرسالة ص ١١٣ (٦) شرحه
ص ١١٤ (٧) ابن الاثير ج ٩ ص ٨ المتنظم ج ٨ ص ٧٧ (٩) التنوخي -
الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٨٥.

ومن صفاتهم الكرم^(١) والصبر الشديد على احتمال الأذى^(٢).
ويظهر ان المؤرخين لم يفهموا روح حركتهم فسموهم لصوصا
منحطين . وأساس الحركة كما يينا اقتصادي ناتج عن التباين في الثروة .
يروى عن ابن حمدون الذي كان يقطع الطرق « انه إذا قطع لم يعرض
لاصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الالف . وإذا أخذ ممن حاله
ضعيفة قاسمه عليه فترك شطر ماله في يديه^(٣) » أليس في هذا ما يدل على
ان هجومهم كان ضد الاغنياء ؟ ولم يعدموا حجة فقهية لتهدب اموال
الاغنياء فهذا أحد قطاع الطرق يبرر عمله قائلا « ان هؤلاء التجار لم تسقط
عنهم زكاة الناس لانهم منعوها وتجردوا فترك عليهم فصاروا اموالهم
بذلك مستهلكة والصوص فقراء اليها ، فان اخذوا اموالهم
— وان كره التجار ذلك — كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة
بالزكاة وهم مستحقون للزكاة شاء ارباب الاموال ام كرهوا^(٤) .

وكانت للعيارين تنظيمات خاصة ودرجات في الرئاسة ، ومن
القاب رؤسائهم في القرن الرابع المتقدم^(٥) والقائد^(٦) والامير^(٧) ولهم
مراسيم معينة وحفلات خاصة لقبول الاعضاء الجدد^(٨) .

ولا لزوم لتفصيل فعاليتهم في العصر البويهي ويكفي التنبيه الى

(١) القشيري ص ١١٣ (٢) تليس ابليس ص ٣٩٢ (٣) الفرج بعد الشدة

ج ٢ ص ١٠٨ (٤) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٦ (٥) المنتظم ج ٨ ص ٤٩

(٦) شرحه ج ٨ ص ٧٨ (٧) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ (٨) انظر القشيري ص ١١٣

والفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٩ .

بعض النقاط الهامة .

هناك ما يدل على وجود العباسيين والعلويين بين العيارين في هذه الفترة ، وهذا يلقي ضوء على الوضع الاجتماعي ويدل على تدهور مركز هؤلاء الاشراف بعد سيادة البويهيين ^(١) .

ولم يصل تكتل العيارين غايته بعد فاننا نجدهم يتأثرون بالروح المذهبية فينقسمون على انفسهم ، اذ ترى بينهم العيارين الشيعة والعيارين السنة . وقد زادت فعاليتهم منذ الربع الأخير للقرن الرابع الهجري واستمرت قوية حتى نهاية العصر البويهي . ومن ابرز متقدميهم البرجمي الذي استطاع ان يكسف السلطان وان يستبد ببغداد مدة خمس سنوات (٤٢١—٤٢٥ هـ) . وبلغ من عجز الحكومة تجاهه ان «العوام ثارت بجامع الرصافة ورجعوا الخطيب وقالوا : ان خطبت للبرجمي والا فلا نخطب لخليفة ولا لملك» ^(٢) . وتعهد سنة ٤٢٥ بحفظ الأمن فكان يجبي ضرائب الاسواق وارتفاع المواخير والقيان لنفسه ^(٣) .

وقد ركز العيارون هجماتهم على التجار والاسواق قبل كل شيء . فهم يهبون بضائعها ويفرضون الضرائب عليها ^(٤) . واهتموا بمهاجمة دور المثريين والبارزين لئلا يفرحوا او يفرض الضرائب عليها ^(٥) وقضوا على الامن في بغداد واعجزوا الحكومة عن اخضاعهم ^(٦) فكان سكان بعض

«١» انظر ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٢٠ «٢» شرحه ج ٨ ص ٧٥—٧٦

«٣» شرحه ج ٨ ص ٧٨ «٤» شرحه ج ٧ ص ١٧٤ ، ج ٨ ص ٥٩—٦٠ ص ٧٨

«٥» ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٥ ، ابن الجوزي ج ٨ ص ٥٩—٦٠ «٦»

ابن الجوزي ج ٩ ص ٤٩ .

المخلات يهجرون محلاتهم ليتخلصوا منهم كما فعل قسم كبير من اهل الجانب الغربي سنة ٤٤١ هـ (١).

ولا حاجة بنا للإشارة الى حوادث القتل والحرق التي نتجت عن قتلهم فهي كثيرة . كما ان الفوضى التي نشروها عرقلت الاعمال الحضريّة المفيدة وعاقت حركة التجارة والصناعة . ومما زاد الوضع الاجتماعي تعاسة فوضى العوام (وهم جماعة بلا ثقافة ولا رأي منظم) وقوة النعرات المذهبية وتقع مسؤولية ذلك على البوهيين بالدرجة الاولى .

والامراء هم الذين جرءوا العوام . فقد كانوا يستنجدون بهم في الازمات . ففي سنة ٣٣٤ هـ استعان ابن شيرزاد بالعامّة والعيارين لمحاربة معز الدولة (٢) . وفي سنة ٣٦١ هـ استنفر سبكتكين العامّة - بامر بختيار - لمحاربة البيزنطيين ، « فثار من العامّة عدد كثير باصناف السلاح والسيوف والرماح والقي حتى استعظم ما شاهدته منهم (٣) » .

وزاد في تجرؤ العوام سياسة البوهيين المذهبية ، و كان ذلك - كما يظهر - لغرض سياسي وهو تكوين حزب من الشعب يناصرهم . وخير دليل على ذلك هو ان معز الدولة (واضع هذه السياسة) لم يبايع لخليفة علوي خوفا من ان يفقد هيمنته . ولما لاحظ البوهيون سوء عاقبة تلك السياسة على سلطانهم تخلوا عنها في اواخر القرن الرابع

(١) شرحه ج ٩ ص ١٤٢ (٢) ابن الاثير ج ٨ ص ١٤٩ «٣» ابن الاثير

ج ٨ ص ٢٠٤ ، مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ .

وغضبوا الشيعة (١) .

قرب معز الدولة الشيعة على حساب السنة ولعن الخلفاء الثلاثة
الاول علنا (٢) وادخل السبايات وعمل يوم غدیر خم عيداً رسمياً (٣)
وبلغ من طرفه انه أمر باطلاق جماعة يدينون بالحلول والتناسخ لانهم
لو هو هو انهم شيعة ! ولم يجراً وزيره على التشدد معهم لئلا « ينسب الى ترك
التشيع فسكت عنهم » (٤) .

إلا ان اصحاب السلطة في العصر البويهي لم يكونوا متعقبن على
هذه السياسة ، بل كانوا ينقسمون الى حزبين : حزب الاتراك ومن
حولهم وهم يؤيدون السنة ، وحزب الديلم وكانوا يؤيدون الشيعة . فجزر
ذلك أمر الولايات على البلاد . ففي سنة ٣٦٢ احرق حاجب الوزير ابي
الفضل محلة الكرخ حريقاً مرعباً لانه كان شديد التعصب للسنة (٥) . ولما
ثار سبكتكين على بختيار سنة ٣٦٣ ، استغل السنة « فقود من رؤسائهم
القواد وعرف العرفاء وتقب النقباء وحملهم على الدواب . . وصار له منهم
جند » ايضا ثار الشيعة بجانب الديلم (٦) فهل نستغرب بعد ملاحظة هذه

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٧١ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٢٠ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤
(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ١٧٩ ٢ شرحه ج ٨ ص ١٨٤ ، يقول ابن الاثير :
في عاشر المحرم أمر معز الدولة الناس ان يغلقوا دكاكينهم ويغلقوا الاسواق والبيع
والشراء وان يظهروا النياحة ولبسوا قبايا عارواها بالمسوح وان يخرج النساء
منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلاد بالنوائح والاعمال
وجوههن على الحسين . « (٤) ابن الاثير ج ٨ ص ١٦٤ « (٥) شرحه ج ٨ ص ٢٠٧
(٦) مسكويه ج ٢ ص ٣٢٤ وما بعدها ، ابن الجوزي ج ٦ ص ٦٨ .

السياسة الاستغلالية ان تصبح الفتن المذهبية امرأ اعتياديا وان يهلك
اهل البلاد بعضهم البعض!

وكانت اول فتنة مذهبية كبيرة في ٣٤٨ هـ (١) . ثم توالى الفتن
حتى نهاية العصر البويهي وكلفت العامة ثمنا مرهقا في النفوس والاموال (٢)
ولم يعد بإمكان البويهيين اخماد نار العامة التي اشعلوها . فبين
المؤرخون، مثلا ان العوام بدل ان يسيروا للغزو سنة ٣٦١ هـ اقتربوا في
العاصمة نفسها انواع الفضائع من قتل ونهب وتدمير وانتهاك حرمت
«وعجز السلطان عن اصلاحهم واطفاء ما اثار من ثأيرتهم حتى صار ذلك
سببا لحراب بغداد» (٣) ويذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٨١ هـ «وفيها
كثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطة وتكرر الحريق في
المحال واستمر الفساد (٤)» وساء الوضع لدرجة ان صمصام الدولة اراد
سنة ٤١٩ هـ ان يرسل نائبا عنه الى العراق فقيل له «العراق محتاج الى من
فيه حسف» لكثرة الفتن فيه .

وكان للفوضى المركزية اثر في زيادة فعالية الاعراب وتنظيمهم .
فعانت شبهان في الجزيرة حتى اخضعها عضد الدولة (٥) ومنذ الربع

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٧٦ «٢» انظر ابن الاثير ج ٨ ص ١٨٤ . ١٩٤ .
٣١٠ ، ٢٠٧ . ج ٩ ص ٣١ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ١٠٦ . ابن الجوزي ج ٦
ص ٦٨ ج ٧ ص ١٧٤ ، ص ٢٣٧ - ٨ ، مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ (٣) مسكويه
ج ٢ ص ٣٠٦ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٤ (٤) ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٦ .
(٥) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٨ - ٩ .

الآخِر للقرن الرابع استولت عقيل على منطقة الموصل وغرب الفرات وبنو
أسد على منطقة الحلة ، وتنفذت المنتفك وخفاجة في جنوب العراق
وكانت هذه القبائل في خصومات مستمرة نشرت الفوضى والحرب ؛
كما أنها كانت تغزو المزارع والقرى والمدن وقد وصلوا في نهبهم سنة ٨٤٢٥
حتى اطراف بغداد ولاقى الحجاج والتجار والفلاحون منهم الامرين^(١) .
ويتضح من دراسة الوضع الاقتصادي في القرن الرابع^(٢) . ان
الفتح البويهى نزل بسكان البلاد الى مستوى الطبقة المتوسطة او الواطئة .
كما ان وارد الخليفة والوزير والموظفين المدنيين انخفض بينما زادت رواتب
الجيش عما كانت عليه في العصر السابق .

وكذلك قلت خدمات الدولة الاجتماعية في هذا العصر عن السابق
اذ لا يوجد منها شيء حتى سنة ٣٦٧ هـ . فلما جاء عضد الدولة عمر المساجد
وفرض الارزاق للقوام والوُذنين والائمة فيها واقام الجرايات لمن يأوى
اليها من الغرباء والضعفاء^(٣) وارسل الصلوات لاهل المدينة واخرج الصدقات
لاهل الحاجة من المسلمين والذميين . وكان يرسل كثيراً من المال
... في افتتاح السنة المالية - الى العمال في النواحي ، ليقوم القضاة والوجوه
هناك بتوزيعها على ذوي الحاجة والمسكنة^(٤) واذن لوزيره المسيحي نصر
ابن هارون « في عمارة البيع والاديرة واطلاق الاموال لفقرائهم »^(٥)

(١) رانظر المنتظم ج ٦ ص ٦٠ ج ٨ ص ٨٤ . ابن الاثير ج ٩ ص ٤٤

ص ٤٨ ، ص ٨١ ، ص ٨٤ . (٢) *Dun Studies* (٣) مسكويه ج ٢

ص ٤٠٤ (٤) ابو شجاع ص ٦٦ (٥) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٧ . ٨

ولكن هذه الخدمات على أهميتها ، زالت بوفاته . واهم أعماله انشاء
البيمارستان العضدي في الجانب الغربي بجوار بقايا قصر الخلد ، وخصص
له حوالي مائة الف دينار سنوياً وتقل له انواع الآلات والادوية من كل
ناحية وعين له اربعا وعشرين طبيباً مشهورين . واصبح المستشفى كلية
يؤمنها الطلاب ويدرس فيها اشهر الاطباء^(١) .

واخيراً تذكر ان ابا الحسن الرخجي (وزير مشرف الدولة)
في سنة ٤١٣ هـ ما زستانا في واسط اكثر فيه من الادوية والاشربة
ورتب له الخزان والاطباء ووقف عليه الوقوف الكثيرة .^(٢)

ومن هذا نستطيع ان نقول ان الخدمات الاجتماعية كانت
ضئيلة في العصر البويهبي .

ولا محل هنا لوصف الزيادات في الضرائب ثم الضرائب الاضافية
التي ادخلها البويهبيون وكفي ان نقول انها كانت كثيرة ومرهقة^(٣) .
وهكذا نرى تدهور الوضع المالي في العراق وانحطاط مستوى
المعيشة وانتشار الفوضى وتأخر الانتاج ، فلا غرابة في قول المقدسي
يصف الوضع « انه (اي العراق) بيت القن والغلاء ، وهو في كل يوم
الي وراء ، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء ، مع ثمار قليلة
وفواحش كثيرة وهؤن ثقيلة^(٤) » .

(١) شرحه ابو شجاع ص ٦٩ Le strange :Baghdad P. 165

(٢) ابن الاثير ٩ ص ١١٣ ، ١٣٠ انظر على سبيل المثال ابو شجاع ص ٧١ ،

ابن الاثير ص ٩ ص ٢٤ ، ٤٠ احسن التقاسيم ص ١١٣

المراجع

اولا - المصادر الاولية

الاثير، ابن - الكامل في التاريخ، اثنا عشر جزء. القاهرة.

. ٥١٣٠٣

وطبعة تورنبرغ، اربعة عشر مجلداً، ليدن ١٨٥١ - ١٨٢٦
اخبار بني العباس - مؤلف مجهول (خطي في مكتبة مسجد الامام
ابي حنيفة).

اخوان الصفا - الرسائل. باعثناء الزركلي، اربعة مجلدات.

. القاهرة ١٩٢٨.

الاريلي - خلاصة الذهب المسبوك. مطبعة الروم الارثوذكس

(القدس) ١٨٨٥.

الازدي - حكاية ابي القاسم البغدادى. باعثناء متر. هيدلبرج

. ١٩٠٢ م.

الاسفراييدي - التبصر في الدين، باعثناء عزت العطار الحسيني.

. القاهرة ١٩٤٠.

الاشعري - مقالات الاسلاميين و اختلاف المصلين. جزآن.

باعثناء ٥. ريتير، استانبول ١٩٢٩.

الاصفهاني ، ابو الفرج — الاغاني . القاهرة طبعة الساسي .
الاصفهاني ، حمزة — تاريخ سيني ملوك الارض والانبياء .
ايفانوف (الناشر) — مذكرات عن حركة المهدي الفاطمي .
نصوص اسماعيلية ، كاتبها مجهول . مجلة كلية الآداب
بالجامعة المصرية المجلد الرابع ، الجزء الثاني ، ديسمبر
١٩٣٦ ، ص ٨٩ — ١٣٥ .

البغدادي ، عبد القادر — الفرق بين الفرق . القاهرة ١٩١٠ .
البيروني — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، باعتهاء سخاوي .
ليبرز ج ١٨٧٨ .

البيروني — الجماهر في معرفة الجواهر ، باعتهاء ف . كرنكو .
حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ .

التنوخني — الفرج بعد الشدة : جزآن . القاهرة ١٩٠٤ .
التنوخني — نشوار المحاضرة ، المجلد الاول ، باعتهاء مرغليوث ،
القاهرة ١٩٢١ م .

الجوزي ، ابن — المنتظم في التاريخ ج ٥ — ج ١٠ حيدر آباد
الدكن ١٣٥٧ — ٥٩ هـ .

الجوزي ، ابن — تليس ابليس . القاهرة ١٩٢٨ .
حسول . ابن — تفضيل الاتراك على سائر الاجناد . باعتهاء عباس
العزاوي . استانبول ١٩٤٠ م .

- الحمادي ، محمد بن مالك — كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة
نشره عزت العطار . القاهرة ١٩٣٩ م .
- حوقل ، ابن — المسالك والممالك ، طبعة جديدة في جزئين ،
باعثاء كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .
- خرداذبه ، ابن — المسالك والممالك ، باعثاء دي خوية (المكتبة
الجغرافية العربية — المجلد السادس) ليدن ١٨٨٩ م .
- الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد . الجزء الأول باعثاء سالمون .
باريس ١٩٠٤ م .
- خلكان ، ابن — وفيات الاعيان ، جزآن القاهرة ١٣١٠ هـ .
- الدلمي — بيان مذهب الباطنية . استنبول ١٩٣٨
- السيوطي — تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٣٥١ هـ .
- شجاع ، ابو — ذيل تاريخ مسكويه . نشره آمدروز ، القاهرة
١٩٢١ م .
- الشهرستاني — الملل والنحل ، باعثاء غويرتن ، جزآن ، لينزج
١٩٢٣ م ، وطبعة اخرى على هامش ابن حزم ، خمسة
اجزاء ، القاهرة ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ .
- شتروتمان (الناشر) — اربعة كتب اسماعيلية غوتنغن ١٩٤٣ .
- الصافي ، ابو اسحاق — رسائل . الجزء الاول باعثاء شكيب
ارسلان . بعدآ ، لبنان ١٨٩٨ م .

الصاي ، هلال — تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، انشره

آمدروز ، بيروت ١٩٠٤ .

الطبري — تاريخ الرسل والملوك ، اثنا عشر جزء ، المطبعة

الحسينية ، القاهرة .

الطقطقي ، ابن — الفخري في الآداب السلطانية ، القاهرة ١٣١٧ هـ

وطبعة اخرى باعتهاء درنبورغ ، باريس ١٨٩٤ .

طيفور ، ابن — تاريخ بغداد ، الجزء السادس . باعتهاء كيلر .

ليبزج ١٩٠٨ .

العبري ، ابن — مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ م

عريب بن سعيد القرطبي — صلة الطبري ، باعتهاء دي خويه ،

ليدن ١٨٩٧ .

الغزالي — قضايح الباطنية ، باعتهاء غولد زيهر . ليدين ١٩١٦ م .

الفيقيه ، ابن — مختصر كتاب البلدان . باعتهاء دي خويه

(المكتبة الجغرافية العربية - المجلد الخامس) ليدين ١٨٨٥ م .

القرماني — اخبار الدولة — طبع حجر

قدامة بن جعفر الكاتب — الخراج وصنعة الكتابة ، باعتهاء

دي خويه (المكتبة الجغرافية العربية - المجلد السادس) .

ليدن ١٨٨٩ .

القشيري — الرسالة القشيرية . القاهرة . ١٩٤٠ .

- القرشي ، ابن الاخوة -- معالم القرية في احكام الحسبة ، باعتناء
ليقي ، مجموعة تذكارات حسب ١٩٣٨ .
الكشي -- معرفة اخبار الرجال ، طهران ١٣١٧ هـ
المسعودي -- التبيين والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨ .
المسعودي -- مروج الذهب . اربعة اجزاء . القاهرة ١٩٣٨ .
وطبعة باريس في تسعة مجلدات . باعتناء دي مينار .
باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ م .
مسكويه -- تجارب الامم ، باعتناء آمدروز ، سبعة مجلدات ،
القاهرة واكسفورد ، ١٩٢٠ - ١٩٢١ م .
القدسسي ، البشاري -- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، باعتناء
دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية - المجلد الثالث)
ليدن ١٨٧٦ - ٧ م .
المقرئزي -- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . اربعة
اجزاء . القاهرة ١٣٢٦ هـ .
الماوردي -- الاحكام السلطانية . القاهرة ١٩٠٩ م .
النديم ، ابن -- الفهرست . القاهرة ١٣٤٨ هـ .
ناصر خسرو -- سفر نامه ، ترجمة يحيى الحشاش ، القاهرة ١٩٤٥
النوبختي -- فرق الشيعة . النجف (عن طبعة ريتز) ١٩٣٦ م .
اليعقوبي -- التاريخ . ثلاثة اجزاء . النجف ١٩٣٩ م .
اليعقوبي -- كتاب البلدان . باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية

العربية المجلد السابع (ليدن ١٨٩٦ .
ياقوت الحموي - ارشاد الاريب . باعتناء مرغايوث . سبعة
مجلدات . مجموعة تذكار جب ، ١٩٠٧ - ١٩٢٥ .

نبدأ - المراجع الثانوية

أ - المراجع العربية :

بنديلي جوزي - من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام
القدس ١٩٢٨ .

الخضري - الدولة العباسية . القاهرة ١٩٣٨ م .

الدوري - العصر العباسي الاول ، بغداد ١٩٤٥ م .

الدوري - الجبهة والصيرفة في العراق في القرن الرابع الهجري

مجلة القضاء ، السنة الثانية ، العدد الخامس ١٩٤٣ ص ٥٨١

وما بعدها .

زيدان ، جرجي - المدن الاسلامي . خمسة اجزاء . القاهرة

١٩١١ - ١٩١٤ م .

عنان - الحاكم بامر الله . القاهرة ١٩٣٧ م .

متز - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . تعريب

عبدالمهادي ابوريدة . جزآن . القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١ م

الهمداني - رسائل اخوان الصفا . القاهرة ١٩٣٥ م .

ب - المراجع الاجنبية :

Abbot, N. = Arabric Papyrii on the reign of al-Mutawakkil. Z.M.D.G. B, 92. H.I. 1938 p. 89 off.

Ameer Ali = A short History of the Saracens, London 1934.

Barthold, W. = Turkestan down to the Mongol Invasion, G.M.S. 1929.

Barthold, W. = Mussulman Culture. Calcutta 1934.

Bowen, H. | The Life and Times of Ali b. Isa. Cambridge, 1928.

Browne, E.G. | A Literary History of Persia, vol I. Cambridge 1929.

Casanova | la Doctrine secrete des Fatimides d, Egypte.. Caire 1910.

Duri, A.A. | Studies on 'the Economic Life of Mesopotamia in the 10 th. cent. A.D. (Mss. ph. D. thesis).

De Goeje , M.J. | Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, Leide 1896.

Ivanov | the Rise of the Fatmimds. Calcutta 1942.

Lane - Poole, S. | Mohammadan Dynasties, London 1893.

Levy, R. | A Baghdad Chronicle. Cambridge 1929,

Lewis, B. | The Origins of Ismailism. Cambridge 1940.

Lewis, B. | Islamic Guilds, E.H.R. 1937,

Massignon, L. | La Passion d' al-Halladj, 2 vols. Paris 1922.

Minarsky, V. | La Domination des Dailamites, Paris 1932,

Hudud al-alam, transl and com. by v. Minorsky G.M.S. 1937.

Muir, w | The Caliphate its Rise, Decline and Fall. ed, by Weir. Edinburgh 1924.

Noldeke | sketches From Eastern History, transl. by I.S. Black. London 1892.

Nicholson | A Literay History of the Arabs. Cambridge 1930.

de Sacy, | Expose de la Religion des Druzes, 2 vols, Paris 1838.

Siddiqi | Caliphate and Kingship in Medieval Persia. Islamic culture oct. 1935 p: 5 60 osf, 1936 p. 97 off.

Tritton, A.S. | The Caliphs and their Non-Muslim subjects. London 1930.

The Encyclopedia of Islam,

articles:

Abdullah b. Tahir, Buwayhids, Fatimids, Karmatians,

Saffarids, Samanids, shadd, sinf, Zanj.

The Encyclopedia of social Sciences. art Guilds (Muslim).

فهرس المصطاحات و الفرق

٢٧٩ و ١٨	الاجاء
٧٦	الاباق
١١٨	الاحداث
١٣٤ و ٦	اخوان الصفا
٧٩	الازارفة
١٧ و ٦ و ٢١ و ٣ و ٢٤ و ٦ و ١٢١ و ١٢٤	الاستماعيلية
١٢٦ و ١٥٥ و ١٨٢ و ٣ و ١٨٤ و ١٨٥	
١٥١ و ١٣٦	الاساس
٧٣ و ٢١١ و ٢٢٣ و ٢٢٦ و ٢٦٣ و ٢٧٠ و ٥٠	الاقطاع
٢٧٥ و ٢٧٨ و ٩	
١٦٢ و ١٨٠ و ١ - ١٨٤	الالفة
١٥١ و ١٧	الامامية
٣٢ و ٣ و ٢٣٦ و ٢٤٧	امير الامراء
٤٤ و ٤٥ و ٢٦٧ و ٢٨١ و ٢٨٩	اهل الذمة
١٤٧ و ١٤٦	البابكية
١٧٤ و ٧ و ١٥٠ و ١٥١ و ٢ و ١٥٤	الباطن

٠ ١٦٧	البلغة (ضريبة)
٠ ٢٢٦ و ٢١٩	بيت المال
٠ ٢٢٩ و ٢٢٦ و ٢٢٩	بيت مال الخاصة
٠ ١٥٥ و ١٥٢ - ١٥١	التأويل
٠ ٢٢١	التكملة
٠ ٢٢٧ و ١٢٣ و ١١٩ و ١١٠	الجزية
٠ ٤ - ٢٢٣	الجهيد
٢١٨ و ٢١٠ و ٩ - ١٩٧ و ١٩٣ و ٦٦ و ٣٠ و ١٦	الحرم
٠ ٢٣٠ و ٢٢٥ و ٢٢٤	
٠ ٤ - ٢١٣	الحسبة
٠ ١٣٤	الحشاشين
٠ ٢٦٩ و ٢٦٢ و ١٨٨ و ١١٨ و ٥٤ و ٥٣ و ٥١	الخراج
٠ ٧ - ١٤٦ و ١٢٨ و ٢٤ و ٢٣ و ١١ و ١٠ و ٦	الخزمية
٠ ١٢٨ - ٩ و ١٢٩ و ١٣٢ و ١٥٩	الخطابية
٠ ٥٤	الخنس
٠ ١٥٩ و ١١٩ و ١١٤ و ١١٣ - ١١٢ و ٧٩ و ٣٨ و ٨	الخوارج
٠ ٢٢٢	ديوان البر
٠ ١٩١	ديوان البريد
٠ ١٩١	ديوان التوقيع

١٩١ و ٢١١ و ٢٢٨ .	ديوان الجند
١٩١ .	ديوان الخراج
١٨٩ و ٢٠١ .	ديوان الدار
١٩١ .	« الرسائل
٢٢٤ .	« المرافق
١٩١ و ٢١٥ .	« النظر في المظالم
١٩١ .	« النفقات
١٢٣ و ١٤٦ .	الراوندية
٢٤٠ .	الزردشتية
٦ و ١٢ .	الزندقة
١٧ و ٧١ - ٣ و ٢٤١ و ٢٤٨ .	الزيدية
١٠٢ .	السميريات
٩٦ و ٩٨ - ٩ و ١٠٢ .	الشذا
٢٥٢ - ٤ .	شارات الخلافة
٥ و ١٢ و ١٤٥ .	الشعوية
٨ و ٢٢ و ٥٦ و ٧٢ و ٧٩ و ١٣١ و ١٤٨ .	الشيعة
٢٤٩ و ٢٧٧ و ٢٨٧ .	
٢٨ و ١٥١ .	الصامت
٧٢ .	الصوافي

٢١٩	ضريبة الارث
١٩١ و ٢٠١ و ٢٠٢ - ٤ و ٢٢١ و ٢٢٦	الضمان
٢٦٤ و ٢٧٩	
٢٢٩ و ٢٦٢	الضياع السلطانية
١٣٤ - ٧ و ١٥٩	الظاهر
٢٦٢ و ٢٦٥	عبارة
١٦ - ٧ و ٣٦ و ٤٣ و ٤٦ و ٥٦ - ٧ و ١١١	العلويون
١١٤ و ١١٩ و ١٢٦ و ٢٤١ - ٢ و ٢٤٣	
٢٤٨ و ٢٨٥	
٥ و ٦٣ و ١٨٤ و ١٨٥ و ٢٨٠ و ٢٨٢ - ٦	العيارون
١٥ و ٢٤ و ٢٥ و ٦٩ و ٧١ و ١١٠ و ١١٦	العوام
١١٨ و ١٢٧ - ١٥٢ و ١٧٨ و ١٨٠ و ٢٦٧	
٢٨٠ - ١ و ٢٨٣ و ٢٨٥ - ٨	
١١٢ - ٣ و ١١٦ و ١١٨	الغزاة والمتطوعة
١٠ و ٢٢ - ٣ و ٢٤ و ١٢٧ - ١٢٩ و ١٣	الغلو
١٣٣ و ١٤٤ و ١٤٦	
١٨٤ و ٢٨٣	الفتوة
١٦٢	الفطر (ضريبة)
٦ و ١٧ و ٢٥ و ٢٦ - ٨ و ٢٩ و ٥٩ و ٧٨ و ١٢٤	القرامطة
١٣٠ و ١٣٢ و ١٣٤ و ١٤٩ و ١٥٥ - ١٨٢	

و ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٨ و ١٩٣ و ٢١١ و ٢١٧

و ٢١٨ و ٢٣١ و ٢٤٢ .

١٩٧ - ٩ و ٢٠١ و ٢٠٥ و ٢٠٦ .

١٥٩ و ١٤٦ .

١٦٧ و ١٣٠ .

١٤٤ - ٥ و ١٥٣ .

٢٢٢ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٦٤ .

١٤٥ - ٦ و ١٨١ .

١٢٨ - ١٤٤ .

٢٥١ و ١١٨ و ٢٠٤ - ٥ و ١١٩ و ٢٣٠ و ٢٥١

و ٢٧٩ و ٢٨١ .

٢٢٢ و ١٩١ و ٦٩ .

٣٥ - ٤٢٦ - ٣ و ٢٥٦ .

١١٨ و ٢٢١ .

٦ و ١٤٥ - ١٤٦ .

١٠ و ٢٢ و ٢٥ .

١٢٨ و ١٥١ و ١٥٣ .

١٨٢ - ٦ .

٤٨ - ٩ و ٥٩ و ١٩٠ - ١ و ١٩٢ و ١٩٤

١٩٩ - ٢٠٩ و ٢١١ و ٢١٢ و ٢١٥ - ٦

٢٣٠ ، ٢٥٠ ، ٢٦٦ - ٧ .

القهرمانية

الكيسانية

المباركية

الحجوسية

المرافق

المزدكية

المستقر

المستودع

المصادرة :

المظالم

الاعتزلة

المكوس

المانوية

الموالي

الناطق

القباب الاسلامية

الوزارة

جدول اللفظاء المطبعية

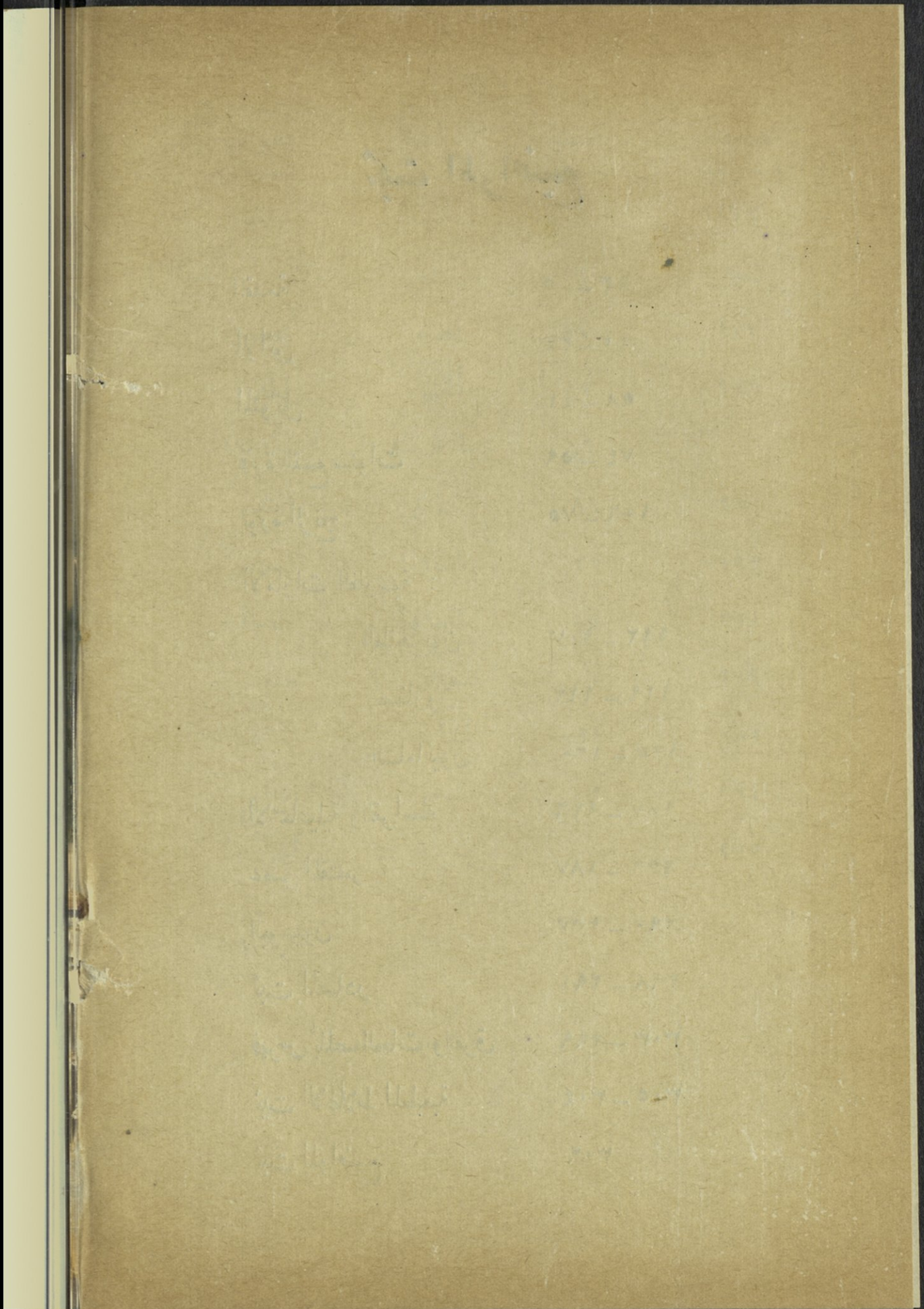
الصواب	الخطأ	السطر	الصحيفة
الزنج	الزنيح	١٦	١
سربه	سربة	٧	١١
البويهي	البديهي	١٩	١٣
السبخة	السخبة	١	٢١
بثت	ثبت	١٩	
٢٤٧	٢٤٧	١	٣٤
سفن	سفر	١٥	٣٩
-	عليا	١٣	٤٣
-	من	١٣	٤٤
ود	رد	٥	٤٥
الجزرية	الجررية	٦	٥٠
الحقيقية	الخليقية	٩	٥٧
الى	في	١٧	٦٣
الخليفين	الخلفين	١	٦٤
الغلامين	الغلايين	٣	٦٧
نهايه	نهاية	٨	

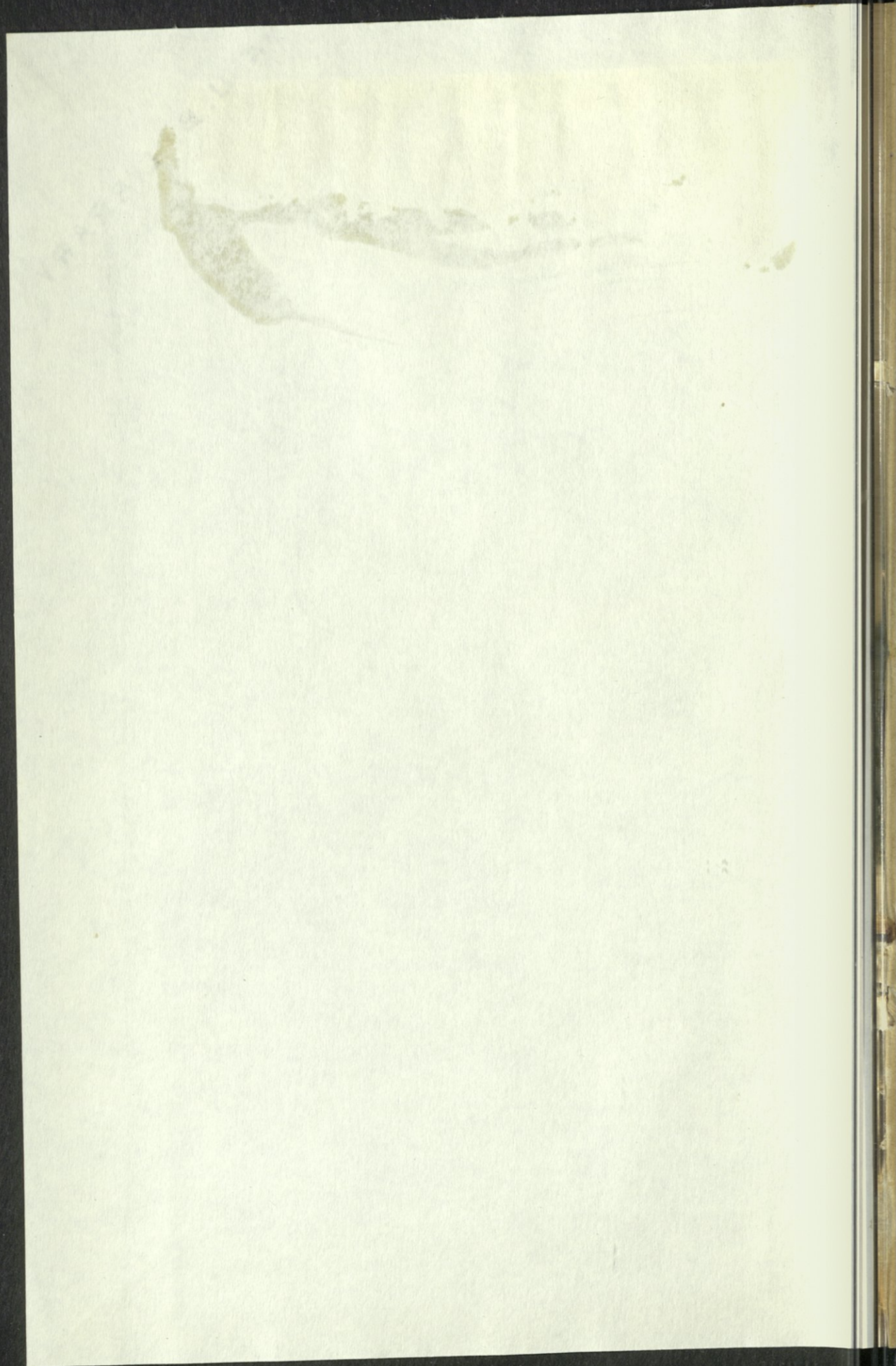
الصغاب	الخطأ	السطر	الصحيفة
الوالي	المولى	٤	٦٨
الابلة	الآلة	٧	٨٩
يخطو	يخط	٨	٩٣
م٨٨٦	م٨٦	١٠	١١٣
مسكوية	مسكوية	١٩	١٢٠
متبرم	متبلم	٢	١٢٨
التعصب	التعب	٢٤	١٣٩
ابن	ان	٣	١٣٢
لويس	الويس	٥	١٣٣
شأنهم في كثر	شأنهم كثير	١٥	
على	الى	٣	١٣٤
الفاطمية	الفاطمة	٧	
المرادون	المراون	٧	١٣٥
المستودعون	المستوعون	١٥	١٤٣
اللذة	الذ	٣	١٤٩
المراتب	المرات	١٦	
ابن رزام	ابن رام	٧	١٥٤
اليهم	اليهم	٢	١٦٩

<u>الصواب</u>	<u>الخطأ</u>	<u>السطر</u>	<u>الصحيفة</u>
انها	انها	١	١٧٢
التي (في اول السطر)	-	٦	-
للقضاء	للضاء	١١	١٧٧
الخلّة	المخلّة	١٠	١٧٩
Guilds	G. wilds	١٦	
المقتدر	التقرر	١٩	١٩٠
المصادر	الصادو	٢١	١٩٣
بالمصافية	بالمصاقية	١٢	٢١٠
هذه	له	١	٢١٩
الدائمة	الدائمة	١١	٢٥٥
التناء	الثناء	٣	٢٦٤
اشربوا	شربوا	١٣	٢٧٥

ثبت المواضيع

٢٣ - ٥	المقدمة
٤٠ - ٣٤	الوائق
٥٨ - ٤١	المتوكل
٧٤ - ٥٩	فترة التسع سنوات
١٠٦ - ٧٥	ثورة الزنج
	الامارات الفارسية :
١١٢ - ١٠٧	الطاهريون
١١٩ - ١١٢	الصفارون
١٢٥ - ١٢٠	السامانيون
١٨٧ - ١٢٦	الاسماعيلية والقرامطة
٢٣٦ - ١٨٧	عصر المقتدر
٢٩٠ - ٢٣٧	البويهيون
٢٩٨ - ٢٩١	ثبت المصادر
٣٠٣ - ٢٩٩	فهرس بالمصطلحات والفرق
٣٠٥ - ٣٠٤	ثبت الاغلاط المطبعة
٣٠٦	ثبت المواضيع





A. U. B. LIBRARY



11/15/1911

11/15/1911

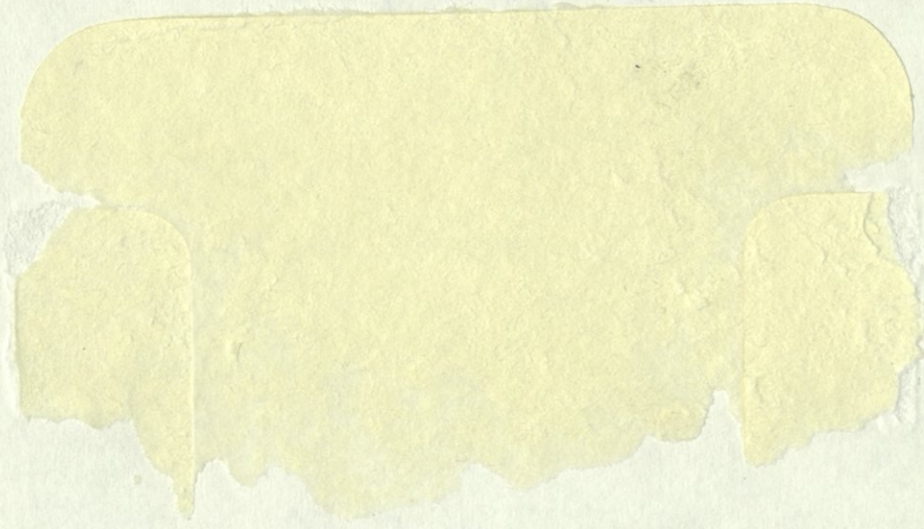
11/15/1911

A. U. B. LIBRARY

الدورى ، عبد العزيز
دراسات في العصور العباسية المتأخرة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003078



297.09
D962dA
C.1